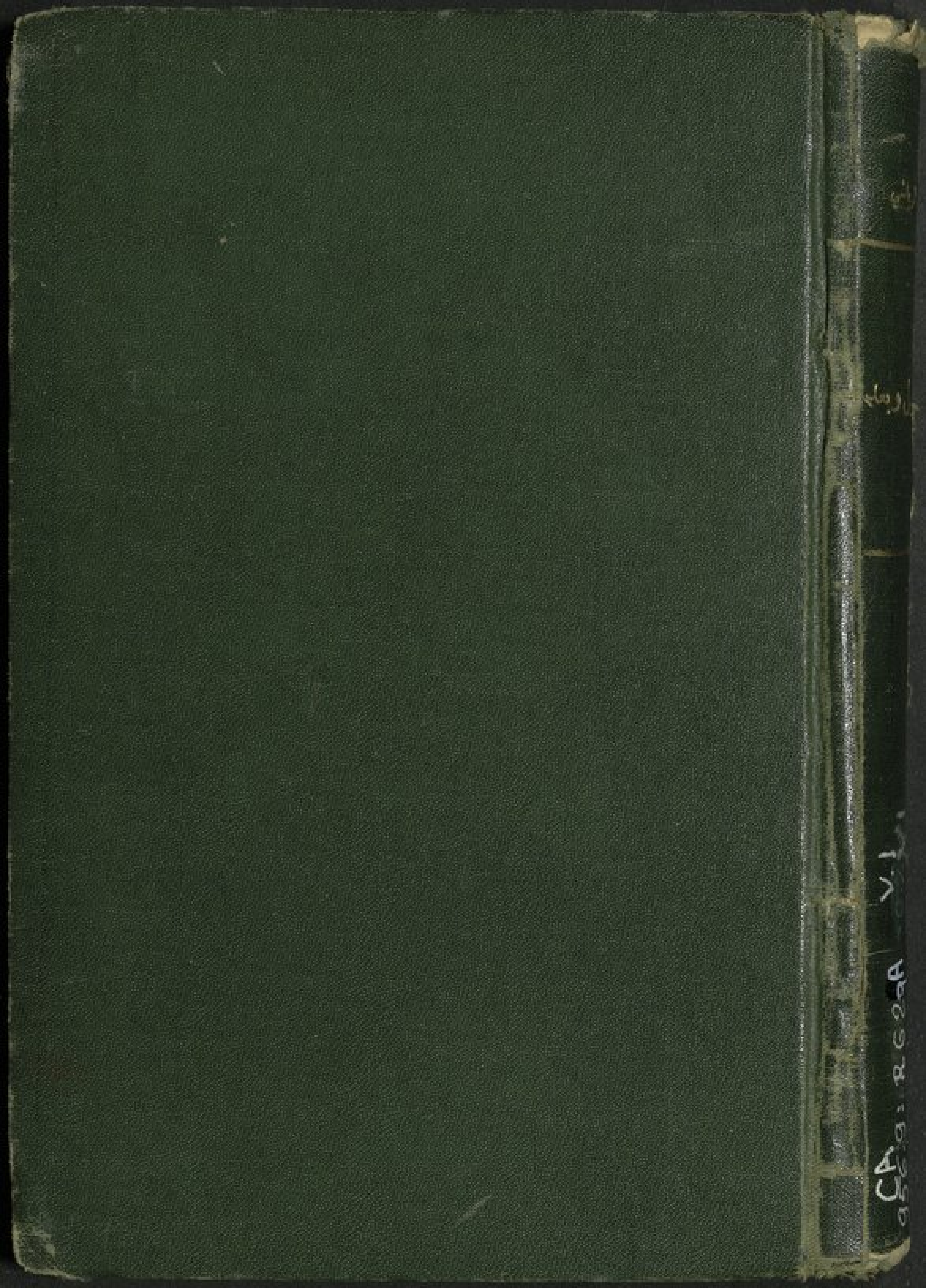
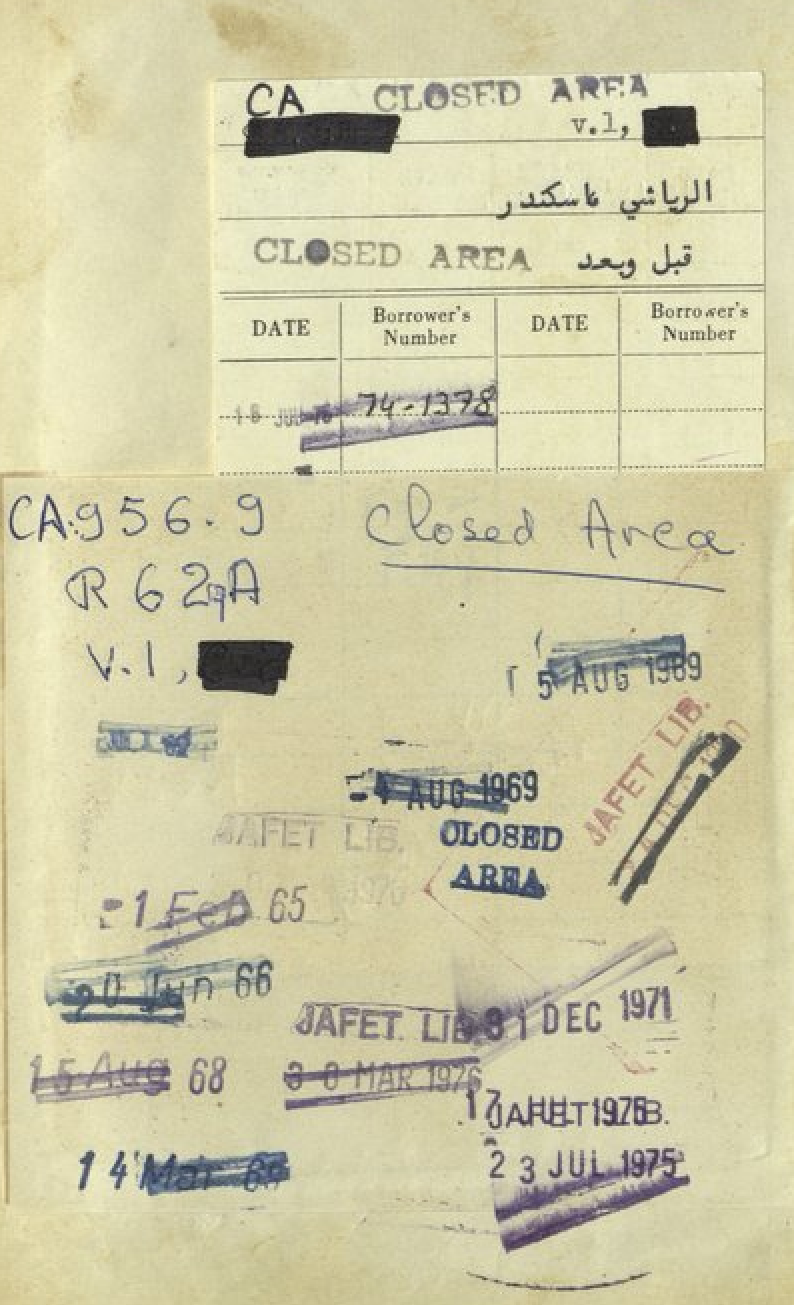
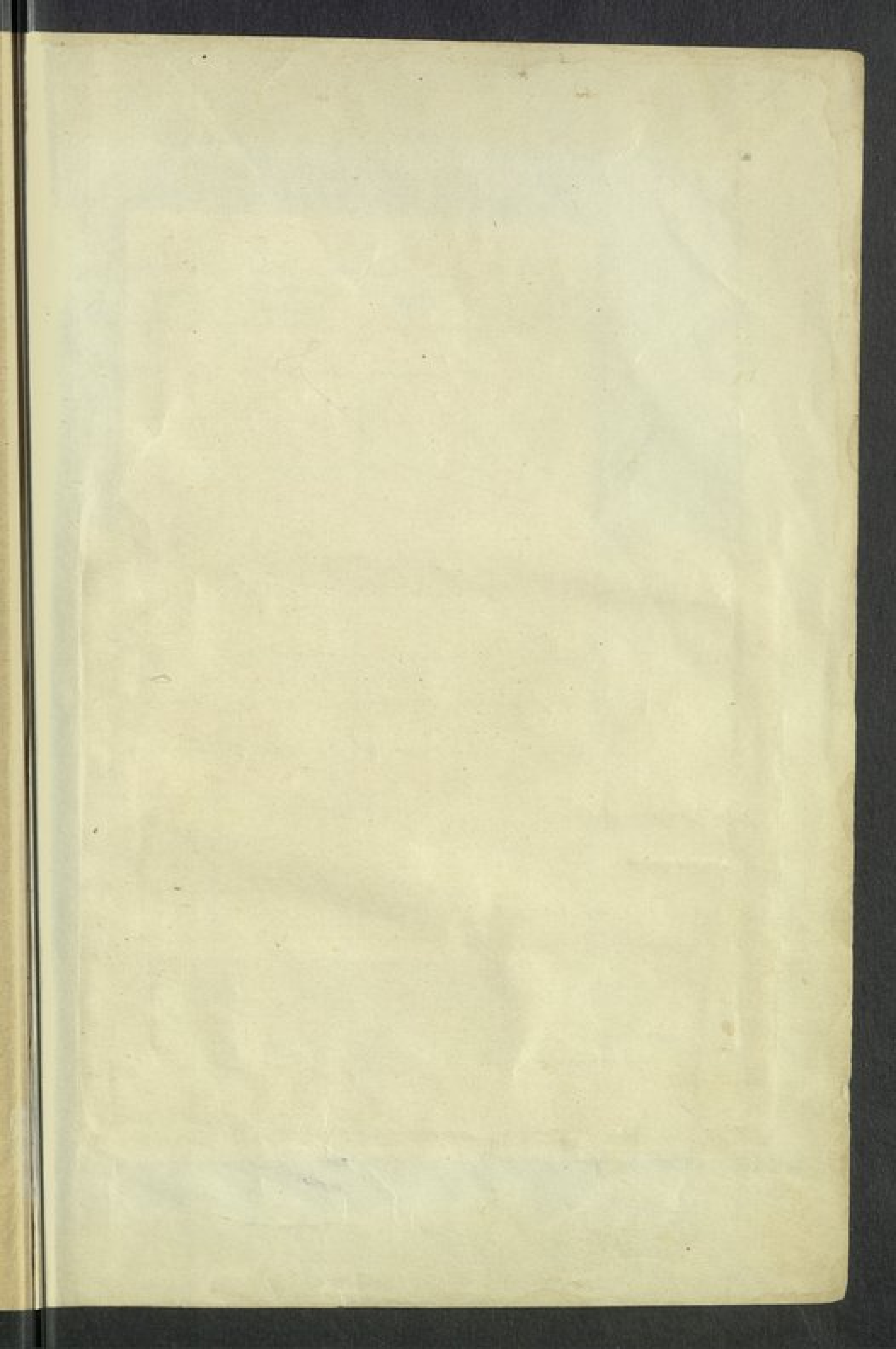
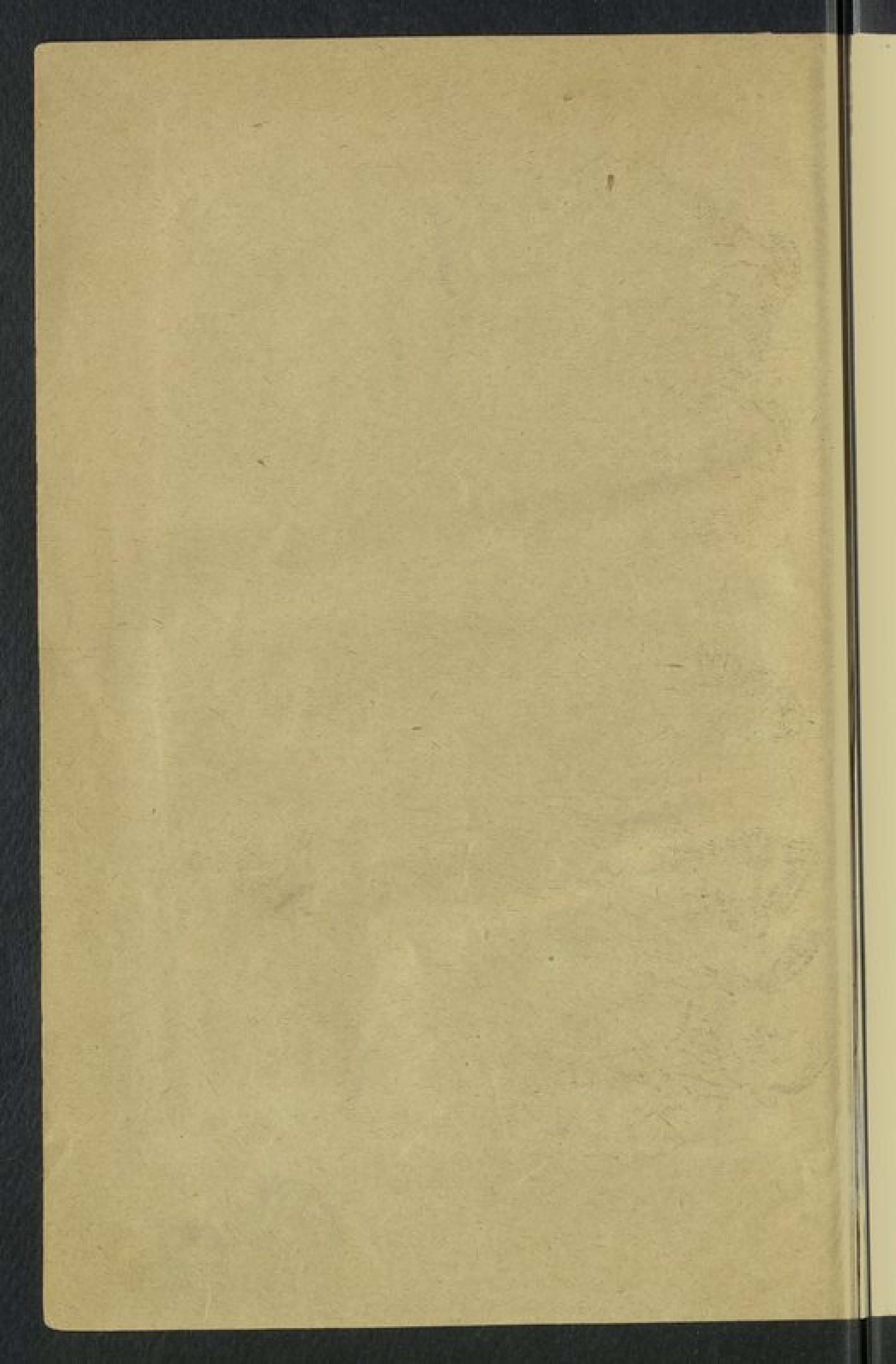
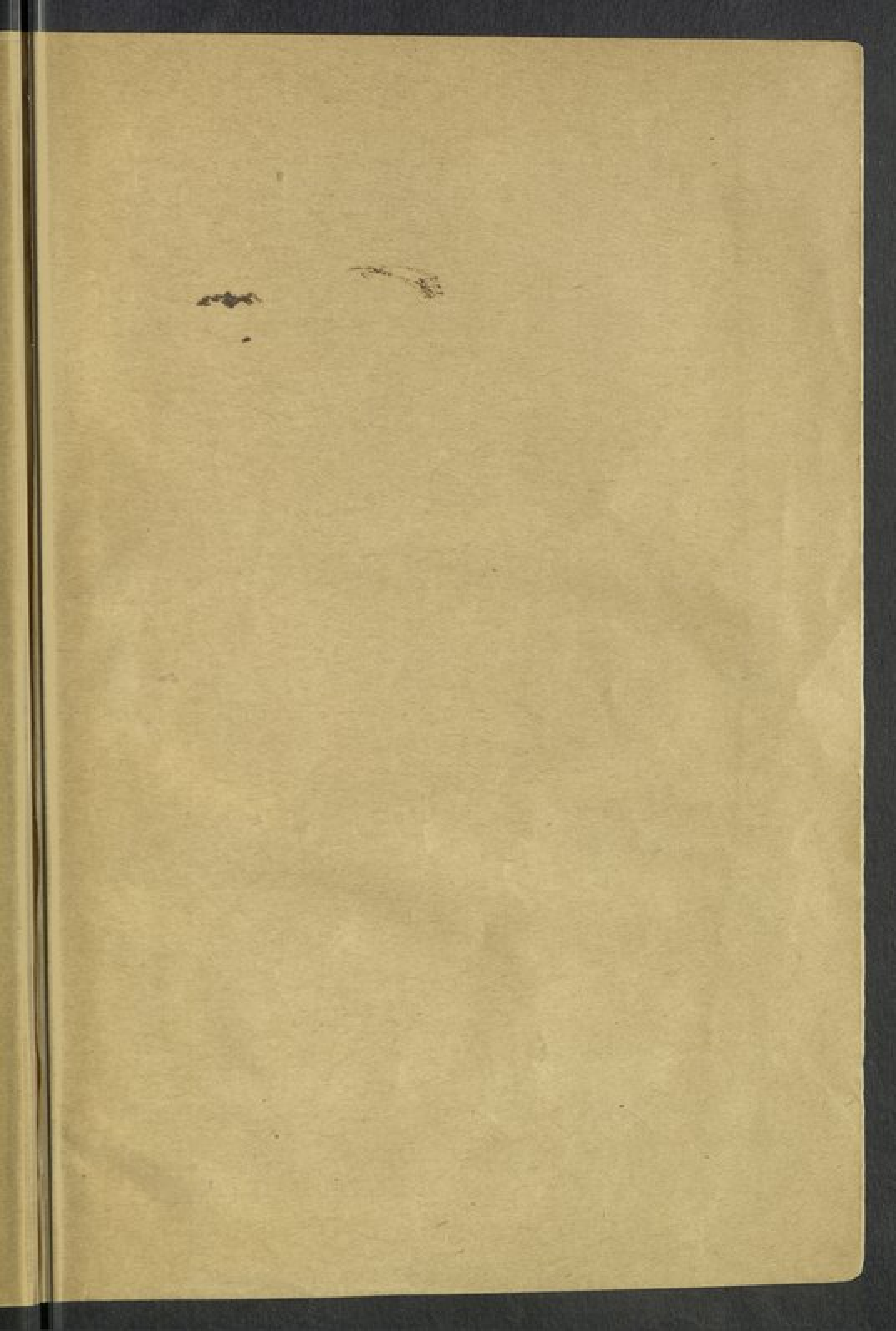


CLOSED
AREA











تذكارات اسكندر الرياشي

الكتاب الاكثر قراء فى البلاد ، ومؤلف الكتاب الدولي الذي سبقت شهرته طبعه : « نعيش مع الالهة » يصدر قريبا ، وبوقت واحد ، فى نيويورك بالانكليزية ، وفى باريس بالفرنسية ، وفى بيروت بالعربية .

مطابع « دار الحياة » — ١٩٥٢

قبل

١٩١٨ — ١٩٤١

« من كان منكم بلا خطيئة فليرجم هذه المرأة بحجر »

... وثبت انه لم يكن بينهم احد بدون خطيئة ، لذلك لم يرجموا تلك المرأة بحجر !

يصدر قريبا المجلد الثاني :

بعد

١٩٤٢ - ١٩٥٣

كلام عن المؤلف

قال الريحاني في كتابه قلب لبنان :

« هذا الصحفي اسكندر رياشي له فن خاص ظريف لبق مطلع بالكتابة ، فهو يقرأ الف سطر ليكتب سطراً ! »

***

سنة ١٩٤٨ قال الجنرال كاترو في حفلة للمفوضية العراقية ببيروت ملاطفاً: «هذا الصحافي التائه هو اكبر وانبه صحافي عرفته في الشرق ! »

***

كلف الملك ليوبولد البلجيكي أثناء مروره ببيروت سنة ١٩٣٦ قنصله العام بزيارة صاحب «الصحافي التائه» حاملا له رسالة من جلالته تقول :

« ما كتبته جريدتك عني بصدد زيارتي بيروت ، فيه من اللباقة والبراعة والخبرة الصحفية ما أدهشني ، وذلك لعدم معرفتي ان الصحافة في الشرق بلغت هذا المستوى من اللباقة والحذاقة ! »

***

نشر الكاتب الاميركي الكبير المعروف هوارد كابلين في مجلة « البارتزان ريفيو » سنة ١٩٤٧ يقول :

«عرفت في الشرق الاوسط فولتير جديداً لا يقل عن فولتير الاول براعة ونبوغاً ، اسمه اسكندر رياشي وعنده جريدة ممتازة تصدر في لبنان بلاد الارز . »

اسئلة واقعية

سؤال — من عمل الاستقلال ؟

جواب — هتلر !

سؤال — لماذا يسمون بيروت شنغاي البحر المتوسط ؟

جواب — لان الفساد والاستغلال والمتاجرات ولدت فيها !

سؤال — من عمل الانقلاب ؟

جواب — المسيو بوسون !

الجواب على الاسئلة

— عمل هتلر الاستقلال عندما احتل باريس .

— كان الفساد نائما نوعا في شنغاي البحر المتوسط فجاء دي مارتل لا يحترم شيئا ولا يحرم شيئا وايقظه فيها .

— عمل «بوسون» الانقلاب عندما استدعته ادارة البنك لفرنسا ، وفصلته عن رئاستها ، وسحبت الملايين التي كان قد مول بها المشاريع والتجارات والصناعات في لبنان .

تقدمة هذا الكتاب

... للسذج المغرورين المخدوعين للناس الملاح الذين لا يزالون يعتقدون ان فى لبنان زعماء سياسة ، يحسبون الاستغلال جريمة والنزاهة فضيلـة فى بلاد كانت ـ على مدى الاجيال ـ تحسب القاتل بطلا ، والمتلاعب نابغة، والذي يمكنـه ان ينهب ويسلب ولا يفعل « اهبلا » !

- ١ -

عندما يزول ارز لبنان يزول لبنان !

هكذا كان يقول « ارنست رينان » الفيلسوف الفرنساوي الذي زار لبنان في منتصف القرن الغابر ، وكتب عنه اشياء كثيرة شيقة قيمة. وكان ـ بعد فولني ـ اول من عرف اوروبا بصورة ايجابية على هذا الجبل الذي سماه فولني « جبل الموارنة » .

ولارنست رينان فيه رسائل حب ، اثبت فيها ليس عاطفته الغرامية الرقيقة فحسب ، بل عبقريته الكتابية وبلاغته اللاذعة المشهورة ايضا . وهذه الرسائل تبادلها مع حسناء لبنانية اشتهرت في زمانها بحرارة العاطفة وظريف الحديث ، وها ماتزال محفوظة في بيروت عند ابنة اخيها الحسناء السيدة روز ابو شعر ، التي ورثت عن عمتها ما اشتهرت به في صباها من غنج ودلال .

وكان رينان قد نزل ضيفا على تلك السيدة ـ واسمها مريم خضرا ـ في بيتها في قرية « القرية » في المتن الاعلى ، المعروفة بمعاملها الكبيرة للحرير . وهي معامل يدعونها عادة في القرى الجبلية بالكرخانة (كارخانة)

ومن هنا يومئذ جاءت استعارة اسم « كرخانة » للبيوت العمومية ببيروت ، اذ ان معامل الحرير كانت تستوعب دوما مئات البنات كعاملات مما كان يخلق للرجال جوا من الشبق والشهوات ، ويسبب في المعامل بلبلة واهواء ، غالبا ما تنقلب هائجة عاصفة !

***

وانما يجب القول ان الفضل الاول في تعريف لبنان الى العالم باجمعه واخصه الى الغرب ، كان دوما للكتاب المقدس ، فاي رجل في اي بلد كان ، واية فتاة في نيويورك او مونتريال مثلا يأتي اسم لبنان امامها ، ولا تقول لك : اليس هو الجبل المقدس الذي بنى سليمان هيكل اورشليم من ارزه ؟

وهكذا ، طالما فى راس الجبل الارز الخالد طالما لبنان فى الوجود .

وما جاء ذكر لبنان فى الكتاب المقدس وفى الاساطير القديمة الا مصحوبا دوما بكلمة الارز يرافقه ولا ينفصل عنه ـ كجزء لا يتجزا منه، وكرمز دائم الاخضرار له .

ثم انه بعد الفتح الاسلامي ، لولا وجود النصارى فى جبل لبنان ، لما كان لبنان ذا استقلال على مدى الازمان ، مهما كان ذلك الاستقلال نسبيا منذ القدم حتى اخر عهد السلطنة العثمانية ، ولما كان هناك من داع لجعله منفصلا عن باقي البلدان التي حوله ، اذ لم تكن هناك فواصل جغرافية غير جبال وانهار ـ لا يمكنها ان تشكل لوحدها منطقة مستقلة طبيعية .

وكانت اشجار الارز الرمز اللبناني فى البداية ، ثم جاءت النصرانية بعد ذلك وطبعت الجبل بالخاتم الماروني ، وقد جاء به رجل تقي بار من بلاد ما بين النهرين ، ونزل على ينبوع العاصي ، فى كنف جبل الهرمل ، حيث لا تزال مغائر ديره منقورة بالصخور على الربى الشماء المرتفعة فوق النهر وحيث انطلق بعد ذلك تلامذته الى الجبال يتسلقونها ويبشرون عشائرها الملحدة من عباد الاصنام بالمسيحية المبجلة السماوية .

***

وكان لبنان قبل المسيح ، وبعده باجيال ، وقبل الرومان جبلا حصينا مشيدا ، يقوم فى وسط سهول وصحاري لا اول ولا اخر لها ـ يعتصم فيه اهله ويعيشون لوحدهم معتكفين الى آلهتهم ـ الى فقرهم من جهة ، والى فروسيتهم وروحهم المتمردة دوما من جهة ثانية .

وما كانت الشعوب التي حول جبل لبنان تجد فيه شيئا من الخيرات والسعة لتطمع فيه وتخاطر بالقتال لاجله ، فتحاول اكتساحه وامتلاكه

اذ انه كان دوما جبلا اجرد ، ليس فيه مراع لغير الماعز ، وليس فيه قطعان غير الدببة والذئاب !

وما كان الفاتحون الاتون من الغرب للشرق ، او من الشرق للغرب يمرون بسواحله ، الا مرور طريق ، واذا اقاموا فيه ، لم يكن ذلك طويلا . ولم يكونوا باجمعهم يطمئنون اليه ، لا من جهة الاعاشة والسلب ، ولا

من جهة الطمانينة من عصاباته المتحصنة فى مغاوره ، واغلبها مؤلفة من قطاع طرق ، لا يعرفون شريعة ولا شفقة .

كما انه ولا شك لم تكن مهاجمة الفاتحين للبنانيين فى حصونهم برؤوس الجبال شيئا سهل المنال ، فى وقت لم يكن فيه البارود فى هذا الوجود .

وبعد ان بدات الحضارة واستقرت فى هذا الشرق وتميزت الدول وخرج الناس من شريعة الغاب وحياة المغائر ، صار لبنان – او بالاحرى ما استقر مرة واحدة – الا على قاعدة تسويات دولية متتابعة ، اخذت تتميز كل يوم عن يوم حتى اصبحت حياته السياسية باجمعها ، بعد القرن الثامن عشر تتقلب على مختلف التسويات التي مرت به .

***

ولا يعرف احد شيئا واقعيا ثابتا عن لبنان وكيانه السياسي قبل بزنطة ، ومن بعدها العهد العثماني .

وجميع المؤرخين ، من كبارهم حتى صغارهم الذين يقولون عكس ذلك والذين كتبوا للبنان تاريخا سياسيا قبل المسيح بالف سنة ، وبعد المسيح بالف سنة كانوا مختلقين فلكيين ابتدعوا سيرا واحداثا وروايات املتها عليهم تخيلاتهم وبعض القرائن المبهمة ، التي لا يمكن ان تكون قاعدة صحيحة لكتابة التاريخ .

وبدات التسويات الدولية للبنان بوجه صريح فى عهد الاتراك فكانت هذه التسويات الاولى المسجلة والمعروفة واقعيا بين السلطنة وبين دول الغرب ، التي عاش لبنان فيها سحابة اربعماية سنة .

كانت اوروبا – واخصها فرنسا – تحاسب السلطنة فى كل مرة تريد محاسبتها حسابا صارما على مصالحها ، وذلك مقابل تسوية لبنانية جديدة ، غايتها اعطاء فرنسا حق حماية النصارى فى الشرق .

وكانت حماية النصارى مستوحاة ليس فقط من غيرة الفرنسيين على ابناء دينهم هنا ، بل كانت ايضا حجة اساسية لتدخل هؤلاء ، عندما يشاؤون ، فى امور الدولة العثمانية ، وذلك فى سبيل مصالحهم ومنافعهم .

وكانت التسويات جارية على اساس انه لا يعيش لبنان جنديا

ولا عبـدا لبنـي عثمان ـ بل ولاية عثمانية اسميا فقط ، تحكم نفسها بنفسها بالطريقة التي تراها الاصلح ، ولا تحفظ للسلطان غير الدعـاء بالعز والاقبال عاما والدعاء له بالخراب والموت ضمنا .

والتسويات اللبنانية كما قلنا كانت دوما تتوالى على مدى الاجيال ومع جميع الفاتحين ، وكانت بعد بيزنطة مع بني عثمان ومن بعدهم مع الفرنسيين سنة ١٩١٩ ، ومن بعد هؤلاء مع الانكليز سنة ١٩٤٣ ، ولكن هذه المرة بطريقة غير مباشرة .

والان بعد الاستقلال ، وجلاء الاجنبي عنه من انكليز وافرنسيين ، قامت التسوية الفلكية العجيبة الكبرى التي نعيش فيها والتي لا يوجد لها مثيل فى التاريخ السياسي . وهي التسوية التي تضمنها الان بطريقة معنوية جامعة الامم المتحدة .

والتسويات اللبنانية المختلفة المتنوعة كانت على مدى الاجيـال وحتى هذه الساعة ، اساس كيانه ، ويجب هنـا القول كحاشيـة ان التسوية الاخيرة مع جامعة الامم المتحدة جعلت لبنان ـ ومعه سوريا التي كانت اشتركت معنا بالانتداب الفرنسي وتحررت منه بعـد ذلك ـ هذه التسوية جعلت لبنان وسوريا الدولتين الوحيدتين بين الدول العربيـة مستقلتين فعلا وواقعيا .

اذ انهما بين جميع دول هذا الشرق العربي ، ليس لهما اية معاهدة مع دول الغرب الكبرى ، كما هي الحال مع مصر والعراق وشرقي الاردن.

قلت ان سوريا ولبنان وحدهما غير مرتبطتين بأية معاهدة ، وقـد استطاعتا حتى الان منذ استقلالهما ان تنقذا نفسيهما من مثل هـذه المعاهـدات .

ومنذ خرجت اوروبا من المجهول الى عهد الحضارة ودارت وجهها نحو الشرق ، تخيلت لبنان ـ كما وصفه لها الكتاب المقدس : ارز الهيكل ومهبط الوحي ، وغرام الملائكة ، فميزته السماء عن بلدان الشرق الاخرى وحبته طبيعة ممتازة منفصلة ـ معنويا ـ وجبالا وطقسا ووديانا ومياها ، عن سهول سوريا وصحارى الجزيرة وارض كنعان .

وبعد ذلك اخذت تلك الدول الغربية تتدخل فى امور لبنان بحجة

حماية حملة الصليب الذين اعتصموا به واتخذوه حصنا لايمانهم من اهله الاصليين، وممن جاءه لاجئا هاربا من المذابح الدينية التي كانت تقوم وراء جباله

وكانت فرنسا ابنة الكنيسة البكر ، وحاملة علم الايمان قوية وقديرة فاقامت نفسها قبل باقي دول الغرب حامية للبنان ، مع ان الفرنسيين ليسوا اول من جاء لبنان من الغربيين ، وليسوا اول الذين تاجروا معه وحملوا مدنيتهم اليه . بل كان الاولون ايطاليين من دولة البندقية حتى دولة جنوا ومن بعدها فلورنسا وغيرها ، فاقاموا متاجر كبيرة لهم عندنا ، وتعاملنا معهم بطريقة قريبة جدا ، ادخلت الى لغتنا كثيرا من الكلمات الايطالية ، نستعملها اليوم كانها كلمات عربية صرف .

ثم اكتسحت فرنسا مراكز جميع هؤلاء ، وجاءتنا متصادقة متوددة وجعلت لبنان على ممر السنين مرآة عنها في مدارسها وبعثاتها العلمية والتجارية والعسكرية وغيرها ، التي ارسلتها بكثرة الينا ، والتي كانت اساس الثقافة عندنا .

•

- ٢ -

التسوية الاولى بين السماء ولبنان !

والاسطورة الشعرية السماوية ، اسطورة الملاك العاشق سيدار ، كانت بالاحرى التسوية الاولى للاستقلال النسبي حينا — والكامل احيانا — الذي تمتع به لبنان منذ الوجود .

كان الملائكة بعد الخليقة يهبطون كل مساء فوق ارز لبنان ربوات ربوات ، وقد اصطفوه لجماله ولصفائه بين باقي البلدان ، وجعلوه المختار من الله والحبيب على قلبه .

كان الملائكة يهبطون من سمائهم يحومون فوق ارز لبنان مهللين مسبحين ، يمجدون الله باناشيدهم الساحرة فى جمال هذه الطبيعة بجبال لبنان والتي لم تخلق السماء لها مثيلا .

وذات يوم كانت صبية لبنانية من بنات الجبل العالي ذوات الجمال الساحر والخد الاحمر والعين الكحلاء مسترسلة الى نوم هنيء ، وقد اسندت راسها الجميل الى جذع شجرة ارز ضخم قديم ، وقد حامت حول ثغرها ابتسامة لطيفة ، تنم عن عذوبة قلبها وطهارة عاطفتها .

وكان بين الملائكة ملاك اكثر عاطفة وارق قلبا من رفاقه .

وكان قد جمع فى حيويته حرارة فتيان الارض وشهواتها !

وكان اسمه سيدار .

وحالا عندما شاهد الفتاة بجمالها الجذاب اصابته صاعقة الغرام فى قلبه ، وشعر بالحب يمتلك جوانحه .

حب ابن السماء لبنت الجبال .

واخذ يجعل نشيده لله اكثر حنوا وعذوبة من اناشيد رفاقه باقي الملائكة .

واخذ الحب يزداد به حتى اضاع عقله .

واحس اخيرا انه صار اقرب للارض منه للسماء ، وانه لم يبق عنده صبر ولا قوة للانتظار ، فرمى بجناحيه فى الفضاء ، وعاف جنة الله وهبط على الارض ، وجاء جميلا وضاحا مستهاما ، يحتضن بلهفة بنت الجبال .

وتلقته الصبية المصطفاة بين ذراعيها .

وكانت له وكان لها !

ومنهما ولد المردة !

المردة اللبنانيون الذين كانوا عمالقة الجبال ، والذين كما تقول اسطورة تاريخية اخرى ، هم ايضا اجداد المردة فى بلاد الالبان !

وكان احد الغزاة قد اغرى بعضهم عند مروره بلبنان ، فشكلوا فرقة منهم صحبته الى الغرب حيث قطنوا فى جبال البانيا ووجدوها اقل جمالا من جبالهم ، ولكن اكثر جمالا وفتنة من باقي الجبال الاخرى التي عرفوها ومروا بها .

***

وطبعا على توالي الايام توالت الديانات في لبنان ، وذلك تبعا لمتنوع الآلهة الذين انجبتهم هذه البلاد . وكذلك تبعا للديانات العديدة التي كان يجيء بها الفاتحون الذين مروا به ،

ولكن قبل النصرانية وقبل الاسلام ـ كانت ديانة عشتروت اللبنانيين ابهج واشهى الديانات ، واليها كان الاكثرون يجنحون وينزعون .

واسطورة عشتروت ربة الجمال مع عشيقها ادونيس الجميل انبثقت فى هذا المشرق واخذت بعد ذلك تكتسح وتملأ هذا العالم فى هذا الشطر العتيق من المعمور ، فتسكره من عبيرها وجمالها .

نزلت ربة الجمال والحب ذات صباح الى لبنان ، وقد عافت الجنة بعد ان اتعبها غرام الآلهة ، وما تلاقيه بين احضانهم من صلف وتحكم ، وجاءت تستريح فى بقعة ساحرة على ضفاف الغدير فى جبل افقه المدعو عند اهله بالفردوس على الارض .

وشاهدت المعبودة فتى راقدا على بساط الحشيش السندسي ، ووجدته اجمل واكثر فتنة من آلهة الاولمب ، وتخيلت ايروس وكوبدون ومارس وجوبتير نفسه رب الارباب عشاقا مبتذلين عاديين . واذا كانت فيهم روح الالوهية فليست فيهم رائحة الجبال وعطورها وماتثيره من شهوات .

واعطت الربة جسدها الآلهي لادونيس ابن الارض وصارت كل يوم تفر من مملكة جوبتير ، لتلاقي عشيقها على ضفاف الغدير ، حتى غارايروس عشيقها الآلهي الافضل والاكثر جنونا بها ، فقلب نفسه خنزيرا بريا مخيفا ، وجاء النهر ينطح بطن ادونيس وقلبه ، عندما كان راقدا سعيدا على ضفافه ، وتناثرت دماء ابن الارض حول الغدير ، فانقلبت الى زهور الشقيق الحمراء التي ما زالت مراعي ذلك الغدير تزدان به ابديا .

وعندها بدات عبادة رب الحب والجمال ، وشيد اللبنانيون على راس كل ينبوع وعلى ضفة كل جدول هيكلا لعشتروت ، التي انتقت غدير افقه لملقى حبيبها الجميل ، فاظهرت هكذا اصطفائها للينابيع والجداول والاغادير موعدا للغرام .

وكانت عبادة عشتروت تقوم على اعطاء العذارى زهرتهن للكهنة على مطالع الهياكل . فالربة ــ ربة الجمال والحب ــ لم تجد قربانا تقدمه الارض لها افضل من اعمال الحب على مطالع الهياكل .

وكانت تقوم هياكل صغيرة لعشتروت ، تصطف على طول الشاطىء من صور الى انطاكيه . وهذه الهياكل الصغيرة (الكابلات) باقية حتى الان على طول ذلك الشاطىء ، ولم يطرأ عليها تبديل فى عهد المسيحية غير استبدال تمثال عشتروت الفاسقة بتمثال العذراء الدائمة البتولية والكمال .

***

واذا كانت الان لا تزال الاجواء تعبق بالشهوات والشبق فى اي مكان من جبل لبنان قامت فيه منذ اجيال واجيال هياكل لعشتروت ، فذلك هو البقية الباقية ، والاثر الجنسي الخالد الذي تركته عذارى ذلك الزمان فى تلك الهياكل ، عندما كن يقدمن بتولياتهن ببهجة وغبطة لربة الجمال والحب وارواء لشهواتها السماوية والجنسية !

ويلاحظ القاريء اليوم ان افضل ملتقى للعشاق واهل الغرام كان دوما ، وحتى الان ، فى نهر ابراهيم مثلا حيث كانت تقوم اعظم هياكل لعشتروت ، وحيث رائحة الشهوات لا تزال تنضح على ضفاف النهر المقدس الذي سالت فيه دماء العذارى غزيرة حارة ، كانت تجعل مياهه - حسب الاسطورة - وحسب ما يخيل للناظر اليها - حمراء اللون .

وهذه ظاهرة يمكن ان نحسبها ناموسا طبيعيا ، نجد فيه الحاضر يعيش فى الماضي ، ليس فقط فى تاريخه وتذكاراته ، بل ايضا فى اجوائه وهوائه وشهواته .

***

لذلك يتخيل العارفون الحكماء ان اللبناني فى هذا الوقت لا يفرق عن اللبناني فى العهد الصخري والحديدي الا فى اللباس والجلوس على الكراسي والقراءة .

ولكنه فى العبادة والاخلاق ، وفى حياته الفكرية والجنسية باق كما كان ، ويبقى هكذا على مدى الدهور .

وكما ان استقلال جبل لبنان على مدى الاجيال قام على قيم معنوية فقط - فانما كل لبناني امس واليوم وغدا يعيش على ماضيه وليس على مستقبله .

لذا ترانا ننظر بالامر لما كان اكثر مما ننظر لما سيكون . ومن هذا نبتت هذه السياسة الارتجالية التي سيطرت وتسيطر دوما على حياتنا العامة: سياسة مداواة الحاضر بالحاضر ، والتلذذ والتغني والاعتزاز بالماضي وترك الغد له، يتدبره كما تدبر لنا اليوم الذي نحن فيه .

وهذه السياسة الارتجالية هي التي كانت قاعدة لجميع المخالفات والاعمال الاعتباطية والمفاسد والمخازي التي قامت فى عهد الاستقلال بعد سنة ١٩٤٣ وقبله ، حين تركنا الغربيون نحكم نفسنا بنفسنا ، واحاطت المفاسد بصورة خاصة عهد الرئيس السابق الشيخ بشاره الخوري ، الذي يدور هذا الكتاب واحاديثه فى فلكه ، وهي مفاسد جعلت نور امجاده فى خدمة الاستقلال وعهده الظافر فى السيادة الوطنية يتضاءل وينوص .

فانما هذا الكتاب ، الذي سيكون خليطا طريفا وحقيقيا لكل الاحداث

التي جرت فى لبنان منذ انفصل عن الدولة العثمانية حتى الان ، يجب ان يتلاقى فى النهاية مع الشيخ بشاره الخوري فى جميع ما يسطره ويقوله .

وليس ، ولا شك ، احد الم بكل الامور وكل الاشياء وكل الخفـــايا من حياة لبنان فى عهد الانتداب وبعده اكثر من هذا الكاتب الذي يحدثكم الان ، والذي كان له فى كل الحوادث والاحداث دورا لعبه .

وسيكون حديثه كما يعهد الناس فكها طريفا لبقا ولكن واقعيــــا اكيـــدا .

●

- ٣ -

عندما اشترى عمال فرنسا لبنان للفرنسيين

... وكان ذلك طبعا بالمال ، الرب الثاني عند جميع الناس ، والرب الاول فى بيروت عاصمة لبنان ، قاعدة التجارة والمتاجرة منذايام الفينيقيين والمعروفة الان عند الغربيين بشنغاي الشرق الاوسط ، وسوق الذهب فى هذه الايام ، وحيث يقوم المقر العام للشيوعية فى البلدان العربية، كما تدعي جرائد اميركا وانكلترا المحافظة المعروفة .

هكذا ابتاعت فرنسا الانتداب عندنا ، قبل العاطفة وقبل التقاليد الفرنسية ــ المارونية ، بالجنيهات المصرية ، التي كانت عملة الفرنسيين الرسمية عندما وصلوا مع الانكليز فى تشرين الثاني ١٩١٨ البلاد اللبنانية. وكان الجنيه يسوى ليرة انكليزية ذهبية ، وغرشين ذهبا ونصفا علاوة.

فانما تلك الجنيهات هي التي جعلت بالاحرى اللبنانيين يخرجون باكثريتهم من الحيرة التي كانت قد استولت عليهم فى الايام الاولى للاحتلال وذلك من جراء جهلهم لمصيرهم ، حتى اليوم الذي اخذ فيه الجانبان : الجانب الانكليزي والجانب الفرنسي ، يتنازعان ويتزاحمان على وضع يد كل منهما على هذه البلاد (١) .

وفى البداية كنا نتساءل حيارى : هل تكون هذه البلاد لملك العرب الحسين بن علي وابنه فيصل الذي كان قد دخل الشام بجيوشه الظافرة، يقف وراءهما الانكليز ويساندونهما ؟

ام تكون للفرنسيين وقد وصلوا الى هذه البلاد فرقة صغيرة جدا ضمن الجيش الانكليزي العرمرم ؟

---

(١) ظل لبنان، تحت الحكم الفرنسي المباشر من تشرين الاول ١٩١٨ الى ان اعلن الجنرال غورو استقلال دولة لبنان الكبير فى اول ايلول ١٩٢٠ ، وعلى الاثر الف لجنة ادارية تمثيلية من ١٧ عضوا استمرت حتى ايار ١٩٢٢ . وكان تساعد الحاكم الفرنسي على ادارة البلاد. وبعد ذلك جرى انتخاب المجلس النيابي الاول فى ايار ١٩٢٢ ، وكان مؤلفا من ٣٠ عضوا ، وترأسه حبيب باشا السعد .

نعم ، كان للانكليز زبائنهم فى جبل لبنان من الدروز والمسلمين ، الذين غرتهم عهود لندن بانشاء امبراطورية عربية كبرى نواتها عرش الملك حسين بن علي وعروش ابنائه الموعودة فى سوريا والعراق ، وغيرهما من البلدان العربية . ولم يكن شرقي الاردن حتى ذلك الوقت ينتظر المفاجأة الكبرى بان يصبح امارة ثم مملكة ...

وكان للفرنسيين خصوصا زبائنهم فى جبل لبنان من الموارنة والطوائف الكاثوليكية التابعة لروما . وقد اقامت فرنسا نفسها حامية لهم ولنصارى الشرق منذ الجيل الحادي عشر .

وكانت الطوائف المحمدية فى عهد الدولة العثمانية توالي بالاكثر الانكليز وتجعل القنصلية البريطانية العامة ببيروت قاعدتها ومرجعها .

وكان الارثوذكس ، مع سقوط القيصرية الروسية التي كانوا ينتمون اليها قبل الاحتلال ، عندما كانت لا تزال امبراطورية آل رومانوف، قد اضاعوا توازنهم ، وحاروا بامرهم بعد زوال العرش ببطرسبرغ وقيام الشيوعية. وزاد فى حيرتهم ما قام دوما بين الكاثوليك والارثوذكس من تنافر قديم منذ انفصل هؤلاء عن روما .

لذلك عندما وصل الحلفاء هذه البلاد ، وجد الارثوذكس من الافضل والاقرب لهم ان يلتفو احول الانكليز بدلا من الالتفاف حول الفرنسيين ، اصدقاء منافسيهم بالدين موارنة جبل لبنان .

وجرى لهم ما يجري عادة بين الاقارب عندما يتعادون ، اذ تشتد احقادهم الى درجة يفتش من ورائها كل جانب عن عدو اقاربه ، فيحالفه ويرتمي بين احضانه .

لهذا كان الارثوذكس دوما ، حتى فى زمن الاتراك ، يأخذون جانب المسلمين ويتعاونون معهم اكثر مما يتعاونون مع اخوانهم فى الدين ، خصوصا الموارنة .

ولما نادى الموارنة بفرنسا سنة ١٩١٩ للحكم فى هذه البلاد ، نادى الارثوذكس بالعرب . وكانت كلمة المناداة بالعرب تعني ايضا المناداة بالانكليز .

***

مع هذه العوامل كلها كان الجنيه الانكليزي يشتغل .

وكنت في راس الذين كلفتهم المفوضية الفرنسية في بيروت الممثلة يومذاك ، اولا بالمسيو كولندر ، وبعد ذلك باسابيع قليلة فقط بالمسيو جورج بيكو – قلت ، وكنت في راس الذين كلفتهم المفوضية بما يلي :

اولا – في الاشتراك بصرف الخمسة ملايين وخمسمئة الف جنيه ، وهي القيمة الباهظة التي خصصها الفرنسيون للدعاية لهم في لبنان .

ثانيا – بجعل الاكثرية في لبنان تقول انها مع فرنسا ، وذلك امام لجنة « كراين » الاميركية ، التي ارسلها الرئيس ولسون الى هذه البلاد تستفتي الاهلين ، وذلك عندما اشتدت المزاحمة بين الانكليز والفرنسيين المحتلين ، مما كاد يخلق بين الدولتين خلافا كبيرا ، ومما كاد يجعل الحليفتين فرنسا وانكلترا تتحاربان الواحدة مع الاخرى .

وكان العامل الاول الذي جعل الرئيس ولسون يتشبث بارسال لجنة كراين لاستفتاء الاهلين في لبنان ، ومعرفة ما اذا كانوا يريدون فرنسا ام انكلترا وصية عليهم ، تحميهم وتعلمهم الاستقلال – كان ذلك العامل الاول والاقوى هو تدخل رئيس الجامعة الاميركية في بيروت في ذلك الوقت ، المستر بلس ، الذي حمل نفسه وذهب الى باريس يتصل بمجلس الاربعة الكبار الذين كانوا يديرون اعمال العالم بعد نصر ١٩١٨ ، برئاسة الرئيس ولسن .

وكان الفرنسيون – كما اسلفنا – قد اشتغلوا كثيرا قبل الحرب لاعلاء شان مدارسهم العديدة وبعثاتهم الدينية والعلمية ، مما اثار بين المؤسسات الفرنسية الكاثوليكية والجامعة الاميركية الانجيلية مزاحمة عدائية كبرى ، تدوم وتزداد على ممر الايام .

وعرض رئيس الجامعة الاميركية على مجلس الاربعة راي فئة من الناس لا تريد الحكم الفرنسي ، فتأثر المستر ولسون من كلام مواطنه وارسل لجنة كراين المشهورة (١)

---

(١) نزلت لجنة كراين الاميركية الى يافا في ١٠ حزيران ١٩١٩ ثم زارت دمشق وبيروت واضنه ، ثم عادت الى باريس في ايلول ١٩١٩ ووضعت تقريرها الذي دل على رغبة اكثرية السكان في الاستقلال . ولكن اميركا كانت قد انسحبت ، في تلك الاثناء ، من تنظيم الصلح في العالم ، فخلا الميدان لانكلترا وفرنسا في الشرق ، وطبقا معاهدة سايكس – بيكو السرية على البلاد العربية ، وبموجبها ترك الانكليز سوريا ولبنان لفرنسا .

- ٤ -

المال ضعف الرجال ، ولو كانوا اغنياء !

كان الصحفي الفرنسوي الشهير « هنري دي روشفور » يقـول : « طبعا ، الذين ليس عندهم مال يستطيعون بكل سهولة ان يكونوا حرامية »

ولكن لماذا بعض الذين عندهم مال لا يتورعون عن السرقة والمتاجرات القـــذرة ؟

وكان كلام دي روشفور ماثورا ، فعلى هذه القاعدة كان اكثر الذين اخذوا المال من الفرنسيين بعد الاحتلال ثمن الانتداب ، من الزعماء الموسرين .

واكثر الذين لم يقولوا بالانتداب ، هم الذين لم يقبضوا !

واي من جميع هؤلاء السياسيين ، الذين قالوا وزعموا فى ما بعـد انهم حاربوا الفرنسيين منذ الساعة الاولى – اي منهم لم نشاهده فى مطلع الاحتلال عند الكابتين دام بالمفوضية ، او عند الكولونيل نيجر والمسيـو مرسييه فى السراي الكبيرة ، يقدم خدماته ويعرض خضوعه !

فاذا ارتضى ماكيا ظل على العهد والشكر ، واذا لم يقبض سـب وانكر واستنكر وشتـم !

وكان بين الساسة نفر فيهم مدرك حاذق ، ضمن لنفسه السلامة – وربما الثروة ايضا – عن طريق مصادقة الجانبين ، فان ربحت فرنسا او ربحت انكلترا ، يظل هو الرابح !

وتجلت هذه الظاهرة الكبرى فى سنة ١٩٢٠ عندما جمع فيصل فى الشام المؤتمر السوري ، واقتضت المصلحة ان تكون جميع اجزاء سوريا الكبرى ممثلة فيه .

ولم يجد الفرنسيون فى بيروت ، ولا الفيصليون فى الشام ، مستغربا ومدهشا ان يكون مثلا اسعد بك حيدر عضوا فى المؤتمر السوري ، وان يكون نجله عضوا فى اللجنة الاستشارية بلبنان .

وبالطريقة نفسها ، كان مثلا يوسف نمور عضوا فى المؤتمر السوري، وكان شقيقه موسى بك نمور متربعا عند الفرنسيين ببيروت ، وعاملا لهم فى البقاع .

وكان محمد سعيد حماده ، سيد الهرمل ، عضوا فى المؤتمر السوري وكان حفيده صبري بك حماده يتدبر اموره مع الفرنسيين .

وجاء الانكليز باسكندر بك عمون على ظهر طراد عاملا سياسيا لهم فى لبنان جعل مقره العام فى لوكندة «السنترال» على البرج ، وعلى حساب خزينة صاحب الجلالة طبعا .

وجاء الفرنسيون باخيه داود بك عمون عاملا سياسيا لهم ، جعل مقره العام فى لوكندة «نجوم» على الزيتونة ، وعلى حساب الجمهورية الفرنسية الحسناء طبعا . وقس على ذلك عدة زعماء من جبل لبنان او الجنوب او الشمال ..

وزودت كل من الدولتين عمالها بمبالغ من المال ، وتركتهم مطلقي اليد فى صرفها كما يريدون : هذا لمجد فرنسا ، وذاك لمجد العرب ، ومن ورائهم بريطانيا .

***

وكان الفرنسيون قد جاؤوا ايضا على ظهر مدرعة كبرى بالاستاذ اميل اده ، وقد اتخذوه مستشارا محترما وصادقا لمفوضيتهم ببيروت، التي كان يقوم بأعمالها المسيو كولوندر(١) كوكيل لها بانتظار قدوم المفوض السامي الاصيل المسيو جورج بيكو .

وكان المسيو كولوندر اول ممثل فرنساوي دخل هذه البلاد باسم الحماية الفرنسية ، التي كانت فرنسا قد فرضتها علينا بطريقة منفردة منذ البداية ، وقبل موافقة الحلفاء وجمعية الامم بجنيف على الانتداب.

ولم يطل وقت المسيو كولوندر هنا غير بضعة اسابيع ، كان المسيو جورج بيكو قد اتى فى خلالها وبصحبته الكابتن «دام» رئيس غرفته السياسية الجديد ، والمؤتمن على الخمسة ملايين ونصف مليون جنيه لشراء الانتداب الفرنساوي فى هذه البلاد .

---

(١) وصل كولوندر الى بيروت فى تشرين الثاني ١٩١٨ .

ولم يسافر المسيو كولوندر قبل ان يرتكب غلطة فرنسا الاولى فى هذه البلاد ، مع انه كان رجلا فهيما حاذقا ، وقد صار بعد ذلك بسنوات سفيرا ببرلين ، ومن اكبر الرجال الديبلوماسية الفرنسيين .

ذهب حضرته فى عيد الميلاد سنة ١٩١٨ يحضر قداسا احتفاليا فى كنيسة مارجريس الموارنة ببيروت ، اقامه مطران الموارنة على شرف فرنسا .

وكان ذلك فى الوقت الذي بدات فيه الدعاية الفرنسية تشتغل بنشاط كبير عند المسلمين فى بيروت وطرابلس ، الذين كانوا اظهروا عداء عنيفا لكل سيطرة افرنسية تفرض عليهم .

ذهب المسيو كولوندر ممثل الجمهورية الفرنسية الاول فى لبنان الجديد ، المنفصل حديثا عند الدولة العثمانية ، ووقف فى الجماهير الغفيرة من الموارنة التي جاءت تحيي ممثل فرنسا ، وقال ان فرنسا تاتي لهذه البلاد خصيصا اجابة لدعوة اصدقائها الموارنة ، وللمحافظة عليهم ولاعلاء شانهم ...

وقامت قيامة الاوساط الاسلامية بعد هذا .

واذا كانت الخمسة ملايين ونصف المليون جنيه كافية لشراء الانتداب ، فبعد هذا التصريح صار من الواجب رصد عشرة ملايين جنيه على الاقل !

***

وقامت قيامة الارثوذكس ايضا من هذا التصريح ، وهم الذين كانوا يعادون الموارنة التابعين لروما ، اكثر مما يعادون المسلمين التابعين لمكة .

وكان بطريرك الارثوذكس بالشام اكثر عداء للنفوذ الفرنسي من المفتي المسلم فيها .

وتجاه هذا الاتجاه الارثوذكسي المعادي للفرنسيين ، راى هؤلاء — بعدان استتب لهم الانتداب فى ما بعد — تعيين اول رئيس للجمهورية اللبنانية شارل دباس الارثوذكسي ، على اعتبار ان هذا التعيين يرضي القسم الاكبر من ارثوذكس بيروت ، الذين كانوا فى ذلك الحين يؤلفون الطبقة الغنية والوجيهة بين المسيحيين فى المدينة . وكان بقية ارثوذكس لبنان وسوريا ياخذون العظات والدروس والنزعات السياسية عنهم ، ويعملون بها .

- ٥ -

رياض الصلح عند جورج بيكو

كان الفرنسيون ، في منتصف ١٩١٩ ، في معترك المساومات لاكتساب رضى الاكثرية بالبلاد التي لم يكن مصيرها قد تقرر بعد ، عندما حمل نفسه فتى جميل الصورة ، براق العينين ، ظريف الكلام ، زاهي الشعر ، يكاد خيال من الشارب يخط خطا رفيعا فوق شفته العليا ، وجاء الى قصر جنبلاط يزور المفوض الفرنساوي المسيو جورج بيكو ، وذلك بناء على رغبة هذا الاخير ، وكان الفرنسيون قد اتخذوا ذلك القصر مقرا عاما لهم في بداية عهدهم بهذه البلاد .

ذلك الفتى الجميل كان رياض الصلح .

ولعلنا نحن الذين جعلناه يزور الفرنساوي ، في وقت كان فيه كبار المسلمين يناصبون فرنسا العداء ، ويعتبرون زيارتهم لمثلها نوعا من الخيانة للقومية العربية وللوحدة التي كانوا يعملون لها تحت تاج الملك حسين . وكان الانكليز قد وعدوهم وتعهدوا لهم بها .

ولكن رياض الصلح كان شجاعا وكان متحديا ، وكان يريد ان يهاجم الذئب في عرينه ، وكان يريد ان يعرف حقيقة العهود الانكليزية ، بعد ان راى الفرنسيين لا يحترمون عهود الانكليز للعرب ولا يقيمون لها وزنا ، وبعد ان راى الانكليز مع تظاهراتهم مع العرب ووقوفهم علنا في سوريا مع الشريف فيصل ، يتراجعون كثيرا امام الدعاية الفرنسية ، ويتجاهلون النتائج الكثيرة التي اخذ الفرنسيون يجنونها من دعايتهم .

وسجل الفرنسيون في تلك الزيارة يومئذ حديثا عنيفا للفتى المتحمس المستنير .

مما دعا جورج بيكو ان يقول عندما ودع زائره :

ـ هذا الفتى سيكون خطرا علينا دوما !

وخرج رياض الصلح من لدن ممثل فرنسا اكثر عداء لفرنسا مما دخل ، اذ انه وجد عند الفرنسيين عزما اكيدا على الاحتلال والحماية الكاملين !

***

واخذ رياض الصلح منذ ذلك الحين يشتغل بجميع الطرق ضد فرنسا ، وفي سبيل الوحدة السورية . وبالفعل ، بعد اشهر قليلة من ذلك، كان ـ وهو يومئذ في العشرين من عمره فقط ـ يضع عشرة من اعضاء مجلس ادارة لبنان الاثني عشر بجيبه ، بعد ان استعان على غايته بمبالغ ذهبية طائلة وضعها تحت تصرف القضية الوجيه البيروتي عارف بك النعماني

هذا المجلس الاداري لمتصرفية جبل لبنان الغاه العثمانيون في اول الحرب العالمية الكبرى ، عندما الغوا امتيازات الجبل السياسية وضموه الى احدى الولايات . ثم بعثه الفرنسيون حيا حال دخولهم لبلاد ، وذلك في ٧ تشرين الاول ١٩١٨ .

هذا المجلس وضع مضبطته المشهورة بطلب الحماية الفرنسية وسيطرة فرنسا السياسية على البلاد .

وهذا المجلس بعينه هو الذي طبقه رياض الصلح . وهكذا كانت اول عملية قام بها هذا الفتى الجميل اعظم وادهش ثورة . وهل اعظم وادهش من ان يشتري مجلسا كاملا يمثل لبنان ، لحساب الشريف فيصل ، وان يقنع ذلك المجلس بالرجوع على طلب الحماية الفرنسية الى المطالبة بالوحدة السورية ؟

وكان اربعة على الاقل من اعضاء ذلك المجلس من الموارنة ، زبائن فرنسا الاساسيين ، وبينهم شقيق البطريرك الحويك نفسه ! (١)

(١) كان هذا المجلس مؤلفا من السادة سعد الله الحويك ، خليل العقل ، سليمان كنعان ، محمود جنبلاط ، فؤاد عبدالملك، محمد صبرا الاعور ، محمد محسن ، الياس الشويري ، يوسف البريدي ، نعوم باخوس، حسين الحجار . وكان يرأسه حبيب باشا السعد . وقد وضع هذا المجلس في ايار ١٩١٩ عريضة يطلب بها الحماية الفرنسية على لبنان . ولما انكشفت له نيات الفرنسيين الاستعمارية عاد فاتخذ في ١٠ تموز ١٩٢٠ قرارا باستقلال لبنان والاتحاد مع سوريا ، وسافر بعض اعضائه قاصدين الى اوروبا عن طريق دمشق ، للسعي الى تنفيذ ذلك القرار ، فاعتقلهم الفرنسيون في ١٢ تموز وحاكموهم في ١٧ منه بتهمة الخيانة ، ثم نفوهم الى جزيرة كورسيكا ، حيث ظلوا مدة سنة . وكانت هذه العملية في مقدمة الاسباب التي جعلت الجنرال غورو يستعجل الهجوم في تموز ١٩٢٠ على دمشق واحتلالها .

ولم يرفض هذه الصفقة يومئذ سوى رئيس المجلس حبيب باشا السعد ، وعضو زحله .

وكما ان الاستاذ اميل اده المستشار اللبناني الاول للمفوضية الفرنسية كان يرفض قبض المال الذي كانت قد وضعته المفوضية الفرنسية تحت امرته ليستعمله للدعاية ، هكذا ايضا حبيب باشا السعد رئيس مجلس الادارة ، لم تغره ذهبات الشريف ووعود رياض الصلح .

وكان حبيب باشا السعد ـ لربما ـ مع اميل اده ، الوحيدين ـ يومئذ ـ بين زعماء السياسة في ذلك الوقت ، اللذين يساعدان الفرنسيين على ترسيخ اقدامهم بلبنان دون ان يكون لهما اية حصة من الخمسة ملايين ونصف المليون جنيه ...

-٦-

« قبضوا . . . وقبضنا .. وقبضايات ! »

طبعا عندما يكون هناك مال ، وعندما تكون هناك وظائف كبرى ، يقع اقوى الرجال بالتجربة .

فليس جميع الناس ـ واخصهم اللبنانيون ـ مثل المسيح الذي اخذه الشيطان الى راس الجبل ، وعرض عليه ما تراه عيناه من سهول ووديان وانهار وخيرات ، فلم يأخذ شيئا .

وعندما عبد اللبنانيون الذهب ـ لم يكن احد يعرفه قبل بيروت فى الايام الفينيقية ثم الرومانية ثم البيزنطية ثم العربية ، ومن بعد ذلك العثمانية ، واخيرا اللبنانية .

وكانت سيرة المبالغ المالية الكبرى التي اخذ يدفعها الفرنسيون لدعاياتهم فى لبنان قد جعلت لعاب الكثيرين من الزعماء السياسيين يسيل فشاهدنا ـ ورافقنا ـ عددا كبيرا منهم لزيارة المفوضية الفرنسية،ورايناهم يخرجون بعد ذلك من لدنها وقد وقعوا صك القبول بالحماية الفرنسية ، على ذلك السجل الذي كان الكابتن «دام» ، سكرتير المفوضية السياسي و « خازندار » الخمسة ملايين ونصف مليون جنيه يقول عنه انه اغلى سجل فى العالم !

اذ ان تواقيع الذين سجلوا تأييدهم لفرنسا عليه كلفت اكبر قيمة ممكنة من الجنيهات فى عالم الدعايات ، وكان بين اصحاب التواقيع فى ذلك السجل بوجه خاص بعض الذين لا يزالون احياء ، والذين ظلوا بالرغم عن كل شيء يفتخرون بكل مناسبة بأنهم صدوا الفرنسيين ولم يقبلوا مالهم ، ويعتزون بأنهم قاموا على الفرنسيين سنة ١٩٤٣ ، حتى انهم كانوا ـ ولا يزالون ـ يتبجحون امامنا بهذا الادعاء ، مع ان وثائقهم لا تزال بين ايدينا ، ومع اننا كنا نتقاسم واياهم اموال المفوضية !

وبالرغم من هذا كله ، فهم ينكرون امامنا ذلك ، فيفعلون كالمــرأة الوقحة التى تزجر امام الناس رجلا كان امس فى فراشها !

ونحن حسبنا نفسنا شريكا فى القسمة ، لاننا كنا نعتبر ـ وعـن حق ـ اننا افضل واحق بالمال من هؤلاء الاكارم العظام ، المتبجحـين بالوطنية ، والذين كانوا ـ وهم يسبون الفرنسيين ـ يقبضون اموالهـم ويتزلفون اليهم ويبيعون وطنيتهم وقوميتهم لهم بالخفاء ، ثم يشتمونهم ويسبونهم بالعلـن

وهكذا ما اشترى احد مسبته بالثمن الغالي الذي اشتراه بهـــا الفرنسيــــون !

وبالمناسبة يجب علينا ان نقر للفرنسيين بمكرمة نبيلة ، هي انهم لم يفضحوا الذين انقلبوا عليهم فى ما بعد ، بل ارسلت المفوضية الفرنسيـة سنة ١٩٤١ اوراقها وسجلاتها تحرقها فى اتون النار ، فى هضـاب بيت مري ، كي لا تقع بايدي الذين ياتون بعدها . ومن هذه الاوراق ذلـــك السجل الذهبي الذي يتضمن اسماء جميع الذين كانوا يخدمونها ويبيعونها البلاد بالخفاء ، بينما يتظاهرون امام الناس بالتجرد والنزاهة والوطنيـة المستقلة التي لا تقبل انتدابا !

★★★

وطبعا استخدم الفرنسيون فى دعايتهم لكسب البــــلاد جميع الوسائل التي تحت يدهم ، واستخدموا جميع الرجال الذين استطاعـوا استخدامهم .

وهكذا استخدم الفرنسيون اكثر القبضايات المعروفين فى بيروت ، والذين كانوا اسياد الميناء والبلد ، وذلك مقابل اجور تدفعها المفوضيـة لهم . وجاءت حكومة الاستقلال سنة ١٩٤٣ وقد حفظت الامثولـــة عن الفرنسيين سنة ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ، واستخدمت اكثر اولئك القبضايات عينهم الذين ساعدوا فرنسا فى بداية الاحتلال على تثبيت الانتـــداب الفرنســــي !

وظل اكثر هؤلاء القبضايات فى قيد الحياة لكي يقتطفوا الموســم الثاني سنة ١٩٤٣ ، عندما نزلوا للشارع يتظاهرون ضد الانتـــداب

ويعملون للاستقلال ، ويقبضون اجورا باهظة مقابل ذلك ، قد تكون اغلى اجور قبضها باعة الوطنية ودكنجية السيادة والاستقلال فى العالـــم، ثمنا لاسترضائهم ، مع اقطاع الشارع لهم يتحكمون فيه اسيادا مخيفين!

وهكذا الشكوى العامة الدائمة الان من القبضايات وتحكمهم بالشارع ومسدساتهم ، والجزية التي يفرضونها هنا وهناك ، وحتى على الحكومة والبلدية ـ هذه الشكوى منهم يجب بالاحرى ان تكـــون من الفرنسيين الذين كانوا اول من جاء بيلطجية الميناء الى ميدان السيـــاسة والتطبيق والتصويت الاعتباطي والتظـــاهرات السياسية المأجورة والاضرابات المفـروضـــة !

ونحن لا نزال شاهدا حيا على ذلك ، اذ انني كنت فى راس الـذين كلفهم الفرنسيون فى بداية الاحتلال بجمع اكبر عدد ممكن من القبضـايات لخدمة فرنسا والدعاوة لهـــا !

وكان القبضايات يطوفون على الناس بعرائض فى بيروت ومـــدن السواحل ، يجعلون الاهلين يوقعونها بالسيف ، وهي تطلب الحمايـــة الفرنسيـــــــــــة !

ولا يزال حيا يرزق زعيم الشباب الكبير الصديق ، الذي استلـــم من المفوضية الفرنسية عرائض بذلك المعنى ، فاعادها بعد ثلاثة ايـــام فقط وهي تحمل تواقيع عشرة الاف مسلم ، مما كان صعبا ومستحيـلا على غـــيره ان يعملـــه !

ويطلب الموقعون على تلك العرائض فصل لبنان عن سوريا تحت الحماية الفرنسية !

وكان ذلك الزعيم غاليا جدا ، اذ انه تقاضى عن كل امضاء لـــيرة انكليزية ذهبا !

ولم يكن يقبض غير الليرات الانكليزية الذهبية ، اذ انه لم يكـــن له ثقة بالجنيه المصري الورقي، ولا بغيره من أصناف العملة الورقيـــة فى العـــالم !

★★★

وهكذا ما عملت حكومات الاستقلال سنة ١٩٤٣ وبعده الا ماعملته

حكومات الانتداب من قبلها ، فلا شيء تغير فى هذا الحقل . وايضا بالرغم من الامال المعقودة على العهد الجديد ، الذي نعيش فى ظلاله اليوم، قد لا يتغير ايضا شيء !

فطالما المسدس والخنجر لا يزالان على الخصر يحملهما البلطجي دون سؤال ولا جواب ، وطالما عقلية الناس فى الاغتباط والارتياح للبطل الذي يضرب غيره بالرصاص ، ولو كان ذلك معتديا ، فستظل كل حكومة مضطرة لاسترضائه وارضائه !

والقبضاي لا يرضى بقصيدة شعر !

وقد رايناه مع أعز زعمائه واكثر تعلقا بهم، يترك ذلك الزعيم وينساه حالا عندما ينضب المورد .

رايناه منذ ثلاثين سنة حتى الان مع كل رئيس جمهورية ومع كل رئيس وزارة يقاتل ويناضل لاجله حتى يسقط . عندئذ يدير له ظهره ويفتش عن خلف له يؤمن الرزقة التي ذهبت مع الذاهب !

فعلى قدر ما تدفع تخدم !

وعلى قدر اهل العزم تاتي العزائم .

وليس الفرنسيون وحدهم اخترعوا القول القائل : «اعطني فاعطيك!»

- ٧ -

دولة « السكرتيرية » وبداية عهد الفوضى

قال لي المسيو لا لويه ، مفتش القضاء الاعلى فى عهد الحاكم ترابو (١) وقد ذهب يحقق فى شكاوى تقدمت على المستشار الاداري الفرنسي فى زحله ، الذي كنت يومئذ معاونا له ـ قال لي المسيو لالويه :

ـ انني سأحقق معك !

ولما اجبته:وما شاني انا طالما الشكاوى تقدمت على المستشار نفسه !

قال : لا تحسبني مغفلا مثل كثيرين من الفرنسيين . فلو كان لبنان منتدبا على فرنسا ، وكنت انت اللبناني مستشارا من قبل دولتك فى مدينة « غرينوبل » وكنت انا سكرتيرك ، فمن يكون القائم الحقيقي باعمال المستشار ؟ أهو الغريب الذي لا يعرف عن لبنان شيئا ام اللبناني الذي يعرف عن لبنان كل شيء ؟ لهذا اقول لك انك انت المسؤول عن جميع الشكاوى التي تقدمت عن هذا المستشار ، اذ انك انت تقوده اكثر مما يقودك مهما كان نبيها !

وهنا اجبته ذلك الجواب الذي وصل الى المفوض السامي بسرعة ، وكان السبب فى فصل ذلك المفتش القضائي الفرنساوي العام عن وظيفته ، قلت للمسيو لالويه :

ـ على هذه الحال،طالما ان السكرتير اللبناني هو الذي يحكم وليس المستشار الفرنساوي ، وانتم تعرفون ذلك ، فلماذا تعينون لنا مستشارين نرشدهم بدلا من ان يرشدونا ؟

ونشرت جرائد عديدة ، عربية واجنبية ، هذه الواقعة التي كان لها تأثير كبير فى زعزعة الموقف الفرنسي حينذاك .

---

(١) حكم الكومندان ترابو لبنان من ايلول ١٩٢٠ حتى ايار ١٩٢٣

وهي زعزعة تبعتها ، كما يذكر الكثيرون ، حركات عصابات تحريرية في البقاع والجنوب والشوف .

***

وكان ، ولا شك ، المسيو لا لويه على حق وصواب ،

وليس هناك من شهادة في تثبيت رايه افضل من شهادتي ، اذ ان الناس ـ خلال الاربع سنوات التي بقيت فيها معاونا لمستشار البقاع الفرنسي عسكريا كان ام مدنيا ـ كانوا يراجعونني انا لقضاء مصالحهم وليس المستشار ، اعتبارا منهم انني انا الذي يحكم فعلا ، وانني اقود المستشار ، وليس المستشار الذي كان يحكم !

وكما كنت افعل انا بالبقاع ، كان اللبناني معاون المستشار في طرابلس او في الجنوب يقود رئيسه الفرنسي .

وكان اللبناني سكرتير حاكم بيروت يقود الحاكم الفرنسي بالطريقة نفسها . وكان يتولى هذا المنصب يومئذ الاستاذ جورج حيمري ، الذي كان عنده من البراعة والدهاء ما جعله موضع تقدير الحكام والرؤساء في لبنان ، بحيث لم يستغن عنه احد خلال الخمس والعشرين سنة الاخيرة

وقد ترك الحيمري مرة واحدة ديوان رئاسة الجمهورية مبعدا ، وذلك في أول عهد الاستقلال ، سنة ١٩٤٣ ، عندما تعاون مع الاستاذ اميل اده ، يوم قبل اده الحكم من الفرنسيين ، بعد ان اعتقلوا اركان الحكومة الشرعية وارسلوهم الى راشيا .

ومع ذلك ، ومع أن الحيمري كان متهما بالتحيز للاستاذ اميل اده ، فانه لم يظل بعيدا غير بضعة اسابيع عن منصبه ، واضطر الشيخ بشاره الخوري الى استدعائه من جديد لاستلام رئاسة ديوانه !

وكان الحيمري خلال ولاية بشاره الخوري واسطة جاه ونفوذ لم يصل اليها احد غيره ولما استقال الشيخ بشاره ، وجاء رئيس جديد على اكتاف الثورة الشعبية ، ظل الحيمري حيث هو ، وبالصلاحيات التي كانت له .

وكان قبلا الامير جميل شهاب لمدة ١٨ سنة مديرا للمالية في عهد

الانتداب ، ولم يستطع احد زحزحته عنها . وذات يوم سأل أحدهم مستشاره الفرنسي عن سبب خلود الامير جميل فى وظيفته الكبرى ، فاجابه المستشار :

— هو باق ليس لانه متخصص فى الامور المالية فحسب ، بل لانه أيضا رتب ادارة وزارة المالية فى لبنان بطريقة لا يفهمها ولا يدركها غيره ، فاذا اخرجناه من المديرية نضيع !

والخلاصة ، فعلى نفوذ التراجمة وامناء السر اللبنانيين عند الحكام الفرنسيين ، قامت حينئذ دولة السكرتيرية المشهورة ، فى مطلع عهد الاحتلال الفرنسي .

وأكثر هؤلاء السكرتيرين للحكام والمستشارين والقواد الفرنسيين اخذوا وظائفهم اما عن طريقة نسيبة أو شقيقة او زوجة حسناء — وهذا الامر كان له شأنه الاول مع هؤلاء الاشتهائيين الشبقين الفرنسيين — او عن طريق الاب شنتور المشهور رئيس اليسوعيين الذي استطاع فى نباهته وعصبيته وتعصبه ان يعطي أكثر وظائف هذه الدولة — واخصها وظائف التراجمة والسكرتيرين — لمتخرجي كليته ، كلية مار يوسف اليسوعية ، وكذلك عن طريق الاب سارلوت رئيس مدرسة عينطورة الذي مثل الدور ذاته ، مماشكل فى البداية سبباهاما كما ذكرنا اعلاه من الاسباب الاساسية التي جعلت رئيس الجامعة الاميركية يومذاك ببيروت ، يذهب لباريس ، ويطلب امام مجلس الاربعة الكبار جلاء الفرنسيين عن بلاد المشرق ، حيث جاؤوا — كما كان يقول — لاحياء النعرات الطائفية التى ينتج عنها التذابح والتعادي ، ولاستعباد باقي الطوائف .

ولكن الفرنسيين كانوا يعطون جوابهم على مساعيه هذه ، له ولغيره من الاميركيين والانكليز الذين حاربوهم فى هذا الميدان ، وذلك بالسعي الى ضم اكبر عدد ممكن من المحمديين الى جانب المطالبين بالحماية الفرنسية .

وعندما وجد الفرنسيون فى بداية الامر صعوبات كثيرة تحول دون اعلان كبار المسلمين تأييدهم لوضع يد فرنسا على البلاد ، داروا بانظارهم نحو الدروز ، الذين كانوا طيلة الدهور جيشا قويا عنيفا يخدم جميع الذين يقدرونه حق قدره ، ويرفعون شأنه ، ويساعدون فى تقوية كيانه

كاقلية طائفية بين الاكثريتين المسلمة والمارونية .

وشاهدت بيروت يومئذ ، الى جانب قبضايات الميناء الذين كـــان الفرنسيون قد ضمنوا تأييد اكثرهم - فرسان الدروز يرتدون البرانس البيضاء والحمراء والقفاطين المزركشة ، ويحملون السيوف المعكوفـــة ، وقد كحلوا اعينهم بدائرة وسيعة من كحل الصحارى ، يأتون يوميا على ظهور خيولهم المطهمة للمفوضيـــة يتطوعون فى الفرق المحلية العسكرية التابعة للجيش الفرنسي ، لاثبات التأييد . وكان ذلك يجري بمواكـــب وهاجة هازجة مهللة ، تحت قيـــادة زعماء معروفين من عمال العهـــد الفرنساوي الجديد فى لبنان .

وكان ابرز هؤلاء العمال صديقان نشيطان كبيران ، الاستاذ امين بك حمادة والاستاذ شفيق بك الحلبي .

وكانت اروقة السراي الكبيرة تعج يوميا بهؤلاء الفرسان، وخصوصا امام باب المسيو مرسييه المستشرق الشهير المكلف حينذاك بقبول التطوع وبدفع الثمن .

وقد بلغت مصاريف هذه المواكب ، تاتي لاعلان تأييدها للحمايـــة الفرنسية ، ما يفوق المليون ونصف المليون ليرة انكليزية ، اخذها تقريبا الف فارس « خرج راح » ، تعويضا عن انزعاجهم فى المجيء لبيروت مـــن الشوف او من جبل الدروز .

ولكن كان يصادف أن كل فارس كان ياتي اكثر من خمس الى عشر مرات فى المواكب الدرزية المتابعـــة، التى ظلت اربعة اشهر تصـــل لبيروت يوميا بهزيج وتهليل .

ذلك ان المسيو مرسييه كـــان يكتفي بان يحصي عدد الفرسان الذيـــن يأتونه دون ان يتبين الوجوه . وكانت اسماء الفرسان تتبدل يوميا ، كمـــا كانت الملابس تتبدل، فلا يعـــرف مرسييه - او يتجاهل عمدا - ان اكثر الذين جاؤوا بالامس عـــادوا اليـــوم .

وكان يكفي أن يعد المسيو مرسييه عدد الفرسان الذيـــن يصلون لباحة السراي وخيولهم الهائجة التي كانت تحطم بلاط الفناء - حتى يدفع على قدر العدد الذي يكون قد حسبه !

وهكذا ، ليس السكرتيرية وحدهم كانوا يضحكون على الفرنسيين

ويحكمون بالفعل مكانهم ، ومن ورائهم قامت تلك الفوضى فى الدوائر ، اذ ان معظم السكرتيرية كانوا لا يزالون شبه تلامذة مدارس من يسوعية وعازارية ورهبانية .

ولكن ليس السكرتيرية فقط هم الذين ضحكوا على الفرنسيين وحكموا فعلا باسمهم ، بل ايضا فعل ذلك وبطريقة اكثر سخرية وهزارا الفرسان الدروز . وقد كان الواحد منهم يتضاعف مرارا كما قلنا اعلاه كي يقبض مرارا ، وذهب بعض المبالغين للقول ان الفرسان الذين جاؤوا فى الاسابيع الثلاثة الاولى هم عينهم الذين جاؤوا فى الثلاثين اسبوعا الباقية دون ان يتظاهر الفرنسيون انهم يعرفون شيئا مما يجري ، مكتفين بان يعرضوا على ابناء البلد كل يوم هذا العدد المحترم الكبير من فرسان الدروز ، ينضمون علنا لفرنسا فى استعراضات يومية فى بيروت !

***

نذكر كل هذا لنقول ولنؤكد ــ كما يجب ان يقوله ويؤكده المعاصرون لذلك الوقت من كبار السياسيين اللبنانيين، مثل عبدالله‌بك بيهم ومثل عمر بك بيهم ، ومثل جورج بك ثابت ، ومثل الدكتور ابراهيم تلحوق نذكر كل هذا لنؤكد ان الفرنسيين قد يكونون عندما جاؤوا الى هذه البلاد ارادوا الحكم فيها بعدل وانصاف وتنظيم ، وقد يكونون ارادوا ان يقوموا برسالة اعدادنا للاستقلال والحريات العامة ، كما حددت جامعة الامم رسالتهم ، ولكن ليس هم الذين افسدوا كل هذا ، بل نحن .

فانما نحن ــ كما قلنا اعلاه ــ نحن دولة السكرتيرية ، كنا دوما اكثر فهما ونباهة وحيلة منهم . وعلى هذا نحن الذين نكون قد حكمنا وافسدنا الحكم واربما افسدنا الفرنسيين معنا !

ولا عجب فانما الفساد الذي تريد اليوم الجمهورية الرابعة اللبنانية، جمهورية الرئيس كميل شمعون، استئصاله من البلاد، وهي تتهم العهد الذي سبق بخلقه ــ فانما هذا الفساد مستاصل منذ زمن بعيد ، منذ عهد الاتراك ، عندما كان اهالي هذه البلاد يستعملون كل طرق الارضاء والتمليق لاكتساب عواطف اسيادهم العثمانيين وبدرجة حاذقة ووسيعة جدا .

حتى اننا لا نكون مبالغين ولا مختلقين اذا قلنا ان اهالي هذه البلاد القوا دروسا على الاتراك فى فن الرشوة والارتشاء والاستثمار ، مما هو شان كل شعب ضعيف مستعمر يريد الحياة ، ولا يجدها الا فى ارضاء اسياده !

وفى خلال الحرب الاولى ، عندما حكم العثمانيون جبل لبنان مباشرة بعد ان الغوا امتيازاته ، راينا هؤلاء الاتراك فى جبل لبنان عن كثب ، ياتوننا فى البداية رجالا مستقيمين انسانيين ، وينقلبون بعد حين الى وحوش كاسرة وفاسقين وسارقين حرامية ــ وذلك عندما كنا نفتش عن اكتساب رضاهم بكل ما عندنا من حيل ، وبكل ما عندنا من اسباب وطرق للاغراء !

ولا اريد ان اقول ان الكثيرات من حسان هذه البلاد كن فى راس انواع ذلك الاغراء ــ مما يجري دوما فى كل بلاد يدخلها القوي ويحكمها فاتحا .

ولكن ما بالغ فيه اهالي هذه البلاد بالاكثرية اثناء الحربين الكبيرتين ، هو ان العدد الاكبر من مئات الحسان ، كن يصلن الى اسرة الاسياد الحاكمين الاتراك ومن بعدهم الفرنسيين والانكليز والاسترالية ، عن طريق الحنان الوالدي والبركة الابوية .

- ٨ -

جمهورية شارل دباس : جمهورية التجربة

وبعد الحكام الفرنسيين الذين تولوا الحكم مباشرة في البداية (١) جاءت الجمهورية الاولى ، جمهورية شارل دباس ... التي يمكن تسميتها جمهورية التجربة (٢)

وكان من مزايا شارل دباس الاولية انه :

اولا ـ عاش بباريس، وكان يتكلم الفرنساوية جيدا ويكتب فيها من اعلى طبقة ، كما ان زوجته فرنسية .

ثانيا ـ انه من ابناء الحي السرسقي . وكان الحي السرسقي بنظر الفرنسيين ـ كما كان بنظر الاتراك من قبل ـ الوسط الذي يجب ان يرضى ، لانه بماله الكثير وبحياته العالية ، يمكنه ان ينزل الضرر بالذين لا يرضى عنهم . وكانت قصور السراسقة الملقبين بملوك الشرق في عهد الاتراك ، وفي بداية عهد الفرنسيين ـ كانت قصورهم دور ضيافة كريمة ووسيعة ومبهجة للحكام . ولم يكن ملوك وامراء البلدان الاجنبية الذين يزورون بلادنا ينزلون ضيوفا على الحكومات ، بل كانت تلك الحكومات تطلب رسميا من قصور السراسقة دعوة ضيوفها ، حيث كان كل ملك او امير يجد من العظمة والفخفخة ما قد لا يجده في قصور بلاده ، وحيث كانت تقام ولائم وحفلات ومراقص لا مثيل لها في كرمها وسخائها .

---

(١) منذ اعلان استقلال « لبنان الكبير » في ايلول ١٩٢٠ حتى اعلان الجمهورية الاولى، تعاقب على الدولة الجديدة اربعة حكام مباشرين فرنسيين ، هم الكومندان ترابو (ايلول ١٩٢٠ـ ايار ١٩٢٣) ، السيد اوبوار (ايار ١٩٢٣ ـ حزيران ١٩٢٥)، الجنرال فندنبرغ (حزيران ١٩٢٤ ـ كانون الثاني ١٩٢٥) ، السيد كايلا (كانون الثاني ١٩٢٥ ـ ايار ١٩٢٦) .

(٢) تحت ضغط الاحداث الناشئة عن الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ، قرر الفرنسيون انهاء الحكم المباشر في لبنان ، واقامة حكم جمهوري نيابي . وقد وضعوا يومئذ دستورا للبلاد على هواهم ، واجروا انتخابات انبثق عنها في تموز ١٩٢٥ مجلس مؤلف من ٣٠ نائبا . وهو المجلس الذي انتخب في ايار ١٩٢٦ شارل دباس رئيسا للجمهورية . وظل الدباس رئيسا حتى كانون الثاني ١٩٣٤ .

ثالثا ـ كما قلنا سابقا ، كـــان الدباس ارثوذكسيـــــا .

اذ ان القاعدة الاساسية التي كان الفرنسيون يستنـدون اليها فى مطالبتهم بحماية هذه البلاد ، هي زعمهم ان نصارى الشرق باجمعهـم يطلبون تلك الحماية . لذلك تعمدوا اختيار الدباس الارثوذكسي ، لاقنـاع الارثوذكس بالرجوع عن موقفهم السلبي ، وقبول الحماية الفرنسية .

... فى حين كان ينبغي ان تحمل رئاسة الجمهوريـة اساسا ، فى عهد الفرنسيين ، الخاتم الماروني .

ولا شك ان الفرنسيين عندما انتقوا شارل دباس رئيسا الجمهورية اللبنانية الاولى ، لم يكونوا يعرفون تماما دهاء هذا الرجل ومقدرته .

وليس الفرنسيون وحدهم كانوا يجهلون ذلك ، بل اهل البـــلاد انفسهم ، بدليل اننا باجمعنا ، وجدنا فى تعيين الدباس رئيسا ، بعـد ان كان مديرا للعدلية اثناء الحكم الفرنساوي المباشر ، شيئا مستهجنـــا، ومفاجاة غير منتظرة ، اذ ان الناس كانوا يعرفونه قليلا جدا ، وذلك لانـه كان منذ نعومة اظفاره غائبا عن هذه البلاد ، يتنقل بين استنبول وباريس، وهو منشغل وغارق بمغامرات ومتاجرات سياسية وغير سياسية ، كانت داب كل متمرد فى عهد العثمانيين .

***

عندما اعتلى الدباس رئاسة الجمهورية فى ايار ١٩٢٦ ، بدا بطريقة ليس فيها اقل ابهام عهد استقرار الانتداب ، الذي كان حتى ذلك الوقت مترددا وخائفا وغير واضح .

وطبعا لما استقر الانتداب ، وعرف الناس انه اصبح امرا واقعـا، كشف السياسيون عن وجوههم بجلاء ـ انتهازيين كانوا ام محترفين، غوغا، لاهين او مخلصين لفرنسا ، صادقين الود لها ام مخاتلين .

وراينا الشيخ محمد الجسر (١) يعتلي فى الافق بسرعة مدهشة ، يمثل

---

(١) بدا الشيخ محمد الجسر حياته السياسية فى عهد الانتداب رئيسا لمحكمة الجنايات ثم اصبح مديرا للداخلية ، ثم دخل المجلس النيابي المنتخب فى تموز ١٩٢٥ وقد تراسه فى السنة الاولى المرحوم موسى نمور ، ثم خلفه محمد الجسر ، كما ظل الجسر رئيســا لما ادغم الفرنسيون مجلس الشيوخ بمجلس النواب فى سنة ١٩٢٧

المسلمين عند الفرنسيين ، بالرغم عن ارادة اكثر المسلمين ،الذين ماكانوا يريدون لهم عند الفرنسيين تمثيلا .

كان يمثل المسلمين بنباهة مدهشة وبمقدرة كاملة ، وبشجاعة جعلته يجابه باقي رجال طائفته دون وجل ، ويتعاون مع الفرنسيين تعاونا مخلصا قويا ، لم يكن منتظرا ــ مهما كان الثمن غاليا ــ ان يقدم مسلم اخر تعاونا صادقا اكيدا مثله .

(وجلس الشيخ محمد فى صدر الديوان فى رئاسة اول مجلس نيابي بلبنان ، وهو مجلس انبثق طبعا عن انتخابات عملها المستشارون ــ وخصوصا سكرتارية المستشارين ــ كما يريدون ويرغبون ، وكانت اول تدشين فاضح علني للشراء والبيع فى الاصوات الانتخابية .)

جلس الشيخ محمد فى صدر الرئاسة ، وله من ظرفه وجمال طلعته ولطف حديثه ، وتقربه للنصارى ومصادقته لهم ، ما جعل زعماء هؤلاء يناصرونه فى كل مواقفه ، ويقفون بجانبه اكثر مما كان يفعله المسلمون .

وكان بين ساسة الموارنة فى ذلك الحين «الثلاثة الكبار» فى المجلس والدولة تتجه اليهم انظار الناس بوجه خاص . ولم يكن الرجل الرابع قد ظهر بعد . . . (١)

كان حبيب باشا السعد فى شخصيته البارزة ، ومكانته العالية ومرونته السياسية التي اقتبسها جيدا عن الاتراك ، يمثل الجبل ــ جبل لبنان القديم بأجمعه . وكانت دماثة اخلاقه واخلاصه للفرنسيين وحنكته ترفعه على الجميع .

وكان جورج ثابت واميل اده وجه الطائفة فى بيروت ، يجلسان فى واجهتها ، لهما فيها مكانة خاصة ومنزلة مرموقة . وكانا فضلا عن ذلك على جانب كبير من السعة ، وعضوين منظورين كبيرين بين كبار الحي السرسقي ، الذي كانت الدول ، كما اسلفنا ، تخطب وده .

وكانت وجاهة هذين الرجلين الكبيرين المارونيين ببيروت تتلاقى كثيرا، وتتصادم دوما . وقد ازدادت اصطداما وتزاحما عندما جاء الفرنسيون ينتقون بين الموارنة الزعماء الذين يرشحونهم للنيابة وللاحكام . . .

(١) يقصد بالرجل الرابع الشيخ بشارة الخوري .

وطبعا كانت تاتي أوقات تستظهر فيها وجاهة الواحد على الاخر .

ولم يكن جورج بك ثابت ، الفتى الظريف المرح المحب للحياة، يضع جهوده بأجمعها فى السياسة ، كما كان يفعل الاستاذ اميل اده ، الذي كانت السياسة غرامه الاكبر ، ولا نقول الاوحد . وقد كان يفرغ لها معظم اوقاته ، ويضحي باشغاله كمحام كبير جدا لاجلها .

وتزاحم الرجلان مرارا عديدة فى الانتخابات المتوالية ، وفى السباقات السياسية المتعددة ، وكان هذا يربح تارة على مزاحمه ، وطورا ذاك يربح، الى ان خطا الاستاذ اميل اده فى السياسة خطوات جعلته ينظر الى ابعد مما كان الفرنسيون يريدون منه ان ينظر ...

ولكن اين كان الرجل الرابع فى ذلك الوقت ؟

... الرجل الماروني الرابع ، ، الذي سبق كثيرا ، بعد حين ، الثلاثة الاولين فى معارج العز والسلطان فى بيروت والجبل ، فى وقت غير منتظر، واستخلص لنفسه سؤدد وجبروت جبيب السعد واميل اده وجورج ثابت ؟

لم يكن هناك شيء يدل عليه ويشير اليه . وما كان احد ينتظره . ولم يكن هناك اقل دليل على ان هذا المحامي الحديث السن ، المتمرن الوديع المحتشم فى مكتب المحامي الكبير اميل اده ، ثم السكرتير العام لحاكم بعبدا الفرنساوي ، سيكون هو الرجل الرابع الذي ستدور فى فلكه حوادث ربع قرن من حياة لبنان السياسية ...

وعندما يأتي الوقت سيطالع القراء فى سياق هذا الكتاب اشياء جديدة وخفايا كثيرة عن ايامه وعهده وشخصيته .

- ٩ -

ثورة اميل اده الاولى على الفرنسيين

ولكن من هو المغامر الماروني الاول الذي قام بوجه الفرنسيين قبل جميع الذين قاموا في وجههم بعد ذلك ؟

هذا للتاريخ ، وهذا واجب يجب ان يقال .

هو الرجل الذي كان معروفا انه قبل الجميع صديق الفرنسيين .

هو الرجل الذي اتخذوه مستشارا اوليا لهم يوم نزولهم في هذه البلاد .

هو الذي جاؤوا به يوم الاحتلال على ظهر مدرعة حربية من فرنسا لبيروت ، محفوفا بمجالي التكريم والتعظيم

وهو الذي استندوا الى مكانته ونفوذه وامكانياته السياسية والمسيحية الكبيرة في هذه البلاد

ولكنه كان اول من وقف بوجه الفرنسيين فكانت لهم يومئذ اول مفاجاة ،

كانت دهشتهم كبيرة عندما راوا لاول مرة رجلا مسيحيا مارونيا معروفا بانتمائه لهم ، وقد جاؤوا به ليكون ساعدهم الاول - يقف بوجههم ويتحداهم ، وذلك عندما اظهروا رغبتهم ، بعد ان وضعوا دستورا اوليا للبلاد بواسطة استفتاء كتابي ، اختصر على مشورة بضعة كتاب وسياسيين - قلنا عندما اظهروا رغبتهم في جعل المجلس المنبثق عن ذلك الدستور(١) ينتخب افرنسيا من رجال المفوضية حاكما للجمهورية

---

(١) هو المجلس المنتخب في تموز ١٩٢٥ ، وقد اراده الفرنسيون يومئذ ان ينتخب حاكما فرنسيا رئيسا للجمهورية ، فوقعت مشادة ادت الى تعليق المجلس وتعيين السيد كايلا ، الحاكم الفرنسي بالوكالة ، حاكما اصيلا للبلاد . وظلت الحال هكذا الى ان وافق الفرنسيون على انتخاب رئيس جمهورية لبناني ، فعاد المجلس واختار شارل دباس في ايار ١٩٢٦ .)

اللبنانية شبه البرلمانية !

وهذا الرجل كان اميل اده ، اول الثائرين .

كان يطلب الحاكمية للبناني .

واتهم فى تلك المناسبة الفرنسيين علنا بالاستعمار والديكتاتورية، وقال انهم يريدون فرض حاكم افرنسي على هذه البلاد ،

وهم ليسوا الا منتدبين من جمعية الامم بصك ، يقضي عليهم ان يتركوا البلاد تحكم نفسها بنفسها تحت اشرافهم ومشورتهم فقط .

وكان ينادي عاليا ، بقوله عن الفرنسيين : «جاؤوا يرشدوننا للاستقلال ، وليس ليتحكموا بنا . والحق فى الحكم لوطني لبناني !»

ولعله كان يعني نفسه عندما يطلب الحكم لوطني لبناني .

وكان الرجل الرابع ، الفتى الوديع الاديب الهادىء المتمرن يصفق وتظهر عليه امارات الاغتباط من موقف رئيس مكتبه الاستاذ اميل ده، الذي قفز فجاة ــ بوقوفه بوجه الفرنسيين ــ من خصم عنيد مكروه عند المسلمين الذي كانوا يعتبرونه من صنيعة الفرنسيين ، الى ثائر يستميت للكرامة الوطنية !

ورأينا حينئذ العمرين ــ عمر بيهم وعمر الداعوق ــ اللذين كانا يومئذ نائبين بالمجلس ، ويجلسان فى واجهة السياسة والوجاهة للمسلمين ببيروت ــ رأينا العمرين يقفان بجانب الاستاذ اميل اده ، ويماشيانه بعنف وشدة ، وقد نسيا العبارة المنسوبة الى اميل اده سابقا ، تلك العبارة التي اغضبت المسلمين بلبنان ، وجعلتهم يعتبرون صاحبها عدوا لهم . . .

ففي الوقت الذي كانت الهيئات الاسلامية السياسية ببيروت توجه الدعوة لمؤتمر تطلب فيه الانفصال عن جبل لبنان ، والوحدة مع سوريا، قال اميل اده : « نحن هنا بيروت والجبل واحد ، والذي لا يعجبه عليه ان يعود للصحراء . . . »

وطبعا ، يتصور القارىء اي غضب وصخب استحوذ على المسلمين عندما قيل لهم ان هذا الماروني المسيحي ، عميل فرنسا الاول فى البلاد، هو الذي قال هذا القول ــ هو الذي يريد ان يرجع المسلمون الى الصحراء،

من حيث يزعم انهم اتوا عند الفتح الاسلامي ...

وحدثت طبعا مناقشات عديدة يومذاك حول هذا القول . وادعى بعضهم — ولكن بدون جدوى — ان الاستاذ اميل اده لم يقلـه ، وان خصومه هم الذين اخترعوا عن لسانه كي يجعلوا المسلمين يقومون عليه ويعادونه .

ولكن اميل اده محا — كما اوردنا اعلاه — هذه الصفحة السوداء ، عندما قام لوحده بين الزعماء الموارنة يقف بوجه الفرنسيين ويحاربهم فى رغبتهم بتعيين حاكم افرنسي بعد وضع الدستور واعلان الحكم الوطني، ولا يجد فى رغبتهم هذه مجدا لمار مارون ...

***

وقيل يومئذ ان الرجل الرابع ، ذلك الذي كان ينتظر ساعته ، وقد بدا يخرج من عزلته خطوة خطوة وبطريقة مدروسة ، منظمة محكمة ، هو الذي دفع ، بطرقه الخاصة النابهة الساكتة — التي كانوا يسمونها طرقا « جزويتية » — اميل اده للثورة على الفرنسيين ، اصدقاء الموارنة التقليدين .

وانها لثورة جريئة على المفوض السامي ، ذي الصلاحيات التي لم يملك مثلها حكام الارض جمعاء ، فقد كان يقبض على مقدرات البلاد واهلها بيد واحدة ، وله من القوة فى الحكم ما لم يكن لقناصل الرومان فى مستعمراتهم ، وما لم يكن للمتصرفين فى جبل لبنان عندما كان مستقلا استقلالا ذاتيا ضمن السلطنة العثمانية !

ولقد جرت ثورة اده فى وقت كان قد وصل فيه الى البلاد الجنرال ساراي مفوضا ساميا ، والسيد كايلا حاكما بالوكالة ، وكلاهما علمانيان فتحول الحكم الفرنسي الى حكم علماني معاد للاكليروس .

وما زلنا نذكر يوم استقبل الجنرال ساراي الصحفيين ، واستلفت نظره راهبا بينهم ، هو الخوري لويس الخازن ، ذو الشاربين المعقوفين الكثيفين ، واللحية السوداء العريضة ، والعينين البراقتين تحت حاجبين رهيبين ، فانتهزه الجنرال بصوته الجهوري قائلا :

ـ وانت ماذا تريد ؟ ولماذا تلبس مثل هذا الثوب الحزين ، ولك هذه اللحية البشعة ، وهذين الشاربين المخيفين ؟

وقال الخوري لويس بجراة كانت تحديا للجنرال المتحكم :

ـ انا خوري ماروني ، ولي الشرف بذلك !

فقال له ساراي بسخرية : تشرفنا ... ولكن لماذا ترتدي لباسا يجعلك بشع المنظر هكذا ؟ وماذا تريد ؟

قال الخوري لويس : اريد ان اسألك لماذا لم تزر غبطة البطريرك، كما كان يفعل اسلافك المفوضون السامون الثلاثة الذين سبقوك ؟

اجاب ساراي مستهزئا : ولكن اي بطريرك منهم ؟ ففي البلاد ٣٦ بطريركا ... وهل تتصور ان ليس عندي شغل غير زيارة البطاركة والرهابين غربان هذا الجبل ... (كذا حرفيا)

(وهنا ـ كما يذكر كثيرون من الزملاء ـ شد السكرتير العام للمفوضية المسيو لابورد ـ وكان جالسا خلف المفوض السامي ـ بسترة الجنرال داعيا اياه للسكوت !)

(وسكت الجنرال ساراي فجاة . سكت لان السكرتير يمثل وزارة الخارجية الفرنسية فى هذه المفوضية العسكرية ...)

ولكن اميل اده الذي اقام نفسه يومئذ ـ وعن حق ـ حامي الدين المسيحي وأديرته ورهابينه ، لم يسكت .

وكانت عنده تلك الجراة الخطرة جدا التي جعلته يحمل على المفوضية الفرنسية القائمة فى جريدة «لاوريان» . وكانت الجريدة يومئذ تمشي بمشورته وقوله ، وكان لها الشأن الاول فى تسيير سياسة البلاد ، لانها تصدر بالافرنسية ، ولان الفرنسيين يطالعونها ، ولان كاتبيها الناشئين يومئذ ، كانا على مقدرة مرموقة فى الكتابة والثقافة والشجاعة فى القول، مما جعل تلك الجريدة فى ذلك الحين تحمل بين اعمدتها صواعق جوبتير ..

وكان جورج النقاش ـ ولا يزال ـ من اقدر الصحافيين فى هذه البلاد ، ولم يكن قد وصل بعد لهذا الكسل المخجل الذي يعيش فيه اليوم. ولم يكن قد تحرر ـ كما هي حاله اليوم ـ من كل لون سياسي ووطني.

كان يكتب يوميا تلك المقالات العنيفة التي كانت تنتقل بسرعة البرق الى جميع الاوساط . وكان فيها دوما روح اميل اده واراؤه . وهي كتابات كان لها بوجه اولي الفضل فى استدعاء وزارة الخارجية للجنرال ساراي وزمرته العلمانية ، التي خالفت وكادت تقضي على سياسة فرنسا التقليدية فى الشرق ــ وهي السياسة التي ترتكز فيه على تعزيز النصرانية .

والنصارى فى جبل لبنان هم قبل كل شيء مئات الاديرة والاف الرهابين المنتشرين فى اعالي الهضاب ، وفى مراعي الوديان المعطرة !

- ١٠ -

الرجل الرابع ... يحمل غصن الزيتون في طرابلس !

كان الرجل الرابع قد خرج من وراء مكتبته الصغيرة القائمة في زاوية احدى غرف مكتب اده الوسيع ، واخذ يخلق له صداقات في المندوبية الفرنسية لدى حكومة لبنان .

وفي المفوضية السامية نفسها .

(واول صديق سياسي عند الفرنسيين ، وضع الرجل الرابع يده عليه كان الاستاذ موسى مبارك ، يومئذ سكرتير مندوب المفوض السامي لدى الحكومة اللبنانية . وكان لدى هذا السكرتير من النفوذ والقوة ما كان لكل سكرتير فهيم عند كل فرنساوي كبير .)

وكان الشيخ يوسف الخازن ، النائب العلامة الظريف يقول ، عن المندوب الفرنساوي وسكرتيره عندما يراهما قادمين للمجلس ، الواحد وراء الاخر :

ـ جاء مار روكز وكلبه ...

ولكن موسى مبارك بنظر الشيخ يوسف كان مار روكز ...

***

قلنا وبدأ الرجل الرابع في وضع يده على سكرتير المندوب السامي ، وهو الذي عرف قبل الجميع ان صداقة السكرتير انفع من صداقة المندوب!

وكم كان عمر الرجل الرابع يومئذ ؟ لم يكن بلغ الثلاثين ...

ولكنه كان قد بدأ يضمن لنفسه دائرة نفوذ افرنسية كبرى تماشيه وتجد فيه رجل المستقبل !

وقد توصل الى هذا من وراء مقابلاته الخاصة الخفية مع المندوب

المستشار ، او بالاحرى من وراء ما كان سكرتير المستشار يقوله عن الرجل الرابع للمندوب المستشار ...

وبلغ على مدى الايام من صداقة الرجل الرابع لسكرتير المستشار ، ان الناس أصبحوا يحسبون هذا صنيعة لذاك ، غير عارفين ان السكرتير كان يلعب تماما اللعبة التي اتفق مع رئيسه الفرنساوي ومع المفوضية عليها : ان يكون بخدمة الرجل الرابع وبمن يحوم حوله من الانصار ...

... بينما يكون غيره من عمال الفرنسيين يصادق ويخطب ود الاستاذ اده ومن يحوم حوله من الانصار !

وهكذا يضمن الفرنسيون معرفة اعمال كل من الرجلين ، اللذين كان من المنتظر بعد ظهور الرجل الرابع بقوة وشدة ان يشكلا جبهتي قتال ، قد تكون لها أكبر النتائج واسواها عليهم .

لا نريد هنا القول ان الاستاذ موسى مبارك كان يلعب دورا لا يليق بكرامته ، بل بالعكس كان يلعب الدور الذي يمليه عليه واجبه كموظف امين للوظيفة الهامة التي يقوم بها ، والتي كانت تقضي عليه ان يتظاهر بمصادقة الشيخ بشاره ، تكملة لسياسة المفوضية ، التي كانت تريد الا يتوهم احد أنها مع اميل اده وحده .

ثم ان سياسة المندوب يومئذ ـ وهي سياسة تقليدية فى هذه البلاد ـ كانت تقضي بتقوية رجل ماروني جديد ، يكون قديرا وفهيما ، ليجلس فى كفة الميزان الثانية مقابل الكفة الراجحة التي يجلس فيها الاستاذ اميل اده .

ولا نتكلم هنا عن الرجل الاول حبيب باشا السعد مع انه كان يتمتع بزعامة ونفوذ كبيرين دعياه بعد الدباس للتربع برئاسة الجمهورية الثانية .

ولكن فى سياق الحديث نعرض آن امكانيات حبيب باشا وامانيه كانت تنحصر بالاكثر فى سياسة جبل لبنان ، لا فى سياسة لبنان الكبير العامة ، ولم يكن يهتم لسياسة بيروت ، التي كان الفرنسيون يريدونها ان تتخذ وجها مسيحيا ، يقف امام الوجه المسلم الذي كانت المدينة معروفة به فى تلك الايام .

وقلنا ان جورج ثابت كان يشتغل فى السياسة دوماكهاو وليس كمحترف .

وكان اول وجه مايح يراه ، يجعله ينسى النيابة والوزارة والسياسه . ويدير قفاه للمفوضية السامية !

لم يبق اذن للفرنسيين غير اميل اده فى واجهة الموارنة ، وهم لا يريدونه ان يكون وحده فيها .

وهنا ظهر الرجل الرابع !

وكما وجد الرجل الرابع موسى مبارك مفتاحا لينا نافعا للدخول الى قلب المفوضية السامية

كذلك وجد موسى مبارك الرجل الرابع الماروني المنتظر ، الذي يجب ان يقف بوجه مطامع الاستاذ اميل اده وجشعه !

ولم يكن الفرنسيون قد نسوا ثورة اميل اده عليهم يوم اراد الرئاسة لمواطنيه ، وهي ثورة جاءت من صديق مخلص لفرنسا ، مما قد يشجع الكثيرين على ان يطمعوا بفرنسا ويرفعوا الراس امامها .

ومن طرائف الزمان ان الرجل الذي كان الفرنسيون يفتشون عنه ليضعوه فى كفة الميزان الثانية مقابل اميل اده ، جاؤوا به تقريبا من مكتب اميل اده ، اذ لم يكن قد مضى عندئذ وقت طويل على خروج الرجل الرابع من مكتب اميل اده حيث كان يتمرن . . .

. . . أو أن الرجل الرابع ، هو الذي داهم على نفسه ، وبالطرق النابهة التي اشتهر بها بعد ذلك كثيرا !

وهكذا ، مع موسى مبارك فى المندوبية الفرنسية لدى حكومة لبنان ، ظهر رجل العشرين سنة الاخيرة : الشيخ بشاره الخوري .

***

فى ذلك الزمان ، كان فى الدولة وجيهان زعيمان مسلمان تساويا وتشابها باشياء عديدة ، واختلفا ولم يتشابها فى شيء واحد.

تساويا اولا ، فى ان مسقط راسهما طرابلس .

وثانيا، فى مكانتهما الدينية ووجاهتهما السياسية : عبدالحميد كرامه

مفتي طرابلس ، والشيخ محمد الجسر : سياسي ورجل دين ، ونائب سابق في مجالس المبعوثان العثماني .

وثالثا ، في نباهتهما الكاملة ، وقد كانا معدودين من ابرز الوجوه الاسلامية في لبنان الجديد .

" لبنان الذي دخلت اليه طرابلس غير مختارة وغير مرغمة . دخلت اليه وقبلت به لا بارادتها ولا بالرغم عن ارادتها ـ بل تقريبا بدون انتباه ... وبدون تفكير ! "

وما زالت طرابلس منذ دخلت لبنان سنة ١٩١٩ ، وصارت جزءا منه ، تضرب الرقم القياسي في عدد المرات التي هددت فيه لبنان بالانفصال عنه ، مما اعطاها سلاحا خاصة للمساومة مع الحكومات المتعاقبة، استطاعت بفضله ان تكون هي دوماالرابحة !

اذمن يستطيع ان ينال من طرابلس ؟ او يقاصص او يجازي طرابلس ؟

اذ ان طرابلس بعبع الجمهورية ، وساقها الحساس ، والجانب الثائر فيها ...

وكان عبد الحميد كرامه ذات وقت ـ خصوصا في السنوات الاولى للانتداب ، يعمل بطرابلس تقريبا كما يريد ، وذلك بمناواة الفرنسيين والوقوف بوجههم، بالرغم ان الفرنسيين كانوا على ممر الايام يزيدون من ابن طرابلس الاخر الشيخ محمد الجسر وجاهة وسطوة .

وقد استطاع الشيخ محمد الجسر ، بالنفوذ الذي اعطاه اياه الفرنسيون ـ وكانوا قد جعلوه اولا ناظرا للداخلية ثم رئيسا للمجلس النيابي ـ وبالقوة الذاتية التي له ، وبشخصيته البارزة ووجاهته بطرابلس ، ان يخفف كثيرا من نتائج معارضة عبدالحميد كرامه للفرنسيين والمطالبة بالحاق طرابلس بسوريا .

وكان في طرابلس شخص ثالث يتمتع بمركز كبير متزايد ، هو المرحوم الدكتور عبداللطيف البيسار . وكان في استطاعته ـ بالنفوذ الذي كونته له مهارته في مهنته ، وبالاموال التي تدفقت عليه منها ـ ان يلعب دورا كبيرا في قيادة البلد . ولكنه اثر ان يبقى في عالم مستشفاه،

تاركا قيادة المدينة لعبدالحميد كرامه وحده ، متعاونا معه فى مخاصمة الفرنسيين ، داعما الحركة باموال .

هكذا استمرت طرابلس تناهض الكيان اللبناني ، وظل عبدالحميد كرامه يجلس فى واجهتها بلا هوادة . وجميع الساسة المناهضين لفرنسا فى البداية لانوا مع استقرار الانتداب ، الا عبدالحميد كرامه . وما حمل عبدالحميد كرامه راية لبنان الا فى اليوم الذي حمل فيه الفرنسيون حقائبهم وعلمهم وجلوا عن البلاد .

ولكن ، عندما كان عبدالحميد كرامه يقاتل الفرنسيين ، وعندما كان الشيخ محمد الجسر يتلقى الضربات عنهم ، ويشتغل لمنع طرابلس من الثورة – من كان ذلك الفتى الوردالخدين ، الازرق العينين ، اللطيف الكلام ، الهادىء الاعصاب ،الذي وقف بين الكبيرين المسلمين المتخاصمين، منتهزا حقد الاول على الفرنسيين ، ومحاربته اياهم ، وخضوع الثاني وخدماته لهم ، فيحمل غصن الزيتون ويدخل بين الزعيمين ، عاملا عند الاول لتخفيف حنقه على الانتداب ، وعاملا عند الثاني لتخفيف خضوعه للانتداب ، ففتح هكذا بابا لهدنة اسلامية طويلة فى طرابلس بين المفتي والشيخ ؟

ولقد وقع الشيء فعلا وعمليا ، ووقفت نوعا ما فى الفيحاء الجميلة الثورة البيضاء ، والاضرابات والتظاهرات التى كانت تتابع يوميا ضد لبنان – مما جعل الفرنسيين يلاحظون أكثر واكثر هذا الرسول للسلام الفتى اليافع السياسي الذي كان لا يزال غاويا وليس محترفا .

وكان هو ، هو الرجل الرابع !

- ١١ -

عهد الدباس : عهد الجبابرة بالاسماء فقط !

وبينما نترك الشيخ بشاره الخوري يمشي بخطى وسيعة نحو الادوار الرئيسية التي سيلعبها سحابة عشرين سنة على الاقل ، تذهب بنا الاهواء نحو ضآلة الجمهورية الاولى ، جمهورية شارل دباس (١) ، ونحو ضعف الرجال الاقوياء الجبابرة الذين كانوا فيها ، والذين لم يجمع لبنان بوقت واحد مجموعة براقة جذابة مثل مجموعتهم .

وكانت جمهورية الدباس ، ولا ريب ، القاعدة التي انطلقت منها حياتنا البرلمانية الجديدة .

ولكن اعمالها - التي لم تكن كبيرة ولا عظيمة - ليست هي التي خلقت لها هذا الصيت الكبير المستاصل عند الناس حتى الان ، بانها كانت جمهورية طمانينة وعدالة وهيبة .

فانما جمهورية الدباس لم تكن براقة وباهرة باعمالها - كما يتوهم الكثيرون - بل كانت براقة وباهرة برجالها !

فكما قلنا اعلاه ، ما اجتمعت مجموعة من كبار السياسيين مرة واحدة وبعدد وافر في لبنان ، ولمدة قصيرة ، في غير ذلك العهد . وكان رجالها يشكلون حول الدباس هالة جعلت لعهده ذلك الشعاع الذي لا نزال نذكره حتى الان باعجاب ، وهو عهد بدا وعاش كبيرا في البداية ، ثم انتهى كما نذكر صغيرا وزريا !

فانما عندما يكون هناك رئيس جمهورية راجح العقل ، تسانده بعساكرها واموالها دولة حامية كبرى ، وحوله عدد كبير من السياسيين لكل منهم شخصية بارزة ودهاء متمايز وزعامة سياسية راسخة ، لا يمكن ان لا يقال عن عهده انه كان ابهى عهود لبنان بعد انفصاله عن الدولة العثمانية .

---

(١) بدات جمهورية الدباس في سنة ١٩٢٦ وانتهت في سنة ١٩٣٤

وكانت هناك جمهرة من اهل السياسة فاقت بدهائها وعبقرياتها جميع ما جمعته السرايات والمجالس النيابية من بعد .

كانت جمهورية الدباس غنية حقا بالرجال . كان فيها حبيب السعد والعمران ، عمر بيهم وعمر الداعوق ، وكان ايوب ثابت ، وعبد الله بيهم وموسى نمور . وكان اميل أده ، وجورج ثابت ، والشيخ محمد الجسر ، وميشال شيحا والامير فؤاد ارسلان ، وشقيقه الامير توفيق ، وكان بترو طراد والامير خالد شهاب وشبل دموس والشيخ يوسف الخازن . وكان اوغست اديب وعبدالله ابو خاطر . وكان ميرزا ويوسف افتيموس ، وعدد كبير من الشخصيات البارزة .

هؤلاء جميعا اجتمعوا فى المجلس والحكومة فى وقت واحد ، مما لم يجتمع مثله بوقت واحد فى عهود الجمهوريات الثلاث التي جاءت بعد جمهورية الدباس .

وكان كل واحد من هؤلاء يشكل شخصية محترمة معروفة ممتازة .

وكان كل منهم تقريبا خطيبا كبيرا ومتحدثا فهيما ، ومشاغبا حاذقا ، وصاحب أطماع فى الاعالي ، طويل الحدود وكانت هذه الاطماع هي الدافع الاول والاخير للتعاون مع الجمهورية الاولى ورئيسها — ومع الفرنسيين المشرفين عليها !

ذلك انه لم تكن هناك خدمة وطنية كامنة وراء نشاط هؤلاء السياسيين كما يزعم التاريخ العادي المبتذل — والمزيف دائما .

بل كانت الاطماع السياسية هي التي تحرك نشاطهم ، فى وقت كان الفرنسيون قد فتحوا فيه للجميع باب الدخول الى احضان الدولة والسير فيها نحو الشهرة والسلطان ، بعد ان كانت تركيا ضيقت لدرجة تامة ميدان العمل السياسي بوجه السياسيين اللبنانيين خاصة والعرب عامة .

وكانت تظهر هذه الاطماع عند الجميع — عند الذين ذكرنا والذين لم نذكر . فانما جاء لبنان الجديد كالهجرة لاميركا ، يفتح ابوابا للرزق والمعالي لم تكن تخطر على بال !

كانت اطماع هؤلاء الرجال تظهر قبل كل شيء ، وفى وجه كل شيء ،

وخصوصا بالتزاحم على اكتساب رضى المفوضية الافرنسية اولا — وعلى تأمين الحظ عند الدباس ثانيا !

وجاءت الجمهوريات الباقية تحت الانتداب . وكان السياسيون فيها جميعها يعملون فقط لارضاء المفوضية السامية ، واكتساب حمايتها ، ويزدادون استعبادا لها ، على اعتبار انها وحدها صاحبة القول الفصل اما فى عهد الدباس فقد كان الساسة يسعون لاكتساب المفوضية السامية واكتساب رضى الدباس فى الوقت نفسه . اذ ان هذا الرجل الذي بدأ كبيرا ولم ينته كبيرا ، كان اثناء رئاسته للجمهورية دوما على اتم وفاق مع الفرنسيين .

وقد كانت عنده تلك المقدرة التي عجز عنها كل رئيس جمهورية بعده ، من انه كان يعرف كيف يرضي اسياده فى المفوضية السامية ، كما يرضي نوابه ووزرائه وسياسييه من اللبنانيين فى آن واحد !

وتلك السياسة التي اتصف بها طيلة رئاسته جعلته وحده دون باقي الذين جاؤا بعده ، يقضي مدته الطويلة دون ان يقع بينه وبين الفرنسيين خلاف واحد ، كالخلافات التي كانت تقع بين الرؤوساء الذين جاؤوا بعده وبين الفرنسيين ، مما كان ينشر الفوضى فى البلاد ، ويجعل الفرنسيين يلجأون الى الحكم مباشرة ، فيعزلون الرؤساء بسطر واحد ، ويحلون المجالس بربع سطر ، ويعينون رؤوساء جددا فى جمهورية برلمانية بمرسوم اعتباطي !

واذا كان الدباس فى عهد الانتداب قد بقي رئيس جمهورية لبنان مدة ثماني سنوات ، اي اطول من جميع الذين جاؤوا بعده فى ذلك العهد ، فذلك للاسباب التالية :

اولا — لان الفرنسيين كانوا لا يزالون فى بداية عهدهم بالانتداب ، ولا يريدون أن يجعلوه علنا بطريقة مفضوحة حكما مباشرا يتحدى الرئاسة الوطنية ويرمي بها من نافذة السراي اية ساعة اراد .

(وثانيا — ن الدباس كان وحده الذي يعرف كيف يوفق بين كرامة الرئاسة ويجعل لها مكانة معنوية ، وبين ديكتاتورية المفوض السامي .)

وثالثا — وهنا الاهم ، لان الدباس كان يملك الشجاعة على الادعاء بانه

يتحمل مسؤوليات جميع اخطاء الحكم الفرنساوي غير المباشر بالاسم ، المباشر بالفعل ، وذلك دون ان ينتظر أن يطلب من الفرنسيون حمل تلك المسؤوليات .

واذا كان الناس لم يصدقوا دعواه ـ كما كان الواقع ـ فانهم لم يكونوا يكذبونه ـ طالما انه كان يصرح في كل مكان انه هو وحده المسؤول عن كل ما يجري ، وطالما انه لم يعمل مرة واحدة ما كان يعمله الرؤساء والحكام الذين جاؤوا من بعده ، عندما كانوا يجيبون كل محتج على عمل خاطىء ومجحف : لست انا الذي احكم ، بل الفرنساوي !

- ١٢ -

جمهورية ... معلقة على شفتي رجل ...

صار لبنان فجاة جمهورية ، ومستقلا استقلالا نسبيا ، بالنسبة للسلطان الذي كان يتمتع به اسياده الفرنسيون . ولكنه على كل حال صار جمهورية ، والكلمة لذيذة على الاسماع تجعل صاحبها يعتز بها !

ولكن هل كان جدي الشيخ يعقوب الرياشي ـ مع كل ما كان عنده من نباهة وبعد نظر ـ هل كان يفتكر مرة واحدة قبل الحرب العامة الاولى ، وهو يدير اعمال معامله للحرير في قريتنا الخضراء « الخنشارة » ، انه سياتي يوم يصبح فيه لبنان جمهورية ودولة ، مما اعتبرناه اعجوبة الزمان ، ومما اغتبطنا له كثيرا ، مع ان جبل لبنان فقد بهذا الوضع الجديد تلك النعمة التي كانت دول العالم تحسده عليها باجمعها ...

يوم كان يصدق القول العامي : « يا حظ من له مرقد عنزة في هذا الجبل ! »

يوم كان امان واطمئنان ، وكان المكلف يدفع ربع مجيدي ضريبة عامة عامة سنويا اي ليرة لبنانية تقريبا . وكان باربعة مجيديات وخمسة بشالك يمون البيت للشتاء ويعيش مع عياله بطمانينة !

يوم كان ابن الجبل يمشي ببطء وهدوء على قدميه ، واذا اراد البذخ يركب الحنتور على الاكثر !

يوم كان مجلس ادارته المؤلف من اثني عشر عضوا ـ يعمل اكثر بكثير ، لخدمة لبنان ،مما عملته جميع المجالس النيابية التي جاءت بعد الاستقلال مع ان الاثني عشر كانوا غالبا شيوخا طاعنين في السن ، لا يزينهم العلم الكامل ولا نظم الشعر ، بل يمتازون فقط بحب البلاد واخلاصهم لها ، ويمتازون ايضا في شيء خاص مضحك ومهيب معا ، وهو اجماعهم على صبغ شعرهم الابيض بصباغ اسود رخيص الثمن ، يسيل اكثر الاحيان

فى ايام الصيف من شدة الحر على وجوههم وقمصانهم البيضاء ، فـــلا يعودون معروفين !

ومع ذلك كانوا يعملون عملا مجديا ، ضمن صلاحياتهم الواسعـة ، اذ ان كلا منهم كان لا ينظر الى ابعد من منطقته فيحصر جهوده فى خدمتها على أفضل وجه ممكن ، فى الوقت الذي يعمل فيه كل من رفاقه الشـيء نفسه فى منطقته ايضا .

وهذا هو بالاحرى الدليل الاكبر على حسنات الدائرة الفردية ، فى الوقت الذي اكتب فيه هذا الكتاب ، وفى الوقت الذي تصدر فيه الحكومة قانون الانتخاب الجديد على اساس الدائرة والدائرتين تلبية لرغبات الشعب

وكان مجلس ادارة لبنان دليلا قاطعا على ان النائب اذا جاء للمجلس ممثلا لمنطقته لوحده ، عرف حدود دائرته وحقوقه فيها وواجباته نحوها واشتغل لاجلها .

وعلى ذكر مجلس الادارة والانتخابات ، نذكر ان شيوخ كل قضـاء ـ المدعوين اليوم بالمخاتير ـ كان ينتخبون اعضاء ذلك المجلس ، مـا عدا بلدة زحله ، فانها سبقت منذ ذلك الحين جميع الديموقراطيات البرلمانية فى الشرق ، اذ كانت تنتخب عضوها بالانتخاب المباشر ، مما يثبت ان زحاله عاشت بامتيازات خاصة ضمن استقلال جبل لبنان .

***

(لما قامت الجمهورية فى لبنان سنة ١٩٢٦ ، واستقبلنا اعلانها من لدن الفرنسيين بحماسة كبيرة ، لم تكن نعرف ان لها صورا متعددة ، دستورية وغير دستورية ، وانها ستكون مثل المراة المستهترة ، تتعشق كل يـوم رجلا جديدا ، وانها ستكون معلقة على شفاه الدكتاتور الفرنســاوى الذي كان اسمه المفوض السامي والذي كان يكفيه ان يقول كلمة واحدة حتى يقلبها راسا على عقب !)

ومنذ عهد جوستينيانوس ، القنصل الروماني الذي ارسله اغسطس قيصر لبيروت ـ قنصلا عليها ، وذلك بعد ان زوجه ابنته الحسنـاء جوليا فليكس ، التي ابتنت هياكل لعشتروت وقصرا صيفيا لها فى هضاب الالهة ، المعروفة الان بهضاب دير القلعة من خراج بيت مري ، حيـث

نشيد اليوم بيتا جميلا عاليا لنا ، وذلك على انقاض هيكل ربة الحب والجمال ، فنكون هكذا قد بعثناعادتهامن جديد ، بالعيش حيث كانت العذارى تأتي لتعبدها ، وتقدم لها بتولياتها قربانا ...

قلنا ، ومنذ عهد جوستينيانوس الذي اسس مدرسة الاداب الاولى في بيروت وفي الشرق باجمعه ،عرفنا على ممر الازمان اسيادا كثيرين ليس وطنيين لبنانيين فقط بل من جميع الملل والشعوب تقريبا . ولكننا ما عرفنا بعد عهد القنصل الروماني جوستينيانوس غير المفوضين السامين الفرنساويين يأتون الى هذه البلاد ولهم ما كان له من سلطة وسلطان .

(كان المفوضون الساميون يحتكرون لانفسهم الكلمة الاخيرة في كل شيء وفي كل الامور)

وكنا نقول دوما ، عندما ينزل بنا هنا وهناك بعض الحيف من الفرنسيين : نشكر الله الذي نجانا من اعظم ، لانهم على كل شيء قديرون !

لهذا كانوا يعملون بهذه الجمهورية ما يريدون تماما .

حتى ان هذه الجمهورية كانت تبدل اسمها من وقت لاخر حسب ما يخطر على بال «البروقنصل» العظيم ، كما كانت السراي تغير رجالها حسب اهوائه ، كما تغير المراة الحسناء قمصانها !

(وكان رئيس جمهوريتنا يترك الرئاسة فجاة اذا كان حضرة المفوض السامي قد تقلظ خاطره عليه !)

ورأينا يوما،كما سيأتي الحديث، احد المفوضين السامين — الكونت دومارتيل — يقاطع رئيس جمهورية كان قد ساعده قبل يوم واحد ليفوز بالرئاسة — لان ذلك الرئيس الجديد أهمل دعوة عشيقة المفوض السامي — زوجة احد الديبلوماسيين الاجانب — للغداء الرسمي الذي اقامه احتفاء بصعوده الى منصة الرئاسة !

وباجمعنا ، لم ننس كيف ان المفوض السامي يومذاك انتهى الى ارغام ذلك الرئيس — اميل اده — على ان يترك السراي التي كان قد جعلهامكتبه، وينزوي الى بيته ، لايستطيع ان يعمل شيئا الا بامر البروقنصل .

وايضا ولا شك ان دستورنا ضرب المقياس العالمي ، ليس فقط

بالتعديلات المتواصلة التي كان يدخلها عليه المفوضون السامون فى كل مرة كانوا يجدون هذه المادة او تلك المادة لا تنطبق على سياسة ارتجالية خطرت جديدا على بالهم .

كما وان دستورنا ضرب الرقم القياسي فى المرات العديدة التي علقه فيها الفرنسيون كاملا او جزئيا ، وعلقوا معه رئاسة الجمهورية والمجلس النيابي .

وكنا ننام مساء عندنا رئيس جمهورية ومجلس نيابي ، فاذا بنا نستيقظ فى اليوم التالي لنجد كل هذا قد الغي تماما ، او قد علق الى زمن غير معين !

وعندئذ بدلا من ذلك العدد الكبير من كبار الرجال الذين كانوا يشكلون الرئاسة والوزارة والمجلس ، كان يأتينا حاكم فرد - لبناني على الغالب - يقوم باعمال رئيس الجمهورية ووزرائه ونوابه المعلقين باجمعهم . وكان هذا الشيء يستلفت النظر ، ويدل على ان ليس العبرة بكثرة الرجال وبالوظائف المعظمة العالية ، وان حاكما واحدا يمكنه ان يحكم الدولة بافضل من عشرات الرؤوساء والوزراء الذين يحكمونها فى ايام الدستور .

وقد راينا بعد ذلك - حتى فى ايام الاستقلال بعد جلاء الفرنسيين - راينا وزارات من ثلاثة او اربعة وزراء يحكمون ان لم يكن افضل ، فعلى الاقل مثل وزارات الثمانية والعشرة التي جاءت بعد ذلك ، والتي كانوا يدعونها غالبا وزارات الجبابرة !

ولكن اين هم الجبابرة فى لبنان ؟

لقد كانوا ولا شك قبل ان جئنا الى هذا العالم ...

اذ اننا حضرنا آخرة جميع الذين اسميناهم جبابرة فى عهدنا ، فكانت آخرتهم مسكينة زرية ! آخرة اقزام !

***

وبينما كانت جمهورية الدباس تجتاز عهدها ، لكي تقتطع ثماني سنوات من حياة لبنان السياسية ، كان الفرنسيون يمطرون البلاد بالقرارات والصحف والمجلات الباريسية والجندرمة الملقبين - وعن

ظرافة – بالبندورا ، وكانوا يغرقون البلد بالصور المزلطة وبنسائهم وعائلاتهم ومستشاريهم ومعاوني مستشاريهم ومعاوني معاوني مستشاريهم ، الذين كان الانتداب يستقدمهم من فرنسا بكثرة عجيبة ، والذين كل منهم يتقاضى معاش اربعة اضعاف ما كان يتقاضاه اكبر موظف وطني فى الدولة !

فقد كان مثلا ، معاون المستشار يتقاضى معاشات وتعويضات تفوق معاش وتعويضات رئيس الوزارة ، مما يجعلنا نقول ايضا ان معاش المستشار وتعويضاته كانت تفوق – ربما – معاش رئيس الجمهورية وتعويضاته !

وكانت العملة غالية فى تلك الايام

وكان الرئيس الدباس لا يعيش معيشة بذخ ولا مكارم .

ومع انه كان قنوعا وبغير حاجة كبرى للمال ، فهذا لم يمنعه بعد ان ترك الرئاسة سنة ١٩٣٤ ان يسعى لان يكون رئيسا للنواب. وبعد ان فاز بما اراد ، جعل المجلس يقرر له تعويضا قدره ١٨ الف ليرة عن وظيفته السابقة قبل الرئاسة كمدير للعدلية ، مما جعل صحف البلاد وانديتها السياسية تقوم على الدباس وتتنكر له بعد ان رفعته كثيرا يوم كان رئيسا للجمهورية .

كما وانه كان قد اضاع كل مكانة وهيبة ، عندما ترك الرئاسة غاضبا حانقا متأثرا جدا – مما دل واثبت ان عنده ايضا ذلك الضعف الغريب الذي رايناه دوما بعد ذلك برؤسائنا ووزرائنا منذ قامت هذه الجمهورية ، فلم يعرف واحد منهم كيف يخرج من الوظيفة مع كرامته !

بل كان كل منهم يخرج ذليلا غاضبا ، ضائع التوازن !

الرجل الرابع يؤلف الوزارة ... وفي فلكه فرعون وشيحا

في مطلع عهد الدباس ، وقعت تلك الحادثة التي كانت نقطة البداية في ذلك الصراع العنيف الذي ساد حياتنا السياسية عشرين سنة، ولما ينته!

على اثر انتخاب الدباس رئيسا ، الف اوغست باشا اديب اول وزارة لبنانية (١)

وكان «الرجل الرابع» قد قطع شوطا كبيرا في بلوغ الحظوة عند الفرنسيين ، فاذا به يتولى وزارة الداخلية في تلك الوزارة .

دخل حضرته وزارة الداخلية وديعا كالحمل ، ولطيفا وقريبا جدا للناس .

ولكنه ما كاد يدخل السراي حتى اخذ يثبت وجوده بسرعة مدهشة. واخذت وزارة الداخلية التي كانت صلاحياتها في السابق محصورة بالمندوب الفرنساوي ، يتحكم فيها كما يشاء ، وما وزيرها غير منفذ طائع لتعليماته واوامره — اخذت وزارة الداخلية تعمل لنفسها مقاما ومكانة بطريقة مرنة وساكتة مطمئنة ، كان الوزير الجديد لا يخشى من جانب المندوب ملامة وغضبا . ولربما جرى ذلك بالنسبة للصداقة والتفاهم اللذين كان قد اوثق رباطهما مع المندوب وسكرتيره . ولعل هذين هما اللذان تركاه يأخذ هذه المكانة المرموقة التي كان بدا يتمتع بها ، فكان هذا اول وزير في الجمهورية اللبنانية استقل نوعا ما باعمال وزارته وعمل لها كيانا خاصا .

وحكمت وزارة الباشا اديب — التي كانت مؤلفة من رجال اغلبهم ضعفاء — مدة قصيرة ، وذلك الى اليوم الذي اضطر فيه رئيس الوزارة السفر الى باريس للاشتراك بمؤتمر الديون العمومية التي كانت تركيا

(١) الف اوغست اديب هذه الوزارة في ٣١ ايار ١٩٢٦ واستمرت حتى ٥ ايار ١٩٢٧

مرتبطة بها مع اوروبا ، واخصها فرنسا ، وكان على لبنان الجديد ، بعد ضم ولاية بيروت اليه، وقسم من ولاية سوريا ، ان يؤدي حسابا عما يلحقه من تلك الديون .

وفجاة ، بعد ايام من سفر اديب باشا ، وبينما كان هذا منشغلا في باريس في المؤتمر ، عاملا لتحميل الجمهورية اللبنانية اقل ديون ممكنة اسقط المجلس النيابي وزارته ، ودعا الدباس وزير الداخلية الشيخ بشارة الخوري — وطبعا بالاتفاق مع المفوضية السامية — لتأليف الوزارة الجديدة ، مما لم يكلفه كثير عناء لما كان عنده من حيلة ومقدرة (١).

وهكذا فجاة ، وبطريقة غير منتظرة ، صعد الرجل الرابع الى ذروة الحكم بسرعة مدهشة ، وفقط بعد اشهر قليلة من دخوله السراي !

وعلق كثيرون يومئذ تعليقات متنوعة على موقف الشيخ بشارة الخوري من رئيسه الغائب اوغست باشا اديب .

وذهب العذال للقول انه طعنه بظهره ، وانتهز مناسبة سفره ليسقطه وليجلس مكانه .

ولم يكن هناك — والحق يقال — اقل دليل على ذلك ، وهذا ما كان يدعو بشارة الخوري للقول انه مظلوم وبريء من دم ذلك الصديق . وكان يقول ايضا بمرونته المشهورة ، وابتسامته الساكنة الهادئة :

— لست انا الذي اضطرته للاستقالة ، وطالما انه استقال ، وكان من اللازم ان يؤلف غيره الوزارة ، فلماذا يستغرب الناس تكليفي بتشكيل الوزارة الجديدة ؟

★★★

ولكن ، كان ولا شك من الضروري الزعم ان بشارة الخوري هو الذي سحب الكرسي من تحت الباشا اديب ، في بلاد ترى دوما الشر والحيلة والخداع في كل عمل يقوم به الرجال العموميون وينجحون فيه !

واول القائلين ، واكثرهم انتقادا لموقف الشيخ بشارة الخوري

(١) الف الشيخ بشارة الخوري وزارته الاولى في ٥ ايار ١٩٢٧ وعاشت حتى ٥ اب ١٩٢٨ . وتراس وزارته الثانية من ١٠ ايار ١٩٢٩ . وبعد ذلك لم يعد الى الحكم الا سنة ١٩٤٣

المزعوم ، كان طبعا الاستاذ اميل اده نائب بيروت ، ووجه النواب يومئذ.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الصراع الكبير : صراع الجبارين

هو الصراع الذي عاشت هذه البلاد عشرين سنة ضمن دائرتـه ، وكان دوما السبب فى مشاحناتها ومشاداتها وانقلاباتها السياسيـة

هو الصراع الذي غالبا ما كان يحول قوة وعبقرية الرجلين الكبيرين عما كان يمكنهما ان يقوما به من خدمات للبلاد ، الى تقاتل حزبي ، والى تسخير ميزاتهما الكبيرة لخدمة احقادهما الواحد ضد الاخر .

وضرب مرض الانشقاق والتفرقة والتشاكس ليس فقط بين انصار الرجلين فى المدن والقرى ، بل ايضا فى السرايات ، حيث اتخذ كل موظف تقريبا موقفا حزبيا مع احد المتصارعين ، وكان ذلك فى دوائر الحكومـة بداية تلك الفوضى التى اوصلت الحكم الى حالته المعروفة التى انتهت اليها اخيرا ، اذ ان التعاون بين الموظفين زال من جراء الحزبيـة ، ومـا تولده من تنافر وخصام ، واخذ كل فريق منهم يخدم مصلحة حزبـه دون سواها ، ويعمل للضرر بمصلحة الحزب الاخر .

وبدات مع هذا الصراع حملة التشهير فى الصحف والاندية السياسية والاجتماعية . واخذ كل من الجانبين يتهم الاخر بكل الاقذار ويحـاول جره الى الشارع ليرميه بالوحول .

واخذت البلاد تعيش سياسيا على قواعد التنافر والتزاحم الحزبي بين اميل اده وبين بشارة الخوري .

وما جرت بعد ذلك احداث ، ولا قامت انتخابات ومساومـات وحركات سياسية ومشادات عامة ، الا وكانت متصلة بالصراع بـين الخوري واده ، واده والخوري . كما سيراه القراء فى سياق هذا الحديث الذي قد يكون فيه الكثير من الصور الفكهة والطريفة ، ولكن فيـه ايضا وبالاكثر كل الحقائق ، وفيه الرواية الجريئة الصريحة للاحداث التى كان دوما لنا اختلاط بها ، والتى حضرناها واشتركنا فعلا بمعظمهـا ،

***

وكان من الطبيعي الا يرى بسر واميل اده الماروني ، مارونيـا اخر يلمع نجمه ، ومنافسته له تقوى وتكبر .

ولا شك ان ذلك السياسي الجديد الشاب ، الشيخ بشارة الخوري ، الذي دخل السراي من بابها الكبير ، كان قد امتعض لو ان الاستاذ اميل اده اخذ رئاسة الوزارة ، وكان اعلنها حربا شعواء على ذلك الرجل الكبير الذي كان لوقت ما معلمه فى مكتبه الشهير للمحاماة !

وزاد فى حفيظة اميل اده التفاف فئة من وجهاء بيروت حول بشارة الخوري ، « هذا الدخيل الجبلي » ، على قول اهل الحي السرسقي يومئذ وهو الحي الذي ينتمي الاستاذ اده اليه ، فهو زوج احدى كريمات ذلك الحي ، من السيدات الكاملات الاوصاف والمزايا فى هذه البلاد .

نريد ان نقول : واحاط ميشال شيحا العالم العلامة ومدير البنك المحترم والكاتب الالمعي بشارة الخوري من اليمين ، واحاطه من اليسار هنري فرعون وجيه الكاثوليك بالبلاد ، المليونير الجريء المعروف ، وصاحب المكانة فى عالم الرياضة وحياة الاندية الاجتماعية العالية ، والاوساط القنصلية والشركات الكبرى ، وما ورائه ووراء بنك شيحا من عناصر وانصار وامكانات قوية تجارية معروفة .

وفى مقدمة رجال الاعمال الذين احاطوا ببشارة الخوري منذ الساعة الاولى ايضا ال كتانة وفريد شقير المليونير المشهور والفتال ، وعدد كبير من رجال المال والاعمال ، اخذوا يدورون بفلكه ويستبشرون ويرون فيه الشمس الطالعة !

وكان هناك ايضا اصهار واقارب وانساب ال شيحا ، الكثيرون المعروفون فى عالم الوجاهة والقوة المالية ، وغيرهم ممن تنتسب اليهم السيدة عقيلة بشارة الخوري ، مما جعل يومذاك لرئيس الوزارة الشاب هيئة اركان حرب قوية غنية وجيهة .

هذه الهيئة كان اميل اده واوساطه منذ الاساس ، ولتزاحم فى الوجاهة ، وقبل ان يصل الشيخ بشارة الخوري الى الحكم ، لا يحبونها ويتجنبونها . اذ ان عالم الاستاذ اده الاجتماعي كان بالاحرى عالم طبقة العائلات الكبرى فى الحي السرسقي ، ذات الثراء الموروث ، تتمتع عائلاته الكبيرة الاسم بثرواتها وتعيش بمعزل من هذه الامة فى حياة ترف وبذخ ومباهج ، فى الوقت الذي كان فيه عالم فرعون وشيحا وشقير وكتانة عالم الصناعة والتجارة والمصارف والشركات وهدفه الرئيسي هو المتاجرات والسباق فى حلبة الاشغال .

وكان هذا العالم ـ عالم الاعمال ـ الذي اخذ يحيط ببشاره الخوري، النقطة الحساسة التي جعلها الاستاذ اده في محاربة بشارة الخوري نقطة الضعف في هذا الاخير ، فأخذ انصار الاستاذ اده في حملتهم التشهيرية على بشاره الخوري يسمون عالمه بـ «الكونسرسيوم» المخيف ، ناسبين الى هذا الكونسرسيوم المتاجرة بالنفوذ .

وظل حزب اميل اده ٥ر٢ سنة بعد ذلك يلاحق بشاره الخوري باتهاماته هذه ، حتى انقلبت الايام اخيرا ، واعتزل بشاره الخوري الحكم ، وعاد الى بيته .

وكان اول هجوم يومذاك على الشيخ بشارة الخوري كرئيس وزارة اتهامه يومئذ بانه استثمر مركزه وسهل للسادة فرعون وشيحا وشقير ـ الانسباء الثلاثة ـ شراء ارض الحكومة المعروفة بارض سكة الحجاز على ساحة البرج ، وذلك بشروط مفيدة للكونسرسيوم ، منها تشييدهم البناية التي ابتنوها فوق تلك الارض ، والتي كانت في وقتها اكبر بنايات بيروت ، واستثمار هذه البناية لمدة مئة سنة واكثر ، على ان ترجع ـ لربما ! ـ الحكومة بعد ذلك ...

- ١٤ -

بين العروبة والفينيقية

خلال خمس وعشرين سنة تقريبا ، عاش لبنان في سياسته ضمن اطار الرجلين ، اميل اده وبشاره الخوري ، وقد جعله صراعهما المتواصل ميدان قتال ومشادات اشغلت الاندية والسرايات والاوساط السياسية باجمعها.

ولم يكن الاستاذ اده يريد ان يتصور ان هذا الشاب الهادي الوديع الذي تمرن بمكتبه ، هذا الجبلي « الفشيم » الذي لم يعش في ظلال الحي السرسقي ، يمكنه ان يكون الاول بروما ، وذلك في الوقت الذي كان فيه بشاره الخوري يعتبر انه بعائلته المشهورة الكبيرة بين العائلات الجبلية ، وبعلمه الوفير وادبه الغزير ، يمكنه ان يعتلي في بيروت الى أعلى القمة ، خصوصا وحوله تلك المجموعة من الانصار بين رجال الاعمال البيروتيين ،

وفعلا ، ما تولى الشيخ بشارة رئاسة الوزارة في ايار ١٩٢٧ ، حتى ظهرت فيه صفات كانت مجهولة قبلا ، بالنظر لطبيعته المتكتمة ، ولميزة السكوت التي كانت تلازمه .

واخذ ياتي الى المجلس النيابي وهو — في اشد الازمات — هادئا رصينا يقبل برحابة صدر وبصبر غريب جميع تهجمات وحملات بعض النواب عليه ، واخصها التي كانت تاتي من جانب المصارع الاخر اميل اده.

وكان يظل ساكتا ، دون ان يبدو عليه التاثر ، حتى تمر امامه فرصة مؤاتية ، فينتهزها ، ويقول كلمة محكمة تكون فصل الخطاب . وهكذا كان يخرج من المجلس منتصرا في اغلب الاحيان .

وكان الشيخ محمد الجسر اول من عرف في هذا السياسي الناشىء رجل المستقبل . وقال مرة للاستاذ اده بعد جلسة نيابية اظهر فيها بشارة الخوري سعة صدر غريبة :

— ارى ان هذا الجبلي القروي يطلع على السطح بعجلة وسرعة ...

واخشى ان يصعب علينا كسر السلم قبل أن يسد علينا باب السطح.

ولا اعرف اذا كان الشيخ محمد الجسر – هو الاخر – يخشى من صعود بشارة الخوري، او انه كان يقول ذلك للاستاذ اميل اده توددا اليه فقط.

ولكن الذي اعرفه ان الشيخ محمد الجسر كان يميل للاستاذ اده اكثر من ميله لبشارة الخوري، وظل هكذا حتى الساعة الاخيرة، وقد يكون ذلك لان الاستاذ اميل اده كان صديقه وعشير صباه.

وكان سماحته يحاول ان يجعل لكلمة الاستاذ اده فى المجلس مكانة اكبر من كلمة الشيخ بشارة الخوري غير ان بشارة الخوري كان فى رئاسته للوزارة، يعرف كيف يجعل سياسته تتجانس وتتناسق مع سياسة المفوضية السامية، ومع سياسة رئيس الجمهورية، بطريقة استطاع بها ان يتحاشى كل خلاف يمكنه ان يقع بينها وبين ذينك المرجعين الرئيسيين

فى حين ان رئاسة اميل اده للوزارة (١)، جعلته يسارع منذ استلامه الحكم الى استفزاز غضب المفوضية ورئاسة الجمهورية معا. ويرجع ذلك الى الروح العاصية والارادة الجامحة اللتين كان الاستاذ اميل اده يتحلى بهما.

والواقع انه لما تولى اميل اده رئاسة الوزارة، بدأت المشاحنات حالا بينه وبين المفوضية ورئاسة الجمهورية، اذ اراد حضرته ان يقلب الاوضاع القائمة راسا على عقب. وقد احدث ضجة بعزل عدد كبير من الموظفين، وفى تعديل مناهج التعليم فى وزارة المعارف لصالح البعثات الدينية الاجنبية المسيحية، وفى استبعاد سياسة الدولة عن العرب والعروبة، اذ ان اميل اده كان يفهم لبنانيته مستقلة متعصبة، لا يريد لها نسيبا ولا قريبا!

وكان اميل اده يتكلم علنا ضد عروبة لبنان، بينما كان الرجل الرابع، بفضل دهائه السياسي ونفسه الكتومة، يتحاشى دوما الخوض في موضوع موقف لبنان من البلدان العربية. واذا اضطرته الظروف لخوض

(١) تحت ضغط المعارضة التي يقودها الاستاذ اميل اده، استقالت وزارة الشيخ بشارة الخوري الثانية فى ١١ تشرين الاول سنة ١٩٢٩، فخلفتها وزارة برئاسة الاستاذ اميل اده، ظلت فى الحكم من ١٢ تشرين الاول سنة ١٩٢٩ الى ٢٠ شباط ١٩٣٠.

الموضوع ، فانه كان يقول اشياء تناسب نزعات الحضور الذي يسمعونه وترضي المقام الديني الذي ينتمي اليه سامعوه . وهكذا كان الشيخ بشاره دوما يتجنب الجزم في الموضوع ، فلا يتحدى النصراني ولا يتحدى المسلم، بينما كان اميل اده يقول رايه بصورة كاسرة .

وهذا ما جعل المسلمين في لبنان والبلدان العربية يطمئنون الى الشيخ بشاره اكثر من اطمئنانهم الى اي ماروني غيره ، خصوصا وانه لم يكن بامكانهم ان يطمئنوا الى الاستاذاده ، وهو اولمن خرج على الناس باسطورة الاصل الفينيقي ، للبنانيين ، زاعما انهم ما كانوا ، ولا مرة ، عربا ولا مستعربين .

وكان ياتي بادلة مستندة على قدر ما يمكن التاريخ ــ خصوصا القديم منه ــ ثباته من اقواله ، وراح يتعاون مع مجلة « فينيقيا » التي انشأها الشاعر المعروف باللغة الفرنسيةشارل القرم ، وراحت تبث الدعاية لنشر النظرية الفينيقية بين اللبنانيين .

وحاول الكثيرون من القائلين بالعروبة يومئذ ، دحض انتماء اللبنانيين للفينيقية . وكان اول من اهتم للقضية ذلك السياسي الشاب الاخر رياض الصلح . وهو الذي اكتشف بالمناسبة في دائرة معارف « لاروس » الفرنسية ، ان الفينيقيين عرب اقحاح ، جاؤوا من نجد في الجزيرة العربية، واستوطنوا شواطىء البحر الابيض المتوسط وسموا انفسهم فينيقيين، واقاموا لانفسهم مملكة كبيرة فتحت البحار وغزت شمالي افريقية وابتنت قرطجنة واخترعت الالف باء ، والارجوان .

وفي وسط هذا الخصام بين الجانبين،لم يسود الشيخ بشاره الخوري وجهه ولا مرة بالقول مع المسلمين أن لبنان غير عربي ، كما وانه لم يفضح نفسه امام الكنائس والاديرة بالقولانلبنان عربي محض .

***

وعندما كان الاستاذ اميل اده رئيس وزارة جعلت بعض اعماله تثبت للمسلمين في لبنان انه يعمل سياسة لبنانية اعتزالية محضة . ومعنى السياسة اللبنانية المحضة جعل الحكومة اللبنانية ترتدي الطقم الفرنجي المسيحي اكثر من ارتداء العباءة العربية .

وذات صباح اجتمع المجلس النيابي ، واظهر عدم رضاه عن سياسة رئيس الوزارة الانعزالية ، التي تغضب المسلمين وحلفائهم الارثوذكس، كما تغضب عدداً من الموارنة من غير انصاره.

واحس الناس حالا ان الرجل الرابع يشتغل من وراء الستار، مع تظاهره بالتزام الحياد ، منذ اليوم الذي صار فيه الاستاذ اده رئيس وزارة ، وانه هو الذي يثير عليه الان العناصر الاسلامية فى المجلس ، يضمها الى بعض النواب الموارنة الذين يماشونه .

وكان بشارة الخوري قد ترك حماس اده اللبنانية الانعزالية يتزايد ويقوى حتى جعله اخيرا يخرب ويهدم رئاسته بيده .

***

وجاء الوقت الذي وجد فيه رئيس الوزارة اكثريته فى المجلس تنقلب الى اقلية (١)

فاعتزل ، ولكنه اعتزل غاضبا حانقا ، بعكس الرجل الرابع الذي ترك الوزارة مبتسما ساكتا .

وغضب وحنق الاستاذ اده ، هما اللذان جعلا الناس الذين كانوا يعتبرون ــ ولا يزالون يعتبرون ــ الاستاذ اده من اكبر الرجال ، ينسبون اليه ايضا المرض الذي اصاب الدباس ،واصاب من بعده كل رئيس وزارة او رئيس جمهورية فى هذه البلاد : وهو مرض عدم معرفة الذهاب بابتسامة وسكون .

***

وقامت يومئذ ظاهرة كان بطلها ومعناها الكبير فى هذه المناسبة التى كانت قائمة .

ذلك ان رئيس الجمهورية الدباس كلف الاستاذ اده بعد استقالته بتأليف الوزارة عن جديد ــ كما يقتضيه العرف والعادة . ولكن استعصى الامر على ذلك الرجل الكبير، مما جعله يحاول استعمال شتى الطرق

(١) خذل المجلس النيابي وزارة اده فى ٢٠ شباط ١٩٣٠ ، فاضطرت الى الاستقالة.

لتشكيل وزارة جديدة ، بأيـــة طريقة كانت وباي عدد كان تكايـــة بخصمـــــه .

واستعصى عليه الامر جدا : فحاول ان يؤلف وزارة من ١٤ و ١٦ وزيرا ، من مجلس لم يكن فيه اكثر من اربعين نائبا ، وذلك ليرضي اكبـر عدد من النواب ، ومع ذلك لم ينجح (١)

وفي تلك الايام ، لم يكن احد يجسر في بلد ناشيء عدد سكانه مليون ، وكان بالامس متصرفية صغيرة من الدولة العثمانية ، ان يؤلف وزارة تزيد عن الاربعة أو الخمسة وزراء ...

(١) ظلت الازمة الوزارية مفتوحة مدة اسبوعين في جو مكفهر ، فلما فشل اده في تاليف الوزارة من جديد ، الفها اوغست باشا اديب في ٥ اذار ١٩٣٠ .

جورج لطف الله : المرشح لعرش لبنان !

مضت رئاسة الدباس الاولى بسلام ، من سنة ١٩٢٦ الى ١٩٢٩ . ولعلها الرئاسة الوحيدة التى لم يكن لها قصة ـ اللهم اذا حسبنا قصة الامير جورج لطف الله قصة !

وانها لقصة طريفة ، وغنية ، ومضحكة . وكان يغذيها نهر من الجنيهات .

وعند الفرنسيين مثل مأثور يقول : «هناك رب للفقراء !»

ونقول بالمناسبة : هناك رب للصحافيين والسياسيين !

وهو ذاك الرب الذي جاء بالامير جورج لطف الله الى هذه البلاد، يطلب رئاسة ، ثم عرشا !

كان ذلك قبل نهاية ولاية الدباس الاولى باشهر ، ولم يكن حتى ذلك الوقت ، احد يقول بترشيح نفسه للرئاسة .

اذ ان الرئاسة كانت ملكا للمفوض السامي ، يعطيها لمن يشاء . وكان المجلس النيابي ينتخب الرئيس اسميا . ولكن المفوض السامي كان يحكم بالمجلس النيابي كما يريد ويشاء ، ما دام يستطيع ، ليس فقط ان يوقف قرارات المجلس ، بل ان يرسله الى بيته بدون ان يكون مجبورا ان يعين سببا لذلك !

ولم يكن احد قد تكلم عن الملكية فى لبنان ، قبل ذلك بطريقة صريحة، منذ انفصاله عن تركيا ، غير رجل مستنير مؤمن بما كان يقول ، هو الاستاذ حبيب البستاني ، الذي كان عنده نشاط وشغب وعنف ابن عمه معاصرنا الان النائب اميل البستاني ، ولكن لم يكن عنده ملايينه !

وكان يقول انه انشأ حزبا بالبلاد يطالب بملكية بلبنان لا جمهورية ، يكون الملك فيها اجنبيا مسيحيا ـ كما كان متصرف جبل لبنان يوم كان

لا يزال ولاية تابعة للسيادة العثمانية !

ولكن تبين بعد ذلك ان ذاك الحزب الملكي كان مؤلفا فقط من صاحبه كرئيس وكنائب رئيس وكاعضاء ...

ومات حبيب البستاني ، واخذ حزبه معه ، وما عاد احد تكلم عن الملكية في لبنان بعد ذلك حتى اظهر ذات يوم الخديوي عباس ، وقد كان لاجئا في سويسرا،بعد ان اخرجه الانكليز من مصر،انه يريد شراء عرش بلبنان!

وجاء عمال له يتحدثون عن الاموال التى سيصرفها عندنا فى هذا السبيل .

ولقد عرضوا علينا المشروع ، وعرضوا منافعه وميزات مكانة سمو الخديوي ، واستعداداته الطيبة للدفع . ولكنهم لم يعرضوا فعلا شيئا من جنيهاته ، مما جعل الناس يعرضون بسرعة عنه وعن مشروعه.

وهنا يجب ان نروي قصة الامير ...

القصة التى اضحكت البلد زمنا واغنت عددا كبيرا من المشتغلين بالسياسة . وقد كانت قصة ذهبية لما رمى فيها الامير جورج لطف الله من مال !

... ولما حام حولها من شبهات وطرائف ، ولما ظهر فيها عند اكثر السياسيين من جشع ، وكذلك لما اظهره الشيخ محمد الجسر وبعض نوابه من الاستخفاف بالمال .

ولكن كيف كانت حكاية ترشيح الامير جورج لطف الله لرئاسة الجمهورية ، وقد كان يقول عنها :

ـ طبعا ساعمل مثل نابوليون الثالث : الرئاسة ستكون عندي طريق العرش !

***

فى هذه القصة اشياء تكاد لا تصدق . وفيها مشاهد من حكايات الف ليلة وليلة ، مال وحسان ، ومبارزات ، وليال رومانية ، وانهر من اللآلي والذهب ، ودسائس ومشاغبات ... وتزوير فى وزارة الخارجية بباريس ، وشيخ معمم رئيس مجلس نيابي بلبنان ، يضيع اكبر فرصة

للاثراء والسعة، فى الوقت الذي كان فيه اكثر زعماء السياسة بلبنان يتصدون لانتهاز الفرصة الصحيحة ، وللتعرف الى كنوز هذا الامير الذي ترسله السماء الينا !

★★★

اجتمع ذات مساء ، فى مطلع العام ١٩٢٩ ، بعض الصحافيين ورجال السياسة اللبنانيين ، من اهل المتاجرة والتملق ، حول مائدة سخية فى قصر الجزيرة بالقاهرة . وكان صاحب القصر الامير جورج لطف الله يراسها .

جاؤوا كالعادة ، يرسلون المدائح والاطراء لصاحب القصر ، الذى كان حساسا كثيرا من هذا الجانب ، مما كان يجعله يغدق النعم على هؤلاء الاساتذة فى فن الكلام !

كان ضعيفا جدا امام التمداح والثناء ، مع انه كان جبارا ومغريا بعضلاته القوية ، ذا شعر مبعثر حالك السواد ، ولون اسمر حادق . وكان مليونيريا كبيرا ، من وراء ثروة كان والده قد وضع قاعدتها

عندما هاجر من لبنان لمصر ، حيث استطاع ان يربط مصيره بمصير الخديوي عباس المالك يومذاك ...

وعندما كبرت ثروة الرجل ، وكان مصابا بمرض العظمة ـ وهو مرض اصاب انجاله من بعده بطريقة اقوى واشد ـ قلنا وعندما كبرت ثروته ، ابتاع القصر التاريخي الجميل المدعو بقصر الجزيرة في ضواحي مصر ، وجعله مقرا لسكناه ومنزلا لضيافة عظماء الارض وكبارهم

وكان الخديوي اسماعيل قد ابتنى هذا القصر بسرعة وبكرم عظيمين لتنزل فيه الامبراطورة اوجيني الحسناء عندما تاتي لمصر مع ملوك أوروبا ، تدشن افتتاح قناة السويس ، فلا يتبدل عليها شيء ، فى قصر الجزيرة مما هو فى قصر التويلري بباريس ، حتى الفراش والشراشف والمرايات واواني الزينة وباقي مفروشات القصر .

ويقال بالمناسبة ان الخديوي اسماعيل جعل فى جدران غرفة نوم الامبراطورة وحمامها ثقوبا خفية ، يستطيع منها ان يمتع انظاره بعري اوجيني دي مونتجو ، الساحرة الجذابة .

وعاش مواطننا المهاجر الثري في ذلك القصر مع انجاله الاربعة ، ذوي القامات الجبارة ، يتنشقون فى جنباته هواء العظمة والجاه ، وهو الهواء الذي كان يسكرهم ويضيع توازنهم ويجعلهم يحلمون بالعروش .

وتلك الليلة ، حول تلك المائدة الفاخرة كان جماعة المتملقين النبهاء من ساسة وصحافيين - واكثرهم لبنانيين - يحيطون بالامير جورج لطف الله .

وكانت الامارة قد اخذها والده من الملك حسين بن علي ، عندما اعتلى هذا الاخير عرش الحجاز فى الحرب الكونية الاولى ، فانضم حبيب لطف الله الكبير مع اولاده اليه ، ينادون بالعروبة ويجاهدون بجانبه حاملين له هدايا ثمينة واموالا طائلة وضعوها فى خدمة عرشه ، مما جعله يقربهم اليه ويعطيهم لقب الامارة .

وكان الحديث على المائدة طريفا وظريفا ، وكل من الحضور يفتش عن افضل الطرائف يقولها لسيد المكان حتى خطر فجاة خاطر جديد لاحدهم المرحوم انطون الجميل ، رئيس تحرير «الاهرام» يومئذ ، وقال بمناسبة الحديث عن الجمهورية اللبنانية الجديدة ، وقيامها بالطريقة الارتجالية التي جرت :

- ولماذا لا يتكلمون فى بلادنا لبنان عن عرش وملك ؟ فانما كل ايامنا عندنا عرش وامارة . . .

ولمعت عينا الامير ، وظهرت على فمه ابتسامة عريضة ، وضرب بقبضته القوية على المائدة ، فاهتزت الاطباق والملاعق وطار ديك رومي فى الفضاء ، وقال :

- اذا كان ليس هناك احد فى لبنان يتكلم عن عرش وامارة فانا ساتكلم عنهما !

وعندئذ انتهز المدعوون ، الذين كانوا قد احتسوا الخمور الفاخرة النادرة ، فرصة ما اثاره هذا الحديث عند الامير من اطماع ، فراحوا يباحثونه فيه ويؤكدون له امكان تحقيق تلك الامنية ، وانه الوحيد الذي يليق به العرش ، وليس غيره اهل لان يكون اميرا بلبنان !

وما انتهت الهيئة ، الا وكان الامير جورج لطف الله يعتبر نهائيا انه

صار اميرا او ملكا بلبنان . وكان ايمانه بذلك مطلقا لدرجة قيل انه في اليوم الثاني ارسل يستحضر رسوما عن صور تيجان الملوك وصولجاناتهم وعروشهم ، ليوصي على افضل تاج وصولجان وعرش للمملكة المنشودة !

وبعد ايام من ذلك ، صار قصر الجزيرة ملتقى تجار السياسة واهل الدعايات والمغامرات ، فضلا عن جيش من الصحافيين العاملين فى اسواق الاستثمارات السياسية ، يقومون بالبروبغندا اللازمة للامير .

وبالغت الدعاوة له مبالغات مستغربة ، حتى ان بعضهم - وبمذكرات مطبوعة - ارجع الامير جورج لطف الله عشرة اجيال الى الوراء ، ووجد له محتدا ملكيا قديما جدا ، وجعله سليل بيت مالك عظيم فى بلاد المشرق ، وصوره للناس داهية وعبقريا فى العلم والسياسة والادب ، واميرا من امراء الف ليلة وليلة ، بلغت مكارمه الحد الاعلى فى المنح والعطاءات والهدايا التي يقدمها ، حتى انه اغرق مئات الحسان بأنهر من الماس والجواهر !

وطبعا، كما قلنا اعلاه ، كان مرض العظمة والتفشير قديما جدا فى اشقائه ايضا . فكان كل منهم له جنون جديد يشابه جنون اخيهم ، اللهم الا واحدا منهم ، هو الامير ميشال .

واذكر ان احدهم - وقد كان فى البداية وزيرا للملك حسين فى روما - أنعم ذات مساء على نفسه بلقب مارشال ، فارتدى بزة عسكرية مذهبة ذات نجوم وسيوف عديدة ، واخذ يعرض خدماته على حكومة بولندا ، التي كانت يومئذ فى خصام مع روسيا البولشفية !

واكد انه مستعد ان يقدم لها فرقة الخيالة الصحراوية البالغة مائة الف فارس ، التي انشأها فى الجزيرة العربية ، وهو قائدها الاعلى !

***

وبدأ الامير جورج لطف الله حالا اتصالاته بوزارة الخارجية الفرنسية، مدركا ان هذه الوزارة هي التي يمكنها ان تعمله رئيسا للجمهورية عن طريق مفوضيتها السامية ببيروت ، ثم بعد ذلك يبقى يمشي وحده نحو الامارة ، ومن بعدها نحو الملكية !

وسافر الامير الى باريس قبل ان يأتي لبيروت !

وهناك فى وليمة كبرى اقامها على شرف سكرتير وزارة الخارجية اخفى عقدا من اللؤلؤ ، نادر المثال ، ثمينا جدا ، ضمن منشفة السفرة فوق طبق الطعام المعد لزوجة السكرتير العام .

وكانت دهشة السيدة عظيمة جدا عندما جلست الى المائدة ، واكتشفت هذا الكنز الثمين ، ولم تستطع اخفاءه بالرشاقة اللازمة ، مما جعل أكثر الصحافيين الحاضرين يتحدثون فى اليوم الثاني عن ذلك العقد.

وطبعا عدا عن العقد دفع الامير بباريس لسماسرة العروش ما دفع، ومنها الثلاثين ألف جنيه التي اعطاها لموظف كبير فى وزارة الخارجية، مقابل كتاب حمله من باريس عليه توقيع سكرتير الوزارة العام ، يطلب فيه السكرتير العام باسم الوزارة ، الى المفوض السامي الفرنسي ببيروت، مساعدة الامير جورج لطف الله ليكون رئيسا للجمهورية اللبنانية !

وطبعا ، اتضح بعد ذلك ان الكتاب كان مزورا ، وان الموظف الكبير فى وزارة الخارجية الفرنسية ضحك على الامير واخذ المال ، واعطاه ذلك الكتاب بعد ان مهره بخاتم الوزارة فقط ... مما هو سهل عمله على كل موظف فيها ، يستطيع دخول مكتب السكرتير العام .

وكان المفوض السامي قد عرف حالا بالتزوير ، ولم يفضح الامر محافظة على سمعة وزارته بباريس . ولكن الامير ظل حتى الساعة الاخيرة لا يعرف ان الكتاب كان مزورا ، لهذا كان مدهوشا جدا من موقف المفوض السامي ضده بعد ذلك ، ومتابعته مساعدته للدباس على تجديد رئاسته !

***

قلنا ، حمل الامير جورج لطف الله كتاب وزارة الخارجية ، وقد تخيل انه المصعد الذي سيصعد به الى الرئاسة ثم العرش ، وجاء لبيروت بطبل وزمر ، تتقدمه حاشية من السكرتيرية والخدم السود والدعاة والصحافيين ، وذلك بعد ان نظم عماله له هنا مهرجان استقبال عظيم .

ونزل فى قصر سرسقي استأجره بأغلى الاثمان ، وكان اول ما اعتنى به ساعة وصوله انه سحب من المصارف ، وبطريقة علم بها الناس ، أموالا

كبيرة . ثم استخدم عنده أمهر واحذق طباخ فى ذلك الزمان ، طانيوس الشمالي ، الاستاذ الاكبر فى علم الطعام بالامس ، وصاحب محلات وفنادق طانيوس الشهيرة الان .

وكان الامير يعرف ـ عن حق ـ ان هناك شيئين اساسيين يمكن بهما جلب الناس اليه : بطنهم وجيبهم ، اي الطعام الشهي والذهب .

وفتح أبواب القصر على مصراعيه ، يدخله الناس بين سياجين من الخدم الزنوج ، المرتدين الاثواب المزركشة ، ذات الالوان الصارخة ، واتخذ له ديوانا فى احدى غرف القصر ، حيث وضع مقابل المكان الذي يجلس فيه الزائرون صندوقا حديديا عظيما ، يفتحه دوما وبطريقة حاذقة ـ عند المناسبات ، فيشاهد زواره اكداسا من الذهب والجواهر ، ليس لها مثيل حتى فى افلام السينما ...، فيسيل لعابهم وتضعف نزاهتهم .

وهاتوا أخبارا حسنة ووعودا جميلة عن الرئاسة لسموه وخذوا جنيهات ...

وكنت انا شخصيا قد اعطيت الامير القابا كبيرة جديدة ، ومنها لقب «مونسنيور» ولقب المونسنيور ـ سياسيا ـ يعطى فقط للامراء المالكين ، او المنحدرين من أصل ملكي .

ويتساءل القارىء طبعا كم كلف هذا اللقب ، وكم دفع الامير ثمنه ؟

ولكن لم يكن هناك بيننا وبين سموه كلفة فى هذا المعنى ، فقد كان كريما وكنا نستاهل !

لقد كان كريما معنا ـ كما كان كريما مع جميع الصحافيين الكبار فى هذه البلاد ، الذين كانوا يجتمعون كل ليلة على مائدته الشهية ، ويعللونه بالامال ، حتى فى الاوقات التي تكون الامال برئاسته قد ماتت تماما !

وهؤلاء الصحافيون الذين كان بينهم من يصلي بالنهار ويفخر على العالم بتجرده ونزاهته ، ومع ذلك يبيع نفسه بالليل ـ هؤلاء لم يكن بامكانهم بعد ان انتهت حكاية الامير ، ان ينكروا انهم كانوا دعاته المأجورين ـ وذلك عندما اقام عليهم الامير الدعوى بعد ان خسر المعركة نهائيا ، يطالبهم فيها بارجاع المال الذي كانوا يأخذونه منه . ونذكر من هؤلاء

الزملاء جبران التويني ، خليل كسيب، جبرايل خباز، خير الدين الاحدب، محمد اليافي ، نحن وغيرنا .

ويجب القول ان كل واحد منا مديون بوقف الملاحقة القضائية ضده للرجل نفسه الذي كان جورج لطف الله قد كلفه باقامة الدعوى ، وهو الاستاذ الكبير عبد الله اليافي ، الذي اكتسب منذ ذلك الحين صداقة الصحافيين ، ومن هذا تبين له ـ كما كان يقول دوما ـ ان صداقة الصحافيين لا تاتي ابدا مجانا !

وكان ديوان الشيخ محمد الجسر في ذلك الحين اظرف ديوان وابقه، يجتمع فيه كل صباح اهل الروح من ساسة وصحافيين ، يتناولون الطرائف والظرائف ومعظمها عن الامير جورج لطف الله واخباره المبجلة ومغامراته السياسية والعاطفية ، التي كانت تلعب فيها حسان معروفات ادوارا مغرية ، مقابل اجور باهظة وهدايا ثمينة ، عدا عن ان الامير ـ وقد كان جوادا جموحا قويا ـ كان كذلك الامير يفتش بين نصيراته كثيرا عن ارواء غليله من محاسنهن .

وكان ذات يوم ديوان الشيخ محمد يغص بالنواب واهل السياسة واللطافة ، وبينهم الاستاذ اميل اده الذي اتصف دوما بفكاهة لسانه وظريف حديثه . وسألنا حضرته ، وكنا نفرا من الصحافيين ، كيف اننا امضينا اوراقا مقابل المال الذي كنا نأخذه من جورج لطف الله . واستأذنا بالجواب من الرفاق الاكارم ـ ولا ننسى لا الخباز ولا كسيب ولا التويني، ولا بشاره الخوري الشاعر ولا شبلي الملاط ، ولا باقي اسياد الصحافة اللذين كانوا حضورا وقلنا :

ـ ولكن الحساب بيننا وبين الامير سددناه القابا وتمداحا واشعارا وبروبغندا . ومع ذلك ، ماذا يمكنه ان يسترجع منا غير الذي اورثنا اياه الوالد ؟

وكان هذا الكلام بعد ان غادر الامير البلاد طبعا .

ولا شك ان رئاسته كادت تتحقق ، لكثرة ما اشترى الامير رجالا ودعاة ، ولو ان الشيخ محمد الجسر ـ الذي كان خصم الامير ـ رضى بالثلاثين الف جنيه ، التي حملناها له نقدا وعدا ، من اوراق المئة جنيه المصرية ـ حملناها انا وسكرتير الامير ، المدعو جورج خوري ، في الهزيع

الاول من ذات ليلة ، ورفضها الشيخ رفضا باتا !

ولكن لماذا ؟

لانه كان وحده لا يزال فى هذه الجمهورية السعيدة يؤمن اولا بالنزاهة ، ثم يؤمن ثانيا بالمفوض السامي ، الذي كان قد طلب منه منع المجلس من انتخاب جورج لطف الله رئيسا . وتأمين تجديد الرئاسة للدباس .

والان ، لا يجب ان يتساءل القراء اذا كنا انا وجورج ، قد ارجعنا الثلاثين الف جنيه ، كاملة كما اخذناها !

هكذا انتهت مغامرة امير قصر الجزيرة . ولكننا اثناءها عرفنا ان الكثيرين من كبار زعماء السياسة وأركانه العالية ، وبينهم احبار من امراء الدين فى البلاد ، الذين كانوا يفتخرون امامنا بالتجرد والنزاهة والكرامة كانوا قد تعرفوا كثيرا على صناديق جورج لطف الله . ولكنهم لم يكونوا صريحين كما كنا نحن ، بل كان عندهم الوقاحة لان ينكروا كل ما كانوا يعرفون اننا نعرفه عنهم !

اسهبنا فى هذا الحديث لنقول تماما للجيل الحاضر ، ولاصحاب الانقلاب الاخير بلبنان ، الذين يدعون ان الفساد ولد بعد الاستقلال ـ اسهبنا لنقول لهم ان الفساد قديم جدا ، وقد كان فى عهد الجمهورية الاولى ، كما كان ـ وكما هو ـ فى عهد الجمهوريات الثلاث التي تبعت . وسيبقى هكذا فى هكذا فى الجمهوريات الاخرى التى ستتبع طالما ان بيروت هي بيروت ، والجبل هو الجبل . . .

وجل ما هناك ان الاشياء كانت تجري فى السابق بنوع من الظرف والكتمان ، ولم تكن العين قد وصلت للوقاحة التي هي فيها الان !

- ١٦ -

الثالوث العربي ومؤتمر الساحل

كان فى ذلك الزمان ، ثلاثة من ازهى واقوى وأذكى فتيان المسلمين ببيروت يجتمعون اجتماعات متواصلة فى ادارة الصحيفةالتي كانوا يتعاونون على اصدارها .

وكان رياض الصلح احدهم وقد عاد حديثا من المنفى الذي اضطره الفرنسيون للذهاب اليه ، كما انهم اضطروه بعد ذلك الذهاب الى المنفى مرارا عديدة .

وكان رياض الصلح بعد عودته من منفاه الاول ، قد عقد هدنة مع الفرنسيين على ان لا يشتغل بالسياسة .

واين كان منفاه بالاكثر ، فى كل مرة أبعده فيها الفرنسيون عن بلاده؟ كان منفاه باريس !

كان يهرب من مطاردة الفرنسيين فى بيروت وينزل عليهم ضيفا فى عاصمتهم !

وكان رياض الصلح ، وهو بباريس يغتنم دوما المناسبات ليتعرف الى كبار السياسيين الفرنسيين ، وليخلق بينهم اصدقاء — ان لم يكن للقضية التي كان يشتغل لها — فعلى الاقل لنفسه ، ولشخصيته الفذة التي كان لها — بنظر الفرنسيين — ذلك الراسمال الاكبر للرجال السياسيين ، وهي الظرافة وفكاهة الكلام . فانما دوما فى فرنسا كان الرجل الظريف يشق طريقه ويسبق كل رجل اخر مهما كان عبقريا .

وكان رياض الصلح يتحلى بتلك الميزة ، مقرونة بالنباهة وجمال الطلعة والاعتماد على النفس .

ومرة ، بينما كان رياض الصلح منفيا — وبباريس كالعادة — وذلك لانه كان يعمل ضد الفرنسيين فى بيروت ودمشق وقد اقسم المفوض السامي

هنا ان يقطع راسه ـ كان حضرتـه يتـفق مع وزارة الخارجية الفرنسية لتقريب وجهات النظر بينها وبين الوطنيين التونسيين القائمين على الحماية الفرنسية يومذاك !

فهذا شيء وذاك شيء .

وكان اسم رياض الصلح اخذ يشع فى العالم العربي ، ويأخذ يوما عن اخر اتساعا اكبر واقوى .

***

وعندما عاد تلك المرة لبيروت ، اتخذ له مقرا ادارة تلك الجريدة ـ جريدة « العهد الجديد » ـ لصاحبها ذاك الذي كان ايضا مكتوبا له ان يصبح فجاة داهية من الدهاة اللبنانيين ، ورئيس وزارة من اقوى رؤســاء الوزارات الذين عرفناهم !

هو خير الدين الاحدب .

خير الدين الاحدب الذي كان فى جريدته « العهد الجديد » يشكـو من شيئين :

اولا ـ من التزاحم الذي قام بينه وبين رياض الصلح فى عالم السياسة وزعامة الاحياء واكتساب القبضايات ببيروت ، مع بقائهما صديقين حميمين . وكان رياض الصلح قد سبقه كثيرا فى هذا المضمار .

ثانيا ـ من الضائقة المالية التي كان دوما يشكو منها ، وذلك من وراء اسرافه وسخائه واشتغاله المستديم بالسياسة ، ودعوته للوحدة العربية ، التي كان يومذاك مع رياض الصلح ، ومع الرفيق الثالث صلاح عثمان بيهم يحملون لوائها ، ويزاحمون فيها جماعة مؤتمر الساحل المعروف الذي كان يتراسه الوجيه الكبير سليم علي سلام .

وكان المؤتمر مؤلفا من وجهاء بيروت للمسلمين الاصليين الذيــن اخذوا يهولون بمؤتمرهم على الفرنسيين ، ويقولون بضم طرابلس وجبل عامل ونصف البقاع لسوريا .

وهكذا كانت سياسة رياض الصلح ورفيقاه الاخران اوسع مــن سياسة مؤتمر الساحل بكثير .

كانت سياستهم عربية شاملة تقول بامبراطورية تبدأ من حدود طهران وتنتهي في عريش مصر .

***

ووجهاء بيروت المسلمون كانوا دوما ، وبنوع خاص ، يتأثرون من كل وجاهة او سيادة تدخل عليهم في بيروت وتقاسمهم النفوذ ، وليس من جبل لبنان فقط ، بل حتى من طرابلس او صيدا او غيرها من المدن الاسلامية اللبنانية .

فانما عندما جاء الصلحيون من صيدا لبيروت ، اقتطعوا لنفسهم وجاهة اخذت تزداد اتساعا وتوسعا يوما بعد يوم بازدياد عدد المتعلمين بينهم ، تساعدهم في السير الى الامام فطرتهم الذكيةالتي تفردوا بهاكمجموع وكانهم باجمعهم اتخذوا لهم السياسة مهنة وتوجيها ، فانصرفوا اليها يجدون فيها مجالا وسيعا للظهور ، في وقت كانت تمر فيه الاسر الاسلامية البيروتية مرور عدم الاكتراث بالامور العامة .

. . . وهكذا اخذوا في تحقيق الكثير من اطماعهم ومشاغباتهم — قلنا « ومشاغباتهم » ، اذ تتساوى عندهم الروح الوطنية مع الروح الثائرة التي لها نشاط غريب ولذةقوية في خلق المشاكل وفتح الابواب الخطرة . وعلى هذا النسق كان لا بد لهؤلاء الدخلاء الكبراء ان يزعجوا الاسر الوجيهة الاسلامية الكبرى ببيروت ، التي استمرت مدى عشرات السنين وحدها بالزعامة ، مما جعلها تأخذ في التذمر من طغيان آل الصلح ، وتشييدهم — هكذا و بسرعة — مكانة مرموقة في المدينة ، مما هو ولا شك افتئات على وجاهة وزعامة تلك الاسر ، ومما كان من شأنه ان يزيد التنافس الذي كان قد بدأ فعلا مع ظهور رياض الصلح في عالم السياسة سنة ١٩٢٠ ، عندما كان لا يزال في اوائل العمر شابا جميلا ، يتصور الناظرون اليه انه بالاكثر معد لان يشتغل في سبي الحسان ، او الظهور بطلا في الافلام ، اكثر مما هو معد ليشتغل في المشاكل السياسية والقضايا العامة .

وعلى هذا منذ ذلك الحين اي منذ ٢٥ سنة ، وهذا التنافس يزداد خصوصا والصلحيون ظلوا وما يزالون — حتى بعد مصرع زعيمهم الجميل رياض الصلح — لا يرتدعون ولا يرجعون خطوة الى الوراء ، ويقفون في

وسط الطريق ، يحاولون ـ وبعض الاحيان بنجاح ـ منع الماشين نحو الامام من الوصول !

وهكذا تبقى الاسر البيروتية الاصلية يزعجها طغيان الصلحيين عليها واذا لم تظهر ذلك كثيرا ، احتراما لنفسها ، فهي على الاقل بين بعضها البعض تشكو اغتصاب هؤلاء للوجاهة في السراي وفي المدينة .

وكانت هذه الاسر قد اخذت ـ من وراء هذا ـ تجد الافضل لها الاعتزال في بيوتها ، كيما لا تتلاقى كثيرا في الميدان العام مع هذه الجمهرة من ابناء الصلح ، الذين جاؤوا لبيروت بطبل وزمر وبعقول راجحة وثقافة ممتازة ومبادىء ثورية وطنية وروح مغامرة لا يخيفها شيء ، وجاؤوا خصوصا بالقضية العربية التي اقاموا انفسهم في لبنان حماة لها ، وحاولوا احتكار الجهاد فيها ، واستثمروها ـ ان لم يكن ماديا ـ فعلى الاقل سياسيا ووجاهة حتى النهاية .

وقد ارتفع ذات يوم صوت التذمر من طغيان الصلحيين في مجلس ظريف لبعض اهل السياسة ، بحضور الامير مجيد ارسلان ، وكان حضرته من المعجبين الدائمين بالصلحيين ـ وذلك بمناسبة اشتداد وطأة هؤلاء في بيروت بعد الاستقلال ، واشادة الهياكل لرياض الصلح وصحبه ، وتوجيه الصلحيين لانفسهم وتوجيه الشيخ بشاره الخوري لهم الى صدر المقام . وكان قد برز منهم في ميدان السياسة كذلك الامر جمهرة جديدة كان افرادها بالامس تلامذة صغار في المدارس ، وكان ايضا سامي بك الصلح قد ركب حصانه يوم راشيا ، ونزل فارسا صنديدا يفتح بالقوة البرلمان الذي كان الفرنسيون قد اقفلوه . وكان تقي الدين الصلح قد وجد الميدان الفسيح لملاعيبه ومشاغباته وطرائفه ومغامراته ، يحيط به الاخوان كاظم وعادل وعماد واعمامهم وابناء اعمامهم ، وباجمعهم جهابذة اقوياء ، مما هو عدد كبير ونادر في اسرة واحدة باجمعها تشتغل بالسياسة ، مما جعل ايضا الظرفاء يقولون هازلين : ان كل غريب يصل للبلد ويكون حسن الهندام ، براق العينين ، ظريف الكلام ، فشارا متلاعبا جريئا ومغامرا ، يجب ان يكون من ابناء الصلح !

وكان عطوفة الامير قد بلغ من حبه لآل الصلح واعجابه بهم درجة جعلته داعية كبرى لهم ، يمشي مع رياض حتى النهاية ، ويكون عند

مصرعه المفجوع الاكبر فى هذه البلاد ، حتى قيل وثبت ان الدموع التي ذرفها الامير مجيد ارسلان على رياض الصلح تساوي فى كميتها الدموع التي ذرفها باقي الناس عليه رحمه الله .

... وقال الامير بمناسبة الشكوى من الطغيان الصلحي على السياسة ببيروت :

ـ وماذا نعمل فى اصدقائنا كبار المدينة ، اذا كانوا يقبعون مع وجاهتهم ضمن بيوتهم حردانين ؟ وماذا نعمل اذا كان فرسان آل الصلح يرابطـون بالشوارع والمجلس والسراي ، يقطعون الطرقات بنباهتهم ونشاطهـم على باقي الناس ؟

- ١٧ -

عندما اكتشف الشيخ محمد عنزه خلده

ولكن ، على ذكر الامير مجيد ارسلان ، متى دخل الامير مجيد الى ميدان السياسة والراي ، وجاء الناس يرددون اقواله ؟

ان الامير مجيد ارسلان صورة لبنانية مدهشة فريدة فى بابها يجب ان تكون — كما كان يقول الجنرال سبيرز — صورة طبق الاصل عن الدروز الاولين الذين استوطنوا لبنان ، واستطاعوا بالتهويل والسيف والترس والشوارب العالية والاسماء المطنطنة والتكاتف المذهبي ، السيطرة على هذه الجبال ، التي كانت دوما عاصية .

وهل يجب ان نسبق مجرى هذا الكتاب ، ونقول اننا الان ، فى الزمن الذي وصلنا فيه فى سياق هذا الحديث ، اي فى الوقت الذي كان الشيخ محمد الجسر برئاسة المجلس النيابي قد وصل للاوج فى امجاده حول سنة ١٩٣٣ ويوم كان الدباس لا يزال رئيسا للجمهورية — هبط من جبل لبنان فتى يافع ، طويل القامة ، قوي البنية ، يكاد الشعر يخط شاربيه ، اللذين اشتهرا بعد ذلك كثيرا عندما اخذا يرتفعان الى الاعالي متحديين السماء وملائكتها — هبط هذا الفتى الصغير السن ، الكبير القلب ، الى بيروت فجأة فاكتسح ساحة البرج وجعلها ميدانا له يتمشى على مصاطبه ، ترافقه جمهرة من زمله : بضعة فتيان اشداء من بني معروف ، تقدح عيونهم شررا وتنظر شزرا ، تتسلى ايديهم بالتلاعب بقبضات مسدساتهم ، يسيرون على بضع خطوات من اميرهم ، والناس حولهم ينظرون اليه واليهم باستغراب ودهشة ، ، وقد اكتملت فيه هو جميع معالم البأس ، حتى ان بدانته الطبيعية كانت ايضا فى هذه البلاد مظهرا من مظاهر قوة البأس ، وشرطا من شروطها .

وكان يزيد فى جسامة جسده ، المسدسات العديدة التي اعتاد على حملها ، وله ذوق خاص بها ، يحاول دوما — فى الظاهر — ان يخفيها

عن الميان بوداعة ، وذلك تحت بزته الحسنة الهندام . ولكنه فى الوقت نفسه يعمل على استلفات نظر الناس اليها !

ويمكن القول أن الامير مجيد ارسلان يملك الان اجمل مجموعة مسدسات ، و « تومي غن » وخناجر وسيوف بين الافراد ، جاءت اكثرها هدايا من الاصدقاء والسياسيين اللبنانيين الذين يسوحون فى أوروبا واميركا وكل واحد منهم يرى من واجبه ان يعود بهدية للامير مجيد .. ولم يكن يحتار كثيرا فى اية هدية ينتقيها ، بل حالا كان يبتاع مسدسا او بندقية او اي سلاح ناري ، من طراز جديد ، مما يشكل اليوم اكبر « جبخانة » خصوصية فى هذه البلاد !

وهكذا نجد فى قصر الامير بعاليه وفى قصر خلده غرفة للسلاح ، جدرانها ترزح تحت اثقال البنادق والمسدسات المعلقة عليها .

***

وكثيرا ما كان الامير يظهر فى بيروت ـ تكملة للعدة الحربية التي كان يحملها ـ متجزما جزمة طويلة الساقين ، لماعة براقة دوما ، ومرتديا سروالا حرائريا وسيعا ، وعلى راسه الكبير كوفية وعقال مذهبان ، وهو لباس يليق به كفارس مغوار . ويقول دوما للذين يستغربون شواربه الناطحة للسموات ، وهذه الاسلحة المتعددة التي يتمنطق بها ، وهذه الاثواب المستغربة فى بلد زعماؤه ووجهاؤه متفرنجو اللباس ـ يقول دوما مشيرا الى هندامه المدهش الذي يشبه البسة عنتر والزير ، كما نراهما فى الرسوم الخنفشارية الشرقية المعلقة فى دكاكين الحكاواتية والحلاقين :

ـ بهذه الشوارب وهذه القيافة ،وهذا السلاح اخاطب الدروز بلغتهم،وفى اليوم الذي احلق فيه شواربي وارمي اسلحتي واحتذي بوطا افرنجيا قد افقد اعجابهم ، فلا يعودون يتبعونني للمعارك !

ولكن اية معارك ؟

وهل اتيح للامير معركة دموية ربما كان اتيح له ان يظهر بطولته فيها؟

لم نر الامير يخوض اية معارك، ما عدا تلك المعركة «الدونكوشية» ، فى تلك الصورة الزيتية المعروفة الكبيرة التي كان يعلقها بارتياح كامل ، على جدار قاعة الاستقبال فى مصيفة بعاليه . نشاهده فى تلك الصورة داخلا الى

المعركة ـ معركة مجهولة ـ يمتطي جوادا تقدح عيناه الشرر ، وقد وقف شعر عنقه مثل المسلات ، ورفع راسه حتى قارب الاجواء ، يمتطيه الامير غاضبا حردانا، متمنطقا بالسلاح من راسه حتى اخمص قدميه، وقد اعتلى شارباه حتى كادا يضيعان في الغيوم ، يتجاهل تلك السباع ـ بحجم البسينات ـ المتمرغة بين اقدام الجواد الابجر المخيف ، تظهر عليها دلائل الخوف العظيم ، وتنظر الى الامير مذعورة وهي ترتجف هلعا وخوفا !

وكان عدد كبير من الفتيان الاشاوس المعجبين بالامير يعلقون فيبيوتهم باكرام واجلال نسخا عن هذه الصورة .

ووصل خبرهافي ايام الاستقلال،عندما اصبح الامير بطل بشامون،الى الجنرال سبيرز وزير بريطانيا المفوض في بيروت، وكان له لذة خاصة بكل ما يعمله صديقه الامير ، فذهب خصيصا لمشاهدة الصورة واخذ عنها نسخا فوتوغرافية ارسلها لاصدقائهمن كبار السياسيين والقوادالعسكريين في انكلترا ، حيث لاقت ترحابا ظريفا جدا . وقيل يومئذ ان ملك الانكليز السابق نفسه رغب الى الجنرال سبيرز ان يهديه نسخة عن هذه الصورة التي لا بد ان تكون وجدت عند جلالته مرحا كبيرا ، وقد يكون علقها في قاعات التصاوير الشرقية المستغربة في قصر بوكنغهام !

***

كان المارون امام قهوة النجار في تلك الايام يتلاقون بالفارس المغوار الذي كان قد اتخذ مقرا (سنة ١٩٣٤) عاما هناك في جوار سراي البرج بعد اعلان ترشيحه للنيابة يترقب الاخبار ، ويجلس على ثلاث او اربع كراسي مرة واحدة ، عملا بتقاليدالقبضايات الكبار ، زعماء الشباب ببيروت!

اذ انه كان من مستلزمات الزعامة المسلحة في ذلك الزمان ان لا يجلس الزعيم على كرسي واحد !

فالكرسي الواحد مقعد العامة العاديين المسالمين الضعفاء ، ذوي الاقفية الهزيلة ، من الذين لا يحملون سلاحا ، خوفا من ان يجرحوا انفسهم !

كان الامير مجيد قبل البحث بترشيحه لا ياتي لبيروت ، ولم يكن يحيط نفسه هكذا بذاك الموكب البهج من الفتيان الاشاوس ، يمشون في ركابه ، ولم يكن قبل ذلك ايضا يعرض في المدينة ـ بهذه الضجة ـ فروسيته

الناس ، ويعرض معها شبابه الغض الحسان . ولكن اخذ يفعل ذلك للدعاية بعد اعلان ترشيحه للنيابة خلفا لعمه الامير فؤاد ارسلان ، الذي كان نائبا ممتازا بالمجلس ، وصاحب شخصية مرموقة فى الاوساط السياسية واخصها الاجنبية ، جعلت كلمته مسموعة ونفوذه السياسي ممتدا وقويا .

ويشاهد المارون كل يوم تمثال الامير فؤاد يقوم فى مفرق الطرقات على شاطىء خلده ، حيث يخيل الملاحظ انه يقود الناس نحو السبيل السوي .

وقد كانت حياته ايضا هكذا تتمشى على السبيل السوي ، وهو الذي جعل للفرع الارسلاني الذي ينتسب اليه المكانة المرموقة التي اخذها ، بعد ان كانت وجاهة الارسلانيين الكبرى تنحصر فى الفرع الاخر ، فرع الامير مصطفى .

وكان الامير فؤاد رجلا فنانا حلو الحديث كريم الشمائل له سمرة جذابة ، جعلته امير المجالس وحبيب الحسان ايضا .

وكان رجلا اجتماعيا من طراز اعلى ، له مكانته فى القصور والبيوتات الارستقراطية الكبرى ببيروت ، وعلى الاخص المسيحية منها ، حيث كان يحتل منزلة الصديق والفارس المنشود ، تتفتح امامه ليس فقط ابواب صالونات الاستقبالات ، بل ابواب خدور الجميلات .

وقد جعلته هذه الشروط والمزايا العالية اول سيد غير مسيحي يوفق فطريا ، وبدون خطة مقصودة ، بين النصارى والدروز ، ويجعل مجتمعاتهم متجانسة وحفلاتهم متوافقة ، وذلك فى الوقت الذي كان فيه النفور الطائفي على اشده من جراء خروج المسيحيين بعد انتداب الفرنسيين الى الميدان السياسي العام بطريقة وسيعة ، اخذ يعتقدها الدروز نوعا من التحدي .

وكان من الاسباب الاولية التي جعلت الامير فؤاد يجد عند ربات القصور تلك الخطوة المعروفة ، هي انه كان بين الاسياد اللبنانيين الاورستقراطي الاوحد الذي تحلى بميزات « الجنتلمن » وبذلك الاسمرار — كما قلنا اعلاه — غير المألوف الذي يجتذب بنوع خاص ناشدات الجديد والملاقات المستغربة ، وهن اللائي يجدن ارتياحا فى الخروج بمغامراتهن على كل التقاليد ويابين ان يعرفن للمغامرات العاطفية دينا ولا لونا !

وكان الشيخ محمد الجسر يصادق الامير فؤاد مصادقة قوية جدا ، جعلته بعد وفاته يفتش عن اقرب الناس اليه ، يعطيه مقعده في النيابة .

وحالا ذكر الشيخ محمد طبعا ، ان الامير فؤاد كان دوما يظهر عطفا خاصا من بين الامراء الارسلانيين على ابن اخيه الصغير الامير مجيد ، وكان يقول ويتكهن عنه — وهو يداعبه ويلاعبه — انه قد يصبح رجل المستقبل للارسلانيين ، لما كان يراه فيه من جراة وروحا فياضة .

وكان الامير فؤاد في المجلس النيابي صاحب كلمة عالية وقول جريء ، يحمل على المنتدبين حملات كبرى ، ولكن بالعبارات اللبقة المرنة ، ذات الصور الجميلة التي اتصف بها عقال ونبهاء الدروز في مناقشاتهم السياسية والاجتماعية .

وكان في المجلس عندما يهاجم الانتداب ، يرافق هجومه باعترافه لفرنسا برسالتها التمدنية والتحريرية في العالم ، ومع اعلاء شان ابطالها ، مما كان يدعو مندوب المفوض السامي للحيرة عندما يسمعه ، ويتساءل اذا كان من الواجب ان يعتب عليه لانه يلعن الانتداب ، او يشكره لانه يثني على فرنسا !

ولا ننسى يوم قام يؤكد بالمجلس ، وبطريقة فجائية حب اللبنانيين لفرنسا ، على ان تبقى ببلادها ، مما دعى يومذاك المسيو سالومياك مندوب المفوض السامي ، لاظهار امتعاضه بقوله :

— لا نريد منك ان تحب فرنسا لا هنا ولا هناك !

وانسحب المندوب من الجلسة ، وكانت يومئذ بداية الخصومة الشديدة التي قامت بين الامير صديق فرنسا وعدو الانتداب وبين المنتدبين ، وهي خصومة كان من المنتظر ان تسفر عنها نتائج كبيرة ، ولكنها ما كادت تتجلى حتى توفى الامير فؤاد فجاة .

وقيل يومذاك — عن خطا طبعا — في بعض الاندية المعادية لفرنسا والتي امتازت بسوء الظن بالفرنسيين وباختلاق اخبار السوء عنهم ، انهم هم الذين تدبروا للامير فؤاد حتفه ، وعملوا بطريقة خفية لموته ، وهو اتهام خنفشاري لم يعره احد انتباهه حتى ولا الامراء انفسهم .

وطبعا ، كان الذين اذاعوا تلك الشائعة ، يريدون باية طريقة كانت

ان يسودوا صحيفة الفرنسيين ويصورونهم مغتالين مجرمين ويثيروا حفيظة اصدقائهم الدروز عليهم ، فى حين ان من واجبنا دوما الاعتراف ان الفرنسيين خلال سنوات انتدابهم على هذه البلاد كانوا يخطئون كثيرا ، وكانوا يظهرون سذاجات عديدة ويبالغون جدا فى المتاجرات والاستثمارات ولكننا لم نسجل لهم ولا مرة مثل هذا العمل الذي نسبه بعضهم اليهم ، فى وفاة الامير فؤاد ارسلان .

وعندما مات رحمه الله ، وقامت البلاد تمشي فى موكبه الاخير ، لاحظ الملاحظون انه ـ وهو مسجى فى تابوته ـ كان ايضا يجر وراءه جمهرة عديدة من غادات بيروت المعروفات حزانى حيارى !

ولم يكن الامير فؤاد رودولف فالنتينو ، ولكنه كان لبقا وحلو اللسان كثير الادب والظرف ، وكان من الجبل ، درزيا واميرا ، مما كان شيئا مستحليا مرغوبا بنظر طالبات الجديد . وكان هذا كله يجتذبهن ويزيدهن اعجابا بالرجل وهو فى قيد الحياة ، وقد زادهن دموعا عليه يوم وفاته .

***

وكما قلنا لم تكن قد اكتملت حينئذ بشيخ الشباب الامير مجيد السن القانونية (الخامسة والعشرين) التي ينص عنها القانون كشرط للنيابة .

وكان لقب شيخ الشباب هذا ، اول لقب من الالقاب العديدة التي حملها الامير مجيد . ومنها بعد ذلك تلك التي اطلقناها عليه فى المناسبات المؤاتية ، فصار الناس يعرفونه مثلا بلقب القائد العام لثورة الباروك ـ بمناسبة الثورة التي اعلنها بعد سنوات من ذلك ، على حكومة خير الدين الاحدب ، مما سنأتي على تفاصيله فى وقته ، وكان الرجل الرابع زعيمها السياسي .

ومن تلك الالقاب ايضا التي لبست الامير ، لقب عنتر خلده . وخلدة هي « البلاج » الجميل الفتان الذي يملكه الامير مجيد على شاطىء بحر الروم ، ويقوم على جانبه الان المطار الدولي العظيم المعروف باسم مطار خلدة ، وقد ابتنى الامير مؤخرا هناك ـ على يد المهندس الانيق نديم مجدلاني ـ قصره العربي الجميل الذي يتراءى من بعيد

كانه احد قصور الف ليلة وليلة ، وهو صورة عن قصر بيت الدين التاريخي ، ولكن افضل واجمل !

***

وادخل الشيخ محمد الامير مجيد ارسلان للمجلس بالتزوير . ليس بتزوير الاصوات ، مما كان له سوق كبيرة ، ومما اخذت ظواهره تلوح حتى في ذلك الوقت ، بل بتزوير السن وزيادة عمر الامير اربع او خمس سنوات ، حتى يصبح ٢٥ سنة !

- ١٨ -

الامير مجيد وقصر المختارة

لم يكن التزوير فى ذلك الوقت شيئا جديدا فى السرايات والمجالس والمعاملات العامة والخاصة ، فانما التزوير قديم مثل الخبز ، فى بلاد زورت دوما على مختلف العصور ، حتى انها بدات فى التزوير على السماء قبل ان اخذت تزور على الناس ، وذلك فى مختلف الديانات الكاذبة التي خلقتها قبل ديانات التوحيد ، والتي كان كهانها يزورون لها العجائب كيما يؤمن الناس بها ، وعلى شرط ان عباد تلك الالهة كانوا يعرفون بتزويرها ويسكتون عنها ـ كما سكتنا عن التزويرات المتواصلة التي عملناها دوما وتجاهلنا ما فيها من عار وعيب ، مما دعا لانتشار التزوير فى النهاية وامتداده الى جميع المرافق والحياة السياسية والاجتماعية باجمعها !

ولهذا السبب ، عندما تكاتفت الجمهورية اللبنانية الثانية باجمعها للتزوير فى عمر الامير مجيد ، لم يجد الحكماء والعارفون شيئا جديدا بالامر حتى انهم ما استغربوا ولا شك الشكوى من كل تزوير قام بعد ذلك وفى كل وقت ، حتى فى هذا الوقت الذي عملنا فيه انقلابا على التزوير ، فاي شيء فى العالم ليس فيه تزوير حتى فى الامور المجردة النزيهة ؟

ويتراءى اننا نحن فى لبنان ، نريد ان نجعل للتزوير طابعا فى كل الاشياء كيما لا يقال انه جرى شيء عندنا كامل الاوصاف والمزايا !

وكان الامير مجيد قبل ذلك ، رغما عن انشغاله الدائم باسلحته من مسدسات وخناجر وقنابل ومترآليوزات ، ومن تخصيص ساعات عديدة من أوقاته لاستماع سير ابطال الاساطير ، ورغم انشغاله فى تدريب أكثر التلامذة رفاقه فى مدرسة الفرير على الاعمال الحربية وتوزيعهم فرقا تهاجم بعضها بعضا ، كما كان يفعله مثلا نابوليون عندما كان يتمرن على الفن العسكري فى مدرسة بريين ـ رغم كل هذا كان الامير قد تعلم ايضا فى تلك المدرسة قسطا من الكتابة والقراءة وكان بالمناسبة سباقا بالعربي

ولم يكن دوما ناجحا بالفرنساوي ، بالعكس عما جرى له بعد ذلك عندما كبر بالعمر . . .

اجل لم يكن الامير نابغة فى صفوفه ، ولكنه كان نابغة فى خلق المشاكل بالمدرسة وبين التلامذة . وكان عنده تلك الميزة التي تختص السماء بها بعض التلامذة الذين يحفظون القراءة والكتابة ، دون ان يفتحوا الكتاب كثيرا ، ودون ان يكتبوا على الورق كثيرا . . .

وكما قلنا اعلاه ، تلقى الناس باجمعهم خبر تكبير عمر الامير ليصح ان يكون نائبا ، بكل هدوء ولم يقم احد يحتج على هذا التزوير ، وهي حكاية لم تشكل جرما كبيرا حتى فى ذلك الوقت مما يدل على ان وجدان ذلك الزمان عند السياسيين لم يكن ضيقا قدر ما صار اليوم بعد الانقلاب فى لبنان . مما فيه متاجرة جديدة لمدعي التجرد والنزاهة !

وكان الفرنسيون طبعا راضين عن تدبيرات الشيخ محمد الجسر ، اذ انهم لم يكونوا قد نسوا ـ على قصر الوقت ـ ان الامير توفيق ارسلان والد الامير مجيد وقف فى تأييده للفرنسيين فى صدر الاحتلال بوجه الامراء الباقين الذين كانوا يوالون الشريف ويعملون بسياسته. وسجل الامير توفيق مناصرته للفرنسيين فى الصف الاول ، مما جعلهم عندما جاءت الفرصة لا يجدون حيفا فى اعطاء نجله خمس سنوات زيادة على عمره كيما يصير نائبا !

وكان الامير مجيد يومئذ كبيرا بعقله وبجسمه ، مما جعل الناس لا يتميزون انه يوم جاء نائبا كان قاصرا ، لم يبلغ سن الرشد بعد !

وكان الفرنسيون بهذه المناسبة ايضا يتابعون سياسة المتصرفين فى جبل لبنان فى عهد الاتراك ، الذين كانوا يقيمون دوما شبه توازن بين الاسرتين الدرزيتين المتزعمتين : الامراء الارسلانيين والمشايخ الجنبلاطيين : فلا يوجهون الواحدة على الاخرى كثيرا ، حتى لا يجعلون التنافس على الزعامة بين الاسرتين المتزاحمتين يدخل فى طور العنف والتقاتل .

وهذه السياسة الحكيمة نجحت ـ الى حد ما ـ مع الفرنسيين فى اوائل عهدهم ، كما نجحت مع الاتراك قبلهم ، ولكن عهد الاستقلال بعد نهاية الانتداب لم يرعاها تماما ، وهذا ما جعل ـ كما سيراه القراء فى سياق

هذا الحديث ـ المختاره تقوم وتشترك ذاك الاشتراك الفعال على الجمهورية الرابعة ـ جمهورية بشاره الخوري ـ فى الانقلاب الاخير الذي اطاح برجل الاستقلال من رئاسة الجمهورية ، بطريقة فجائية لم يكن احد ينتظرها .

***

وكل التفات يرعى الامير مجيد فى عهد الانتداب وبعده ، يجب من الطبيعي ان يزعج قصر المختاره ، ولكن الست سيدة المختارة يومئـذ ، المسالمة الفهيمة ، التي درست اصول السياسة على الاتراك ، فكانـت تداري ـ حتى فى اشد الاوقات حراجة ـ جانب الانتداب وتأخذه هكـذا بطرقها المرنة اللبقة احيانا كثيرة الى جانبها ، كانت فى كبرها وفى احترامها لنفسها لا تظهر امام الناس انزعاجها مطلقا من رعاية الفرنسيين فى بعض المناسبات للامراء الارسلانيين خصوم المختاره ،الدائمين ، لهذا رآها الناس لا تظهر اقل امتعاض من موافقة الفرنسيين على تبديل امير ارسلاني فى المجلس بابن اخيه ، ولو لزم لذلك تكبير عمر هذا الاخير .

وهو هذا التوازن الذي اهمل الرجل الرابع الشيخ بشاره الخوري متابعته او بعثه عن جديد . ولربما فعل الشيء مرغما ، بعد ان صار رئيس جمهورية الاستقلال .

او انه لربما لم ير من قصر المختارة ـ رغم سياسة الست المرنـة المتوددة معه ـ ما كان يجعله يعيد ذلك التوازن ، ويقف عن تكبير الامير مجيد وتوجيهه فى وجه قصر المختارة .

ولربما ايضا لان الشيخ بشاره الخوري ـ يذكرفىالمناسبة ان الامير مجيد رافقه دوما وفى الضراء اكثر من السراء ، ومشى بجانبه منذ الساعة الاولى فى حياته السياسية . وكان العنصر الدرزي القوي الذي لا بد منه لكل حزب سياسي بلبنان يريد ان يكون مكتمل العوامل والحظ فى النجاح وكذلك لمواقف الامير مجيد فى الرجولة ومجابهته الاخطار التي كانت تواجه بشاره الخوري فى عراكه السياسي الدائم ، ومن هذه المواقف موقـف بشامون ، وهو موقف سينمائي فريد فى بابه ، سنأتي على ذكر ما ترتب عليه من نتائج طيبة للاستقلال ، مع ان الامير ببشامون لم يفقس بارودة ، ولم يقتل احدا ، ومع ان حرب بشامون باجمعها كانت معنوية من نوع حرب النظارات ، فخلق لها الامير بمراجله وحبيب ابو شهلا بحيله ومنـاوراته اسطورة جميلة اضحكت العالم واعجبته واطربته كثيرا .

- ١٩ -

الست نظيره ، سيدة القصر : قصر المختارة

كانت المختاره منذ نشأتها حتى آخر ايام الست تتمشى على سياسة تقليدية لا تتبدل ، تقضي دوما فى العمل للتقرب من الحكام واكتساب صداقاتهم وعدم الاصطدام بهم مباشرة ، اعتبارا ان الشيء الذيلا تأخذه باللطف وحسن الكلام ، لا تستطيع اخذه بالزجر والقوة . وهي سياسة جميلة تتفق مع ما ازدان به الدروز من ادب خالص ومجاملات ولباقات ورثتها آلست ومشت عليها حتى آخر ايامها .

وحتى فى أشد الازمات التي كانت بين نجلها الثائر الدائم الشاب زعيم الحزب التقدمي الاشتراكي اليوم ، والذي كان قد اخذ على نفسه منذ الساعة الاولى التي خرج منها الى العالم السياسي ، مناواة الحكام ، ومعارضة الدولة ، فكانت الست قبل وفاتها فى كل مرة تشتد فيها معارضة نجلها للدولة تزداد توددا وتقربا من السلطات ، لتخفف كثيرا من الازمات التي تكون قد قامت .

وجدير القول هنا ، ولو كانت المناسبة لم تات بعد ــ أن الشيخ بشاره الخور ي، الذي لم يكن فى ذلك الوقت قد احتل المقام المرموق فى عالم السياسة ، يوم مصرع فؤاد بك جنبلاط شيخ المختاره الذي اغتاله الجناة بطريقة مفاجاة ــ جدير القول أن الشيخ بشاره الخوري اعتبر منذ الصغر ان من واجبه وواجب اشقائه مشايخ آلْ الخوري الوقوف بالاحرى دوما بجانب الامراء الارسلانيين . وقد كانوا منذ الزمن القديم على تحالف معهم ، ينتسبون واياهم الى الحزب اليزبكي ، والارسلانيون من زعمائه الاولين .

وهناك ، فضلا عن ذلك ، دين حدث ظل دوما بشاره الخوري يذكره بالخير ويريد تسديده بكل الحسنات ، وهو يشكل عنده ذكرى عزيزة جدا على قلبه ، تقول ان مشائخ آل الخوري مديونون بحياة والدهم الى الارسلانيون . وكان ذلك فى بداية الحرب الكونية الاولى عندنا ابعد جمال

باشا خليل بك الخوري ، والد الشيخ بشاره عن لبنان ، معتزما التخلص منه فى منفاه . وكان الشيخ خليل الخوري قد وصل فى رحلته للمنفى الى منتصف الطريق ، عندما تصدى الامير شكيب ارسلان لجمال باشا ـ وكان له عنده حظوة كبرى ـ واستطاع انقـاذ الشيخ خليل الخوري من الابعاد الذي كان سينتهي حتما باعدامه ، كما كان الشيء معروفا .

وحفظ انجال خليل بك الخوري هذا المعروف للامير شكيب فى قرارة نفوسهم . وقد نكون رأيناهم لهذا السبب هبوا للتعاون مع الشيخ محمد الجسر فى مساعدة الامير مجيد يأتي نائبا للشوف بدلا عن عمه المتوفى ـ كما ورد أعلاه ـ حافظين الجميل اولا ، ومحافظين ثانيا على تقاليدهم الحزبية مع الامراء .

وهذا باجمعه كانت المختاره فى ايام الست ـ لربما ـ تمتعض منه ، ولكنها لا تجعل الشيء يظهر مطلقا ، لا بل بالعكس تظهر ارتياحها له .

اذ انها فى رصانتها واحتفاظها بسكونها وهدوئها ، لم تكن تدع مجالا لاحد ينسب اليها وللمختاره الحسد والغضب . حتى انها كانت تذهب الى اكثر من الارتياح ، وتحاول ان تظهر امام الامير مجيد بمظهر الام التي تحتضن ولدا محبوبا وتتظاهر ـ ولربما ـ تعمل بالحقيقة لمساعدته .

ويمكننا بالمناسبة ان نذهب الى اكثر من ذلك ، ونردد هنا قولا كانت الست قد أسرته لنا فى زمن مضى ، وهو انها كانت تسعى دوما عنـد اصدقائها الفرنسيين ـ الذين كانت حملات الاميرين شكيب وعادل عليهم تزعجهم ـ لاعطاء الامراء حصتهم كحصة الجنبلاطيين فى السراي والمجلس اعتبارا انها هكذا تحفظ التوازن ولا تجعل الارسلانيين يمتعضون ويخلقون المشاكل والمشاجرات بين الدروز .

وقبل ان يأخذ الامير مجيد النيابة ، لم يكن مضى وقت طويل على مصرع سيد المختاره الشيخ فؤاد جنبلاط وهو مصرع سجل بلبنان فى ذلك الحين اول اغتيال سياسي فى بلاد كانت فيها الخصومات السياسية تبلغ عنفا كبيرا ، ولكنها خصومات قليلا ما كانت تصل الى حد الاغتيالات .

وظهرت الست بعد مقتل زوجها فجأة وبطريقة غير منتظرة ، تحمل لواء المختارة ، وتخرج لميدان السياسة علنا ، بعد ان كانت قبل ذلك تتدبر سياسة المختاره من وراء ستائر خدرها ، وبتكتم واعتزال كاملين ، مما

كان يجعل معظم اهل البلاد لا يعرفون عن قوة شخصيتها ومقدرتها غير الشيء القليل .

ظهرت فجأة ، وحملت سيف النقمة ضد الذين اغتالوا زوجها ، وخرجت . وفى خروجها من خِدْرها خرجت هكذا على التقاليد التي كانت تقضي بتحجبها ، ولكنها احاطت عملها هذا بالشيء الكثير من النبالة والكبر والجراة الجميلة التي يحبها الدروز كثيرا ، مما جعل الناس - حتى اشد رجال المذهب الدرزي تمسكا بالتقاليد - يجدون فى ظهورها كرامة واعتزازا لا عصيانا وتحررا ، غير متجنين على العادات والحياة الدرزية .

قامت الست تحافظ على تراث الامجاد للجنبلاطيين، لتعطيه بدورها الى نجلها كمال بك جنبلاط ، الذي كان قد اخذ ايضا بعد وفاة والده ، وبالرغم عن حداثة سنه، يظهر بكل مناسبة خوفه على عز المختاره وزعامتها الكبيرة من بعد مصرع سيدها ، ومن كل شيء فيه توجيه للامراءالارسلانيين وهو توجيه كان الجنبلاطيون يريدون دوما مثله للمختاره ، حتى ان بعضهم كان يريده للمختارة باجمعها ، ويلومون الست بعد ان ماشت الفرنسيين وصار لها تلك المكانة الكبرى عندهم - لانها لم تعمل معهم لتخصيص المختاره بميزات لا يكون للارسلانيين مثلها .

وكانت الستتقول انها بحاجة للخروج من خِدرها ، حتى تتولى الزعامة السياسية للجنبلاطيين ، لبينما يكبر ابنها فتسلمه الامانة كاملة قوية .

وقد كان يومئذ حكمت بك جنبلاط ابن اخ الزعيم الصريع وزوج ابنته ، لم يشترك بعد بالحياة السياسية التي امتاز بها بعد ذلك ، ولكن لمدة قليلة ، لانه لم يعش طويلا . وكان قد اعتنق فى حياته السياسيةالقصيرة خطة الست المسالمة ، وهي الخطة التي قادته اخيرا ، وقبل وفاته المفاجئة لان يمد يدا صريحة جلية مخلصة للارسلانيين ويتعاون معهم ويشاركهم ويشاركوه فى سياستهم العامة - مما كان فتحا جديداً فى سلسلةالخصومات المتواصلة التي قامت فى خلال القرنين السابقين بين الاسرتين الزعيمتين للدروز .

ولا شك ان سياسة الست مع الفرنسيين كانت قد بلغت فى ذلك الحين شأوا كبيرا واوجا عاليا ، اذ ان المنتدبين كانوا قد وجدوا من المختاره

تعاونا صادقا ، فاخذوا يرفعون من شأنها ويزيدون من نفوذها مما جعلها تفرض ارادتها على القرى التابعة لاقطاعيتها ، وهي ارادة توجهت بالاكثر نحو الخير والاخلاص للبنان ولفرنسا ـ ومع ذلك الفارق عن المشائخ الجنبلاطيين السابقين بان الست كانت تفرض ارادتها بطريقة صديقة ودية ، لدرجة خلقت تقربا حبيا بين الجانبين ، مما جعل الاهالي يعتبرون ان الست زعيمة صديقة محبة لهم ، لا اميرة مطلقة عليهم . وكان هذا ايضا من الاسباب التي حدت للاغتفار لها تركها تقاليد التحجب والاشتغال بالامور العامة التي هي من شأن الرجال . وللدروز على مدى الدهور اعجاب بالشجاعة عن اية طريق اتت ، ووجدوا الشجاعة مجسمة في تلك السيدة وسموها اخت الرجال ، ورفعوا شأنها اكثر واكثر واحبوها ، وسلموها القيادة ، مما كان خارجا عن عاداتهم . ولكنهم كانوا قد توسموا فيها اخلاصا وكرامة ، جعلتهم يجدون كل ما تعمله حسنا وفاضلا .

ولم يكن احد من الذين عرفوا الست في حياة زوجها خجولة حيية جميلة وديعة ، تعيش منفردة مبتعدة وراء جدران قصر المختاره ـ وهو اشبه بالاكثر بقلعة متهدمة ، مبعثرة الابراج ، مختلفة الطراز ، منه بقصر منتظم يشبه باقي القصور ـ لم يكن احد يفترض في ذلك الحين ان الست ستكون مدعوة لان تلعب دورا كبيرا ، ولان تتمتع في حياتها بسلطان سياسي لم يصل اليه احد من المشائخ الجنبلاطيين قبلها مع كل عظمتهم وتراثهم وامجادهم .

كان الناس يسمونها الست ، واطلق الافرنسيون عليها لقب « سيدة القصر في لبنان » . وكانوا في تقاريرهم لوزارة الخارجية يلقبونها هكذا ، وهذا اللقب هو غير الذي اعطاه الكاتب الفرنسي بيير بينوا لروايته المعروفة بذلك الاسم . وهي الرواية التي بطلتها حسناء لبنانية مسيحية ، جعلت قصرها مسرحا لمغامرات سياسية وغرامية وعينا ساهرة لخدمة لندن في لبنان ، وقد ابتدع الكاتب الفرنسي هذه الحكاية وجعلها صاخبة فضاحة ، وجاء فيها على معلومات ووقائع معينة جعلت كل حسناء لبنانية ابنة بيت معروف كبير ، ولها اية علاقة مع الاوساط البريطانية ، تخشى ان يفترض قراء رواية بيير بنوا انها هي بطلة تلك الرواية . ذلك ان الرواية غائصة في بحور الحب والليالي الرومانية والمشاغبات الحزبية والجاسوسية السياسية .

وبطبيعة الحال وعلى المنوال الذي تكلمنا عنه ، اصبح قصر المختارة

فى عهد الست ملتقى كبار رجال السياسة المحليين والاجانب ، وفى مقدمتهم الصحافيون الاميركان والانكليز والفرنسيون الذين اخذوا يفدون على هذه البلاد بكثرة ، ويجدون ان الذي يزور لبنان ، ولا يزور بكركي والمختاره يكون مثل الذي يذهب لروما ولا يزور البابا .

وكان الصحافيون الاجانب يجدون انفسهم امام سيدة حسناء كاملة الرصانة والحكمة ، ذات لغة عذبة وابتسامة لطيفة ، ونظرات وديعة هادئة ، لا تنم مطلقا عن النباهة التي ورائها ، وكتب مراسل جريدة « شيكاغو تربيون » بعد زيارته للمختاره فى ذلك الحين : « كان ولا شك من المؤسف لو كانت سيدة كبيرة ذات نباهة وحديث جميل ـ كهذه السيدة ـ تحتجب وراء جدران هذه القلعة الحربية ، فلا يسمع الناس كلامها الظريف ويشاهدون جمالها الوقور الذي يوحي التجلة والتقدير . »

وكانت الست نظيرة فى كل اعمالها تجعل الناس يشعرون ويفهمون انها تتابع حرفا حرفا الرسالة التي حملتها عندما خرجت للميدان السياسي مما جعل المختاره تبقى ولا تموت .

تبقى زعيمة كبرى فى جبل لبنان ، تحافظ على امجاد الجنبلاطيين الذين ظلوا مئات السنين من اركان فى هذا الجيل .

***

يتساءل الغريب الذي يطلع على سياسة لبنان كيف ان الدروز ، لهم فيه هذه المكانة القوية ، مع انهم يؤلفون اقلية مطلقة بالنسبة للطائفتين الكبيرتين المارونية والمسلمة .

والجواب على ذلك ليس فيه تردد ولا ابهام .

ولو كان فيه ما يمس بادعاء غير الدروز للبطولة والشجاعة .

والجواب ان الدروز رجال سيف وحربجية ، وعندهم تتجلى روح المغامرات والمخاطرة ، كأنهم لا يخافون الموت .

وقد يعود ذلك لربما لاعتقادهم بالتقمص لحياة اخرى افضل واحسن .

على كل حال هذه الشجاعة التي عندهم ، وهذا السيف الذي يحملونه دائما ، جعل الطوائف المسالمة الاخرى تحسب لهم حسابا كبيرا يعطيهم اكثر الاحيان فى الامور العامة حصة الاسد ، وهي حصة مضاعفة بالنسبة للحصة التي تأخذها طوائف الاقلية المشابهة للطائفة الدرزية بعددها .

- ٢٠ -

الست تنقل الثورة من لبنان الى سوريا

كانت المفوضية السامية قد دعتني يوم قيام الثورة بسوريا على الفرنسيين سنة ١٩٢٥ ، وهي الثورة التي بدأ بها دروز حوران ، واشترك فيها بعد ذلك بطريقة جزئية دروز جبل لبنان ـ دعتني المفوضية السامية التي كانت ولا شك تقدر في بعض المزايا السياسية ـ للذهاب للمختاره اكون بينها وبين الفرنسيين صلة اتصال ، وذلك فى مناسبة الهياج القائم عند الدروز يومئذ .

وكانت الست طبعا تلعب دور السلام بين القرى المهتاجة فى جبل لبنان ، التي كانت تستعد لمشاركة السوريين فى ثورتهم ، وبين المفوضية السامية ، وتعمل على تهدئة الخواطر واقناع الفرنسيين بقبول الشيء الكثير من مطالب الثوار العامة .

كما وانها كانت من جانب أخر تخفف من الدعوة للثورة فى القرى الدرزية اللبنانية ، وتطلب منها الكف عن حرب العصابات التي كانت قد بدات بها هنا وهناك ضمن الاراضي اللبنانية . وهي عصابات كان فتيان الشوف قد شكلوها كثيرة متعددة ، وكانت بدات تعبث بالامن وتعمل على عرقلة اعمال السلطات العسكرية .

وكانت الست فى نباهتها لا تردع هذه العصابات عن مهاجمة الفرنسيين ـ خوفا من اتهامها بالتعاون مع فرنسا ضد أبناء طائفتها ـ بل تطلب من تلك العصابات الذهاب الى جبل الدروز وغوطة دمشق حيث تشترك مع الثوار السوريين ودروز حوران فى القتال الذي كانت رحاه تدور بشدة ، بدلا من ان تعرض لبنان لمجزرة طائفية اذا احتكت هذه العصابات بالقرى المسيحية مما يجعلها بدون شك تصطدم بالموارنة فتقع الكارثة التي ما زال اللبنانيون العقلاء يخافونها ويعملون على استدراكها وتلافيها منذ مذابح الدروز والنصارى سنة ١٨٦٠ .

وساعد تدخل الست هذا كثيراً على تخفيف شر العصابات ضمن لبنان ، وعلى تحويل هذه العصابات للحرب في سوريا فقط ، وهو شيء خدمت به حضرتها الامان والسكون بلبنان كثيرا مما كان له تقدير كبير عند الفرنسيين الذين رفعوها يومئذ الى المرتبة العليا واعتبروها صديقة فرنسا الكبرى وانشأوا في قصر المختارة مخفرا يكون في خدمتها ، وبعثوا لها بضابط كبير يحكم الشوف عسكريا، ويمشي بآرائها وحسب مشورتها.

***

وهكذا قصر المختاره ـ كما جاء بعد ذلك في مقال لصديقي الكاتب الاميركي هارولد كابلين في مجلة « البارتزان ريفيو » عن رحلته الاستكشافية للبنان سنة ١٩٤٨ ، اذ قال : « وهكذا قصر المختاره ، الذي كان في عهد الاتراك حصن النفوذ الانكليزي بلبنان من جراء انتساب الدزور في ذلك الوقت الى انكلترا مقابل انتساب الموارنة لفرنسا والارثوذكس لروسيا . . » اذ ان في هذا ايضا من الواجب ايضا ان تنطبق القاعدة اللبنانية السياسية الارتجالية الدائمة التي تجعل الماروني يكون انكليزيا اذا كان الدرزي افرنسيا وهذا ما كان يجعل لكل قنصلية من قنصليات هذه الدول الثلاث الكبرى مرجعا سياسيا لكل طائفة من الطوائف المذكورة .

قال هارولد كابلين : وهكذا راينا قصر المختارة الذي كان قبل الانتداب الفرنساوي بيت انكلترا في الشرق، يصبح بيت فرنسا، مما يدل على ان الدروز ـ تمشيا على سياستهم التقليدية منذ القدم ـ يمشون للامام بسيوف مرهفة وقلوب مغامرة ، بعد ان يضمنوا دوما دولة كبرى ورائهم تحمي ظهورهم . لذلك بعد ان تخلت انكلترا عن حمايتهم بقبولها مختارة او مكرهة الانتداب الفرنساوي ، فانهم كانوا ولا شك يلومون انفسهم ويزدرون بنباهتهم ، اذا كانوا تركوا للموارنة وحدهم استثمار وجود الفرنسيين في لبنان منتدبين وحكاما . ولهذا السبب خصوصا ، وتمشيا على هذه القاعدة ، نال الدروز من الفرنسيين حصة الاسد ، وتربعوا في ايامهم بعز ما عرفوه الا منذ مائتي سنة عندما كان جبل لبنان ملقب باسمهم : جبل الدروز ! »

انما الدروز في التسوية السكوتة غير المقصودة التي عملوها مع فرنسا عن طريق المختاره يومذاك ، وخصوصا بعد ثورتهم عليها في سوريا ، جعلوا

فرنسا تحسب لهم دوما الحساب الاكبر وتقف بجانبهم وتغدق عليهم النعم .

ثم أمنت جانبهم بعد ذلك لدرجة جعلتها تعتبرهم حصنها الحصين فى انتدابها فى لبنان .

ولكن لماذا يجرنا الحديث الى مدى أوسع من المدى الذي نريد ان لا نتعداه فى مباحث هذا الكتاب ؟

انما علينا ان نقول كيف أن الدروز – وفى مقدمتهم قصر المختارة – تحالفوا مع الفرنسيين فى ذلك الحين ،قدر واكثر مما كان الموارنة تحالفوا معهم ، بوصفهم زبائن فرنسا الاصليين فى هذا الشرق ، وهكذا اثبتت سياسة الست – يعاونها فى ذلك بعض الامراء الارسلانيين والحكماء من الدروز ، ان شان الاقلية فى لبنان يمكن ان يصبح لها عند الفرنسيين شان الاكثرية واكثر .

وكان الكونت دي جوفنيل المفوض السامي قبل نهاية الثورة هو الذي اكتشف قبل اللبنانيين انفسهم عبقرية الست السياسية ، عندما رآها تخرج من خدرها بجراة غريبة وتستلم زعامة المختارة .

وكان فى ثقته وايمانه بها انه انتقاها من بين جميع كبار الرجال الذين كانوا يعرضون انفسهم للخدمة ، لتكون وسيطة بينه وبين الثوار ، عندما راى انه يهادنهم ويكف شرهم عن الافرنسيين .

وكان قد فعل ذلك متراجعا ، اذ ان دي جوفنيل تراجع كثيرا كما هو شان الفرنسيين دوما ، الذين لم تستطع الحروب ولا الاجيال أن تغير طبيعتهم المتقلبة ، وتجعل لهم شانا وتتبعا فى القول والراي .

فانما دي جوفنيل هو الذي اعلن اول ما وطأت قدماه رصيف ميناء بيروت سنة ١٩٢٦ ، ليخلف الجنرال ساراي ، قوله المعروف ، الذي ظللنا نردده من بعده كثيرا بمثابة محط الكلام ، عندما وقف على شرفة سراي البرج وخطب متوعدا ومنذرا الثوار يقول :

– الحرب لمن يريد الحرب ، والسلم لمن يريد السلم !

الصحافة تدخل السياسة والسراي

كان الكونت دي جوفنيل سياسيا مدعيا لاهيا ، وصحفيا ممتازا، يهتم بالاكثر لمجالس المجون والظرافة ، ولمغازلة الحسان اللواتي يأخذن بالاحرى القسم الكبير من وقته !

وكان مداعبا كبيرا ، متلاعبا فى الحديث ، فكه اللسان فائشا جـدا لدرجة يفشي معها بكل سهولة وبدون اكتراث أسرار مفوضيته ويعرض فضائحها على الطرقات ، وخصوصا فى جريدة « الاوريان » التي كان قد اولاها كل عطفه ، واختار صاحبيها النقاش والخباز صديقين له يجد فيهما ـ كما كان يقول ـ لطفا وظرفا ، مقرونين بالجشع وحب الكسب ،واستسلم بكليته تقريبا لهما وجعلهما مستشاريه فى الامور العامة والخاصة .

وطبعا كانت استشارتهما تكلف صندوق المفوضية كثيرا لانهما كانا يومئذ اغلى صحافيين فى هذه البلاد ، مما جعل كلامهما دوما من ذهب .

وبالمناسبة يجب القول انهما بين الصحافيين كان عندهما تلك الميزة التي يعتبرها بعضهم نقيصة ، وهي ميزة عرفها الناس فينا كثيرا . انهما لم يكونا مثل الحسناء المتراوغة الكاذبة التي تصلي بالنهار امـام الناس ، وتخطىء مع عشاقها لوحدها بالليل !

نقول هكذا ، لاننا نتمثل الصحافة ليس عندنا فقط ، بل فى العـالم اجمع ، بضاعة للبيع . ولكنها فى بلاد صغيرة مثل بلادنا ـ عندما تبيع نفسها لهذا ولذاك ، فهي مهما تكتمت وفتشت عن السترة ، لا بد فى النهـاية ان تنفضح !

وصاحبا « الاوريان » المستشاران الغاويان ، استطاعا بعض الزمن ان يقودا دي جوفنيل بقرنيه نحو السياسة المسيحية المحضة ، فيتمشى عليها بالبداية ، حتى اليوم الذي أزعجت فيه المسلمين والدروز كثيرا .

وطال الامر هكذا ، ودي جوفنيل ، يدير اذنيه لذينك الصحافيين الهازلين ، مما كان يزيد من ضغائن المحمديين نحو الافرنسيين ، حتى اتيح لنا التقرب منه اخيرا ، وجعله يسمع لنا ، وعندئذ اخذ يلجأ الى سياسة التقرب من المسلمين ، وعلى الاخص التقرب من الدروز فى جبل لبنان وفى المختاره بنوع خاص ، وكان التوفيق حليفه مما كانت نتائجه فى ذلك الوقت العصيب — والثورة قائمة فى كلمكان — أن دي جوفنيل اكتسب مساعدة الست ، وبعض الامراء الارسلانيين ، والزعماء الدروز فى نقل اعمال العصابات الدرزية التي كادت تملؤ جبل لبنان الى سوريا ، فكسر هكذا من حدة الثورة .

ولكننا كنا مشينا كثيرا فى الفصول السابقة الىما بعد ايام دي جوفنيل وما تحدثنا عنه الان وعن سياسته مع دروز لبنان ومع ست المختاره ، الا لان مجيء الامير مجيد ارسلان للمجلس بعد تزوير سنه ، جعلنا بطبيعة الحال نتطرف الى هذه التفصيلات التي هي مقدمة ، ولا شك للدور الرئيسي الذي لعبه بعد ذلك كمال جنبلاط ابن الست والامير مجيد ارسلان ، فى جميع الاحداث السياسية التي مرت على هذه البلاد ، واخصها احداث الانقلاب الاخير الذي اطاح بالجمهورية الرابعة — جمهورية الشيخ بشاره الخوري ، المدعوة عن حق — عند الذين ينظرون الى الامور من الجانب الوطني والسيادة اللبنانية — بجمهورية الاستقلال ، والمدعوة من جهة ثانية — ولربما عن حق ايضا — عند الاحزاب المعارضة المعادية لبشاره الخوري بجمهورية الفساد !

***

ورغم ما كان عليه صاحبا « الاوريان » فى عهد جوفنيل وقبله من مكانة وسلطان ، مما كان يجعلنا نتعثر فى اروقة ادارة « الاوريان » بالعدد الكبير من المستوظفين والمستوزرين ، يأتون يتوسطون الجريدة الكبيرة تسعى لهم وتساعدهم للوصول — رغما عن هذا ، فان الاستاذ جبران التويني هو الصحافي الاول الذي جاء بالصحافة للسراي ، تدخلها من بابها الكبير وتأخذ وزارة .

وقد كانت الصحافة تدخل السراي قبل ذلك خائفة وجلة مستعطية لاستقصاء الاخبار من جهة وللاشتراك بمجلس الشيخ محمد الظريف

من جهة اخرى . وقد كان مجلسه مجتمعا صحافيا سياسيا ، يأتيه رواده يوميا يحمل كل منهم الاخبار السياسية التي يكون قد استطاع الوصول اليها والطرائف الجميلة التي يكون قد اخترعها . وهو مجلس كان يخلع على سراي البرج ثوبا من الفكاهة والظرافة ، وسرعان ما انقلبت الى ثوب من الهزل والسخرية ، تعدى مجلس الشيخ محمد الى الوزارات ومصالح الدولة ، فسيطرت روح المجون فى كل شيء ، وحتى فى الاشياء الجدية جدا ، التي اخذ ذلك الهزل يخفف من قيمتها ويلبسها رداء من السخرية فانتشرت هذه الروح وطغت على المناقشات العامة والمباحثات الهامة ، وخصوصا فى المجلس النيابي حيث لم يعد احد من النواب يتورع فى قول الكلمة الهزلية المضحكة التي تخطر على باله ، ولو كان فى ذلك جعل المناقشات العامة الجدية القائمة تضيع وتصبح موضوع سخرية .

واستاصلت العادة حتى اصبحت طبيعية ، مما جعل النواب والوزراء واهل السياسة يفتشون بالاحرى عن الكلمة الفكهة يقولونها ، ولو كانت تخلق جوا من الهزل فى مجالس ومقامات مطلوب منها الجد والرصانة .

واخذت هذه الروح الهزلية — كما قلنا — تتسرب وتمتد حتى عمت جميع دوائر الدولة ، فلم يعد هناك من احترام وحفظ حرمة لشيء ، مع الفارق الاكبر ان طرائف مجالس الشيخ محمد ومجتمعاته كانت تمتاز باتقان فن المجون ، ولم تتبذل كثيرا ، وبالقدر الذي تبذلت فيه بعد ذلك طرائف المجالس والمجتمعات التي ظلت تتابع حتى يومنا هذا .

وكان ذلك بالطبع لانه — كما قلنا اعلاه — كان قد اجتمع فى ذلك الزمان فى المجلس والحكومة رجال من اهل المقام والروح وجاءت الظرافة اليهم طبيعية جميلة ، يقولونها ويبقون على مكانتهم بين الناس ، ويظل الناس يحترمونهم

وقف مثلا جورج بك زوين ، اعتق نائب بهذه الجمهورية ، الملقب بالاسد اللبناني ، — فهو فى عهد الاتراك عندما كان عضوا بمجلس الادارة بيمدا ، حاول اقتحام باب المتصرف بالقوة — مما كان يستوجب شجاعة نادرة المثال فى ذلك الحين الذى كان فيه المتصرف سيد الحياة والموت .

قلنا ، وقف جورج بك زوين بالمجلس يشكو من الحكومة انها تسرف باموال الخزينة وترمي الفلوس من الشباك .

وجاء تأكيدا لقوله بادلة تثبت التلاعب كادت تطيح بالوزارة ، واجاب الشيخ يوسف الخازن صديق تلك الوزارة وهو الاديب الصحفي الالمعي الذي لم تكن حاضرته تخونه مطلقا ، والذي ساعد اكثر من الجميع ، ومن غير قصد سيىء طبعا ، على جعل المجالس التى اشتهر فيها مجـــالس مستهزئين ، مما ابعد كل روح جدية عنها ـ اجاب الشيخ يوسف الخازن :

ـ طالما ان الوزارة ترمي الفلوس من الشباك فماذا تنتظر حتـــى تقف تحت الشباك ؟

وانقلب استجواب جورج زوين من وراء هذا الى عاصفـــة مـــن الضحك والاستهتار .

***

قلنا اعلاه ، دخلت الصحافة السراي من الباب الكبير مع جـــبران التويني ، عندما جاء وزيرا للمعارف (فى وزارة اوغست اديب ١٩٣٠) .

وكانت الصحافة دوما ـ وخصوصا الصحافة الكبرى ـ فى هذه السراي السمسارة رقم اول لصاحب المصلحة الذي يلزمه وساطة وللمرشح الذي يطلب نيابة ، أو وظيفة ، وللوزير الذي يحب التوجيه والدعاية وللنائب الذي يطمع بالوزارة وللتاجر الذي يفتش عن صفقات يربح فيها ويجعل غيره يربح .

كل هذا شيء عادي مع الصحافيين فى السراي ، مما لاينتهي مطلقـــا ، مهما قامت انقلابات ومهما جاءت حكومات شجاعة تقيم نفسها حارسة الطهارة والعفة والاستقامة ، كحكومة هذا الزمان ، او حكومات خائفـــة مضطربة لا تعرف كيف تدافع عن نفسها .

فانما يجب ان نعترف ، ويعترف الزملاء ، ان الصحف التي تتكـل فى هذه البلاد على مشتركيها وبيع اعدادها لا تعيش طويلا .

لا شك أن كلامي هذا يثير غضب بعض الصحافيين المتبجحين عـــن كذب ورياء بالتجرد والابتعاد عن الكسب . ولكنني عرفت دوما ان الصحافيين الذين يغضبون كثيرا ويصخبون علنا لاتهام الصحافة بعدم التجرد والنزاهة هم بالاكثر الذين قاموا باكبر المتاجرات وقد يظنونها خافية عن الناس . والناس مهما عملنا لهم ، ومهما تخفينا امامهم ، فهم يصلون دوما الى وقت

لا يمكنهم فيه ان يؤمنوا مطلقا بتجرد ونزاهة بعض الصحافيين .

ونذكر بهذه المناسبة أننا كنا دوما نحترم ونحب الصحافيين الذين ليس عندهم الوقاحة لان يفخروا علينا وعلى غيرنا بنزاهتهم وتجردهم، وهما بالفم فقط ، وكانت الصحافة فى تلك الايام اقل شأنا واقل مهارة وفنا ، وخصوصا اقل عددا مما هي اليوم .

ولكن كان ايضا لها فارق اخر ، وهو فارق محمود ، له شأنه . كانت الصحافة تعرف باجمعها تقريبا، وعلى قدر الامكان ، القراءة والكتابة بالعكس عما هي الحال الان ، حيث مقابل عدد من الصحافيين يعرفون الكتابة نجد عددا اخر منهم يمكننا ان نسمي قسما منه نصف امي ،والقسم لاخر اميا تماما !

ولكن ما جئنا هنا نلقي درسا وعظات بالصحافة مع اننا ، قد نكون مدعوين قبل الجميع لمثل هذه المهمة ،وذلك لما يقوله الناس عنا من معرفة وخبرة بهذه المهنة ، ولاننا نعرف اكثرمن غيرنا ان الصحافة اقتباس وقراءة وان الذي لا يقرأ كثيرا لا يعرف ان يكتب جيدا .

وقد قال عنا الريحاني منذ عشرين سنة ، فى كتابه قلب لبنان وقد كان من اسياد الصحافة الدوليين ــ قال عنا :

ــ هذا صحافي يعرف ان يكتب لانه يقرأ الف سطر ليكتب سطرا !

***

دخلت الصحافة للسراي بجبران التويني ، وكان حضرته قد اقتطع له مكانة قوية فى عالم الكتابة بجريدة «الاحرار» التى كانت اكثر انتشارا وقوة فى ذلك الوقت من جميع الصحف العربية بلبنان ،

فاخذت من وراء ذلك مكانة سياسية ونفوذا كبيرا ، جعلا كبار السياسيين يفتشون عن صداقتها ، وفى راسهم الشيخ محمد الجسر ، الذي ذهب فى سعيه لاكتساب جريدة «الاحرار» ، انه دعا اخيرا التويني احد اصحابها الثلاثة ليكون وزيرا .

وذلك بمجرد انه صحافي فقط ، مع الاعتراف انه كان متحليا بميزات عديدة .

وجبران التويني صار وزيرا للمعارف ثم فى عهد الاستقلال فى سنة ١٩٤٦ ، وزيرا مفوضا فى الارجنتين ، وفى كلا المرتين كانت حملاتـه على الحكومة تجعلها تسرع لاسترضائه بالمناصب العالية .

وانتقى الشيخ محمد التويني وزيرا لانه لم يكن يستطيع اخذ غيره وزيرا من الشركاء الثلاثة بجريدة «الاحرار» التي يريد اكتسابها : سعيد صباغه ، خليل كسيب ، جبران التويني ،

فانما جبران التويني كان روح الجريدة والمفكر الكبير بين شريكيه

وهكذا كان هو محرر الجريدة والمشرف على سياستها ، بالرغم عن مقالات كان يسمح من وقت لاخر لاحد شريكيه ان يوقعها بامضائه .

دخل التويني الوزارة ، فايقظ حالا اطماع باقي اساطنة الصحافة، فاخذوا ينشطون فى صحفهم ويتزاحمون على تحسينها وتجميل كتابتها وجعلها قوية ، طالما ان الصحافة توصل للوزارة .

وكان ذلك النشاط الذي اوحاه التزاحم والطمع بدخول السراي، سبب النهضة الجديدة الاولى للصحافة اللبنانية ، والباب المفتوح لخروج اكثر الصحف من عقمها التقليدي بنشر مقالة افتتاحية طويلة مملة يومية، وفى تكليف المقص بعد ذلك بتحرير ما تبقى من العدد . وقد دشنت هذه النهضة طرازا جديدا من الكتابة ، يتفق مع هذا السباق بين الصحافيين على جعل جرائدهم تفتح امامهم ابواب السراي ، كما فتحت جريدة «الاحرار» تلك الابواب امام جبران التويني .

وهكذا من وراء هذا النشاط الصحفي واقبال الجرائد على التحسين، بدات قوة الصحافة ونفوذها يظهران ، يساعدها يومئذ الشيخ محمد الجسر ، بنوع خاص وبطرق عديدة . وكانت مساعدته المفضلة الناجعة فى فرضه ضريبة على النواب والوزراء الاغنياء ، يدفعونها هنا وهناك ، وطبعا بطريقة كتومة للصحافيين الذين كان سماحته يعمل لتشجيعهم واكتسابهم

وكان للشيخ محمد الجسر فن مستطاب فى جعل الصناديق المقفلة جدا تتفتح امام اصدقائه ،

مثلا ، صندوق النائبين المحترمين المليونيرين الاكبرين يومئذ ، اميل ثابت وعبود عبد الرزاق ؛ وقد اضطرهما الشيخ محمد مرارا عديدة

للاشتراك فعلا ، وبطريقة وسيعة ، لا تتفق مع يدهما الماسكة ، في المساعدات المالية التي كان سماحته يتدبرها لاصدقائه ، والتي جعلت مثلا الشاعر الالمعي الكبير بشاره الخوري صاحب جريدة «البرق» حينذاك ، يعاتب اميل ثابت ذات يوم ، لانه كان يثني باحدى المناسبات وفي مجلس من النواب على تجرده ، ويقول انه عرض عليه مالا فرفضه .

وجاء بشاره الخوري لاميل ثابت معاتبا يقول له :

ـ ماذا عملت معك حتى تخلق لي هذا الصيت ، فتقطع رزقي هكذا؟ هل تتصور انني بعد كلامك هذا سامزق كتاب المفوضية الذي احمله اليك منها ؟

قلنا ان الصحافة خطت في دخول جبران التويني للوزارة خطوة كبيرة ، ومن وراء ذلك وضع اكثرها نفسه في خدمة سماحته، طالما انه هو الذي يدخل الصحافيين للوزارات ، وطالما هو الذي يتدبر مساعدة الصحافة ، مما كان سببا اوليا لوقوفها بجانبه عندما انتهت مدة الدباس الثانية سنة ١٩٣٤ ، وقال الفرنسيون بوجوب انتخاب رئيس جمهورية جديد .

- ٢٢ -

تجارة الميناء فى السراى

وتبعا لذاك النشاط الصحفي الجديد ، ظهرت جريدة سنة ١٩٣٣ «الليجور» الفرنسية تغذيها اموال بنك فرعون شيحا ويوحي اقوالها وكتاباتها الرجل الرابع ،

ظهرت جريدة «ليجور» ، طالما كانت هناك جريدة «الاوريان» تقول قول الاستاذ اميل اده ، فمن الطبيعي انشاء جريدة باللغة الافرنسية تنتمي الى بشارة الخوري .

وطبعا ، كان فى تلك الايام للجرائد الصادرة بالافرنسية مكانة اقوى جدا من جميع الجرائد العربية بالنسبة للمنتدبين ، الذين يقراون «الاوريان» و «الليجور» مباشرة باللغة الفرنسية ، ولا ينتظرون ترجمات الجرائد العربية بطريقة غالبا ما تكون مزيفة ومقتضبة ، فيضيع فى ذلك الكثير من قوتها ومعناها .

ظهرت جريدة «الليجور» وظهر معها شيئان جديدان: ترشيح الرجل الرابع الشيخ بشاره الخوري لرئاسة الجمهورية ، ونزول نسيبه وصديقه هنري فرعون المليونير ووجيه الكاثوليك الاول للميدان السياسي .

ولم يكن احد يعرف حينذاك ان فى رأس الشيخ محمد موال يريد ان يغنيه ، ولا يتوفق مطلقا مع دهائه وخبرته السياسية ،

لهذا تلقى الناس يومئذ بدهشة اعلان سماحته ترشيحه ايضا لرئاسة الجمهورية مزاحما بشاره الخوري صديقه وزميله ،

ولم يكن هناك مانع دستوري يمنع هذا الترشيح . فمع اعتقاد الناس ان الرئاسة فى لبنان يجب أن تكون مسيحية ، ليس هناك مادة فىالدستور تعين طائفة معينة لتلك الرئاسة .

ولكن تجاهل الشيخ محمد ـ عندما اعلن ترشيحه ـ الحقيقة

السياسية المعلومة ، والتي كان هو نفسه يقولها فى كل مناسبة ، من ان لبنان ليس منفصلا عن باقي البلدان العربية الا لان له طابعا مسيحيا دوليا معروفا ، مما يقضي ان يكون رئيس جمهوريته ممهورا بهذا الطابع ، وخصوصا فى ظل انتداب افرنسي جاء الى هذه البلاد مرتكزا على اساس تقاليد وصداقات فرنسا التاريخية مع نصارى الشرق ، وقد اقامت فرنسا نفسها منذ اجيال حامية لهم ،

لهذا اصطدم ترشيح الشيخ المسلم لرئاسة الجمهورية بالفرنسيين قبل الجميع . وبعد ذلك اصطدم بالانعزاليين اللبنانيين الذين يريدون لبنان دوما مصطبغا بالصبغة المسيحية مهما كثر عدد غيرهم فيه .

ومع هذه الحالة ، ومع ان اميل اده كان ن اركان الانعزاليين الاشد عنفا ، فقد رأيناه يأخذ جانب ترشيح الشيخ محمد ، ويحاول اقناع الفرنسيين بقبول ترشيحه ويسانده فى الصحف والاندية السياسية التي كان يسيطر عليها واخذ يعمل كل شيء فى هذا السبيل ، واذا لم ينجح فى ذلك فلا يكون الخطأ منه مطلقا ،

وتبارت اقلام الكتاب فى جدال عنيف، وقامت الجريدتان الافرنسيتان: «ليجور» التي تساند الشيخ بشاره الخوري ، و «الاوريان» المعروفة بانتسابها للاستاذ اده ، بحملات صحفية عنيفة ، الواحدة ضد الاخرى، خرجتا فيها عن التحفظ التقليدي الذي كان مألوفا فى الصحف حتى ذلك الوقت ، مما دشن عهد التشهير الصحفي الذي تتابع منذ ذلك الحين . وفتحت الجريدتان بالمناسبة قاموس المسبات والشتائم والاتهامات الفظيعة ، هذه ترسلها للشيخ بشاره الخوري وتلك ترسلها لاميل اده .

وكانت ولا شك حملات الخباز والنقاش ابعد مدى واكثر جراة، لمعرفتهما ان المفوضية السامية لم تكن تنظر الى ترشيح الشيخ بشاره الخوري بعين راضية .

وطبعا ، ازعجت هذه الحملات فى البداية الكثيرين من اهل الرصانة والتعقل والمسالمة ، ولكنها على طول الزمن ، ومن وراء ترديد تهمها يوميا حتى اصبحت جزءا لا يتجزأ من كتابات الصحف ، اعتاد الناس عليها ، وما عادوا يجدون فيها اشياء جديدة جذابة .

واتضح بهذا المعنى ، ومن الوجهة الصحفية ، ان فن السب والشتم

والتحامل على كبار الرجال تسهل الكتابة فيه جدا ، فهو النوع من الكتابة يهضمه القارىء ويلتذ به ويقبل على شراء الجرائد لاجله ،

وفى ذلك الزمن بدات السوق الصحفية العاهرة ، كسوق بنات الهوى ، التى وصلنا اليها فى هذه الايام ، والتى تجعل كل جريدة لا تتورع، عندما تكون هناك مناسبة ، من سب السماء نفسها واتهام القديسين الابرار بكل الموبقات .

فانما وصلت الحال بالكاتب اليوم فى حملاته التشهيرته على الناس، انه عندما تضيق قريحته ، يستعير حتى لغة البحارة على الميناء ، او لغة اهالي زحله على البردوني ، يسب بها ويشتم !

***

فى ذلك الوقت بدات الحرب الصحفيـة فى الاوريـان ضـد بشاره الخوري وفى اليجور ضد اميل اده ،

وهي الحرب التي عاشت عشرين سنة ، وظلت فى قيد الحياة حتى بعد وفاة اميل اده ، اي حتى اليوم الذى لبست فيه «الاوريان» فى سنة ١٩٤٨ ثوب الوقار ، وصار رئيس تحريرها النقاش رجل اعمال وتجارة اكثر مما هو رجل قلم وكتابة .

- ٢٣ -

الجمهورية الثانية ونشأة الكتلة الدستورية

اشتدت المعركة للرئاسة بين الشيخ محمد الجسر والشيخ بشاره الخوري لدرجة كادت تخلق نزاعا طائفيا خطرا ، مع ان الكثيرين من النواب الموارنة كانوا يؤيدون الشيخ محمد .

واستدرك الفرنسيون الامر ، وكانوا غير راضين عن الترشيحين . وقد يكونون هم الذين جعلوا اميل اده لا يرشح نفسه يومئذ ، وذلك بالاتفاق معه ، باعتبار انهم كانوا مزمعين على عمل تحكمي تقتضيه الظروف . ووجدوا فى ترشيح الشيخ محمد حجة لتحقيقه ، وذلك فى الحل الذى وجدوه مناسبا ، اذ اوقفوا فجاة وبدون سابق انذار مفعول الدستور والحياة البرلمانية ، وعينوا فى ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ ، بقرار من المفوض السامي ، حبيب باشا السعد رئيسا للجمهورية الثانية وذلك لمدة سنة واحدة جددوها سنة اخرى بعد ذلك .

وهكذا استيقظ المرشحان الكبيران فى الصباح فوجدا ترشيحهما غارقا فى البحر .

وذهب كل منهما الى بيته،وهو باق صديق الآخر .

اذ انهما ظلا مدة ترشيحهما على افضل الصلات ، ولم يلجأ احدهما للتشنيع بالاخر ، بل اظهرا روحا رياضية ارتاح لها الناس باجمعهم .

ولم يكن قد جاء ، بعد ، الزمن الذى اخذ فيه المتزاحمون يخرجون فى المعارك السياسية عن عقولهم وتوازنهم ، ويجعلون الضغائن والاحقاد تاكل قلوبهم ، متخذين التباغض قاعدة لاعمالهم بعضهم ضد البعض الاخر !

***

جاءت الجمهورية الثانية عجوزا متعثرة برجالها الكبار بالخبرة والقدر والسن .

حبيب باشا رئيس جمهورية،عبدالله بيهم سكرتيرا عاما ، بترو طراد رئيس المجلس ، الامير فائق شهاب رئيس الديوان .

وكل واحد من هؤلاء من عمر الخبز ، ولكن مع ادعاء صارخ مبالغ به جدا بالفتوة الدائمة ، وبالقدرة على اجتذاب الحسان . وهو ادعاء دعا جريدة معروفة ان تقول ذات يوم جوابا على تصريح لحبيب باشا السعد كان قال فيه ان حكومته جاءت لتقوم ما اعوج فى هذه السراي ، فكتبت الجريدة تقول :

ـ كيف يمكن لهذه الدولة ان تقوم ما التوى ، وهي لا يقوم معها شيء؟

واحدثت هذه الكتابة تاثيرا سيئا وغضبا بالسراي لان هذا القول عن وهن رجالها اصاب فى الصميم اولئك « الكازانوفيين » العتق ، عندما وضعتهم الجريدة فى عداد «جمعية عدم الامكان» المؤسسة القديمة فى جبل لبنان ، التي كان اعضاء مجلس الادارة ، وقد شكلوها فى ساعة مجون فى اواخر عهد الاتراك ، وذلك بالنسبة لدزينة الاختيارية العاجزين الذين كان يضمهم ذلك المجلس ، وكانوا يعملون على ايهام الحسان انهم ما زالوا اسودا .

وكان قد انطفا ذكر هذه الجمعية منذ زمن بعيد واختفى اثرها عند الناس ، الى ان قامت فى الاونة الاخيرة ، وفى ساعة رضى الراقصة الشهيرة الفنانة تحيةكاريوكا تبعث تلك الجمعية من قبرها ، وتدخل عليها تعديلات وتنظيمات تتناسب مع رجال حكومات الاستقلال بعد راشيا وبشامون الذينالتفوا حولها وفى راسهم حبيب ابو شهلا وجبران النحاس وجبرائيل المر ـ وراحوا يطاردونها فى كل مكان ، فتتعب اخيرا منهم ، وتهزأ بهم ، وتلقبهم من جديد بانهم من « جمعية عدم الامكان »!

وكان غضب الباشا فى ذلك الحين اقوى من غضب رفاقه الاخرين بالسراي ، اذ كانت نفسه دوما خضراء ولا يريد ان يعترف ان صبوته اصيبت باي هزال كما وان رئيس المجلس النيابي الظريف اللبق الاستاذ بترو طراد كان ايضا يغار كثيرا على شهرته كدون جوان !

وكان معروفا بميزات عديدة حسنة ، منها لباقته واجتهاداته التاريخية واستقامته وحفظه قصائد العرب على ظهر قلبه وعدائه للنوم باكرا ، وسهرهالليالي فى مجالس الانس والاندية العالية . وكان معروفا

فوق هذا بجمهرة الخادمات الجميلات المستخدمات عنده دوما الحاكمات حكما عنتريا فى دارته ، مما كان يجعله يقول فى ظرف جميل :

ـ طالما يلزمك خادمات فلماذا لا تاخذهن حلوات ، ولو كن اغلى من البشعات ؟

★★★

اذا ذكرنا عهد سكون وراحة واعمال اصلاحية عادية ، ليس فيها الشيء العبقري الكثير ولا الشيء السيىء الكثير ، يجب ان نذكر الجمهورية الثانية ـ جمهورية حبيب باشا السعد ومعاونيه الاجلاء المحترمين .

واخذت تمضي ايام هؤلاء الشيوخ الحاكمين بالسراي عادية هادئة، تمشيا على القاعدة المأثورة القائلة : «حكمة الحكم هي فى ترك الامور تدبر نفسها بنفسها ، وفى ترك الابواب المقفلة على حالها ، فانما فى السياسة عندما تفتح بابا تعرف كيف تدخل فيه ـ ولكن لا تعرف غالبا كيف تخرج منه !»

وكانت حكومة الاختيارية ، الحكومة الاقل فضائح ومتاجرات من جميع الحكومات التي عرفناها ، اولا لان رجالها لم يكن عندهم النشاط اللازم والدم الحار وروح الاستثمار الجامح ، وثانيا لان الفرنسيين الذين كانوا يحكمون مباشرة بواسطة تلك الحكومة ، ارادوا هذه المرة ان يكذبوا اعداء الانتداب والنبهاء من الناس الذين كانوا ينكرون عليهم الخبرة والحكمة فى الحكم .

وكانت حكومة الاختيارية من جانب اخر حكومة انتقال ، جاء بها الفرنسيون طبعا ـ كما قلنا ـ ليفضوا مشكلة ترشيح الشيخ محمد والشيخ بشاره لرئاسة الجمهورية ، على ان يعودوا عندما تأتي المناسبة لترشيح جديد .

وكان الملاحظون الذين اعتادوا ارتياد السراي يشعرون ان طرق الادارة التركية عادت لسراي البرج برجال لبنانيين كانوا موظفين كبارا بايامها واخذوا عنها امثولات حكيمة فى فن الحكم ، ساعدت كثيرا جمهورية الاختيارية على تدبير امورها وامور الناس دون ضجة ولا مشاكل وبطريقة بطيئة تتفق مع اعمار اولئك الحكام المحترمين !

واذا كان الشيخ محمد بعد توقيف الحياة البرلمانية ومجيء حبيب

باشا رئيسا معينا للجمهورية اعتزل فى مصيفه فى بحرصاف مثقلا بالامجاد والتعب ، وحيث لم تمض عليه اشهر قليلة حتى استدعاه ربه اليه ، فان بشارة الخوري ظل فى الوقت الذي سقط فيه ترشيحه محافظا على نشاطه ، فلم يأخذ اية هدنة للاستراحة واستقبل الفشل الاول برباطة الجاش التى تفرد بها والتى استقبل بها كل فشل اصابه بعد ذلك ، خلال الثماني عشرة سنة التى ظل يكافح ويخسر .

وحالا ، وبدون ابطاء اخذ من جديد يجمع حوله اكبر عدد ممكن من محترفي السياسة الجبليين ، الذين اتقنوا الفن اكثر بكثير من محترفي السياسة فى المدينة ، وذلك لان التجارة والاعمال والحياة اللاهية العابثة فى بيروت لا تترك لابنائها وقتا طويلا للاشتغال بالسياسة واحترافها بطريقة متواصلة ، فى حين ان البطالة الدائمة فى الجبل وفقدان اسباب اللهو والمسرات ، جعلا اهاليه يعملون من السياسة والحزبيات والاشياء العامة مهنة حقيقية وتسلية دائمة ، تعطيهم خبرة وسيعة وعارضة قوية مما جعلهم ، بعد انفصال لبنان عن تركيا وضم بيروت واجزاء اخرى الى جبل لبنان ، ان يكونوا اساتذة السياسة فى السراي والمجلس .

وفى ذلك الوقت دل تعطيل الفرنسيين لاعمال الدستور وتوقيفهم الانتخابات لرئاسة الجمهورية ، ومجيئهم برئيس جمهورية معين ، بطريقة تحكمية فجائية ، على انهم اعتبروا الحكم البرلماني الذي اعلنوه لعبة يتلهون بها ، يحيونها متى كانت لهم مصلحة او هوى فيها ، ويعطلونها حين لا تكون فيه نافعة لهم !

فى ذلك الوقت تنادى الشيخ بشارة الخوري مع كبار السياسيين المنتصرين له ، والذين ماشوه فى ترشيحه ، يتعاونون معه ويؤلفون حزبا قاعدته حماية الدستور والحياة البرلمانية فى البلاد ومحاربة الذين يعملون على المس بها ، والحد من استئثار الفرنسيين فى التلاعب هكذا بالنظام البرلماني وبالحياة الدستورية .

وكان من جراء ذلك ان اجتمعت الجمهرة الملومة التي اتخذت ـ بتلك المناسبة ـ اسم «الكتلة الدستورية» واقامت نفسها حارسة على الدستور والعمل على تثبيته ، فلا يكون عرضة للاخطار ، على هذا النحو ، حسب اهواء المتذبين المتقلبة غالبا .

وما كادت الكتلة الدستورية تتألف ، حتى اجمعت على اعطاء

قيادتها الرجل الرابع ، وانبثقت عنها هيئة اركان حرب الحزب ، تجمع في صفوفها رجالا اقوياء ، معظمهم من النواب الجبليين ، تدفعهم روح المغامرات السياسية ، والمطامع لاكتساب الشعبية والمناصب معا .

وهنا نتساءل ـ بكل سذاجة طبعا ـ : هل كانت الكتلة الدستورية تقاوم الفرنسيين كما بدات حالا تفعل عند تاليفها ـ لو كانت هي في السراي ، وكان خصومها الذين في السراي خارجها ؟

***

نشات الكتلة الدستورية وارتكزت منذ الساعة الاولى على بضعة سياسيين اقوياء نبهاء ، مستعدين لمجابهة الاحداث بجراة كبيرة ، وقد اعتزموا ان يشقوا لهم طريقا توصلهم للسراي والمجلس حيث اخذ خصومهم يتربعون .

وكانت هيئة اركان الحرب مؤلفة اولا من كميل شمعون ، الفتى الجميل ، المحامي الجديد اللامع ، والمثالي المتعصب في الوطنية اللبنانية والصديق يومئذ للمستر فورلنغ مستشار القنصلية الانكليزية العامة في بيروت الذي اصبح بعد ذلك مستشار الشؤون الشرقية في حكومة لندن ، وهي صداقة كانت بنظر الناس سندا قويا للذي يحملها .

ومنذ الساعة الاولى اخذ كميل شمعون يلعب دورا رئيسيا في الكتلة الدستورية ، فاقتطع حالا لنفسه مكانة منظورة ، وجعل نفسه حجة في تدبير امور المقاومة وتنظيم الحزب .

ولقد اختصت الكتلة كلا من اركان حربها برسالة معينة تقريبا ، كان تصنيفها الحقيقي الواقعي كما ياتي : ناس للسياسة وناس للرئاسة !

وكانت رسالة كميل شمعون من جهة السياسة الخارجية والمحلية والبروبغندا والدعاية، خصوصا عند القنصليات الاجنبية . ومن جهة ثانية كان عليه واجب تدبير الانتخابات والاستعداد لها، واكتساب الناخبين، وهو فن اتقنه كميل شمعون كثيرا ؛ مما جعله يكون الحركة الدائمة لجميع الانتخابات التي جرت فيخوضها الدستوريون متحدين منظمين تماما

وكان على المرحوم الشيخ فريد الخازن مهمات متنوعة في الحزب ، فقد كان وزيرا مفوضا للكتلة تجاه البطريركية المارونية ، حيث يتمتع بنفوذ كبير ، خصوصا بعد انتخاب عريضة بطريركا ، كما انه كان عليه

ان يحمي خزينة الحزب ـ لا من الانهيار فقط ، بل من نفسه ايضا ـ فقد كان رحمه الله يحب المصاري ولكنه كان كسابا وهابا ، يأخذ مال الكنيسة ، يهبه لجميع هؤلاء «الباش بوزق» والبلطجية والقبضايات الذين كان يجرهم وراءه فى كل مكان .

وقد كان عليه ان يجمع انصارا للكتلة الدستورية الجديدة ، يحاربون لاجلها ويجعلون الناس تخشاها فى القرى والدساكر ، خوفا من بطشهم وتعدياتهم .

وكان الشيخ فريد الخازن يختلط بالقبضايات ورجال السيف والمسدسات كثيرا ، لانهم يحبونه ويماشونه ويؤلفون حوله حصنا قويا جريئا يتكل على مسدساتهم ومختلف اسلحتهم واجناسهم ، ومنهم العدد الوفير من قرصان البحر المعروفين فى شواطىء جونيه والفتوح والبترون ، ثم انه كان بطبعه يحسب نفسه من الاهالي ، ويترك لباقي المشائخ الخازنيين ان يتبعوا تقاليدهم فى الابتعاد عن العامة ، يعتزلون وراء ارستقراطيتهم الفقيرة كثيرا ، ويتنكرون له ، فيذهبون للقول عندما كانوا يرونه يتعاون ويتوافق بدون كلفة مع الاهالي ، اكثر مما يتعاون ويتوافق مع المشائخ :

ـ لا عجب فى ذلك فانه من الاهالي !

قلنا ، كان يحب المصاري كثيرا ، واكثر من اللازم ، يأخذها حيث يجدها ، ولكن كيما يصرفها ويوزعها دون ان يقيم لها وزنا ، وهذا ما دعا الشيخ بشارة الخوري للقول :

ـ للشيخ فريد الخازن يدان وسيعتان ، الواحدة منهما اسرع من الاخرى ، فلا يكاد يأخذ باليمنى مثلا حتى يعطي باليسرى ، على ان لا يبقى شيء لـه !

وكان سليم تقلا مستشار الكتلة بالامور الداخلية وتنظيم الحزب ، احتضنه بشارة الخوري منذ الساعة الاولى واخذ يقذف به الى الامام وكان سليم تقلا قد تدرب فى الادارة حتى وصل الى مديرية الداخلية ثم الى محافظة بيروت ورئاسة بلديتها . وهو منذ البداية ، فى نباهته ومقدرته ربط مصيره السياسي بمصير الشيخ بشاره الخوري يتعاون معه فى كل الظروف والاوقات ، مما حدا برئيس الكتلة الدستورية الى

ان يضمن له نيابة الكاثوليك عن الجبل ويجعلها وقفا عليه ومن بعـــده وقفـــا على اخيـــه .

فحين توفي سليم تقلا ، وكان بعد فوق التراب ، نادى بشـــارة الخوري بفيليب تقلا خلفا له .

وجاء الخلف اهلا للسلف ، مما جعل الناس يتساءلون اي الشقيقين ـ الراحل ام القادم ـ هو الاكثر حنكة ونباهة !

وكان ميشال زكور الصحافي المجدد ، صاحب مجلـــة «المعرض» ، النائب عن الساحل ، يمثل في الكتلة الدستورية الصحافة القوية ، ويلعب سياسيا دور الثائر . فقد كان مثل «مارات» في عنفه وتحزبه الصميم ، وتعصبه للكتلة ولرئيسها مما جعله عضوا بارزا في الحزب ، يضمن لـــه صداقة اكثر الصحافيين ، ومما جعله يجابه السلطات المنتدبة بجـــراة غريبة عند الاصطدامات المتعددة التي اخذ يصطدم بها الدستوريون مـــع الفرنسيين حتى سماه هؤلاء بالولد المخيف .

وكانت له القاب اخرى طريفة عرفه الناس بها في المناسبات المؤاتية، مثلا «سبع الشياح» مسقط راسه ، ومن حيث كان يرسل بقوة وجراة غريبتين تهديداته للخصوم وللمنتدبين . وكانوا يلقبونه ايضـــا بروميـــو زكـــور .

وكان ظريفا يحب المجون ، ويبقى صديقك مهما اسأت اليه ، انمـــا الى ان تنكر عليه الجاذبية التي يفترضها بنفسه ـ وقد توهم انها تسبي الحسان حتمـــا !

ومات ميشال زكور في جبهة القتال ، على مقعد وزارة الداخليـــة في حكومة ائتلافية كان يمثل فيها الكتلة الدستورية متحديا يوميا رئاسة الجمهوريـــة مع انه احد وزرائها .

وهو الوحيد بين الدستوريين الذي اشترك بوزارات اده الائتلافية، وظل عدوه لا يأتلف ولا يتجانس معه !

***

وكان الامير خالد شهاب العنصر المسلـــم الاول الذي انخرط في حزب الدستوريـــين .

وبهذه الصفة اشترك حضرته دوما فى الحكومة الائتلافية التى كان الفرنسيون يفرضونها عند الحاجة ، عندما كانوا يرون ان يضعفوا رئيس الجمهورية ساعة يشعرون انه اخذ يستقوي عليهم .

والامير خالد عاش دوما مرنا وديعا يتبع سياسة واقعية ، لا يزينها شيء من العبقرية ، كما لا يعيبها شي من السذاجة والسماجة !

وكانت سياسته فى الوزارة الائتلافية الاولى التى فرضها دي‌مارتل وجاء الامير خالد فيها ممثلا الكتلة الدستورية ـ مسالمة لدرجة جعلته يتعاون مع الرئيس اده خصم كتلته رقم اول ، تعاونا بعيدا ، جعل حزبه يشتبه باخلاصه ويرغب اليه الاستقالة !

وتمرد الامير خالد على الحزب وقرر البقاء (سنة ١٩٣٨) ، وليس كل يوم يمكن الانسان ان يكون رئيس وزارة !

وتجاه هذا التمرد غير المنتظر من الرجل الوديع الحمل ، من الامير خالد شهاب ، تراجع الدستوريون عن انذارهم له ، وتغاضوا عن تعاونه مع الرئيس اده ، خوفا من عصيان الامير خالد الذي قد يجعل الناس يعتبرون ان الكتلة مفككة الاوصال ، فلا يعودون يحسبون لها حسابا ، انما على ان يخفف الامير خالد من تعاونه مع الاستاذ اميل اده ، وان كان الدستوريون ـ كما كان يقول الشيخ فريد الخازن ـ لا يجدون خطرا كبيرا عليهم ، يمكنه ان ياتي من اي سلوك سياسي يقوم به رجل من الناس الملاح ، مثل الامير خالد.

وهو ذات الامير خالد شهاب الذى حمله الانقلاب الجديد فى تشرين الاول ١٩٥٢ مسؤوليات الحكم ومقدرات الثورة ، وظل الان كما بالامس، السياسي العادي المسالم الواقعي ـ الذى لا يمكنه ان يضر كثيرا ولا يمكنه ان ينفع كثيرا . والذي لم يكن يجد فى حزبيته ما يمنعه ان يكون اقرب الناس للاحزاب الباقية المعادية للدستوريين ، وعلى الاخص للرئيس اميل اده عندما الف وزارته الائتلافية فى ايام رئاسته .

وكان اميل اده يقول فى المناسبة :

ـ لا شك ان بشاره الخوري ليس حقودا ولا يكرهنا للدرجة التى نتصورها ، فهو لو كان كذلك لارسل لنا ممثلا عن الكتلة الدستورية فى

الوزارة الائتلافية رجلا اقل مسالمة ووداعة وحبا للتعاون والسلام من الامير خالد !

وهذه السياسة التى اتبعها الامير خالد فى الوزارة الائتلافية دعت طبعا الكثيرين للاشتباه به ، وللزعم انه كان يتلاعب بدستوريته ويسلم اموره لرئيس الجمهورية اميل اده ، مستضعفا امامه ، مما كان فيه بعض حق ، ومما كان للامير خالد فيه بعض العذر ، وذلك لما كانت توحيه شخصية اميل اده النابهة من هيبة وخشية ، ومن لباقة فى معرفة اكتساب الرجال الذين كانوا يقتربون منه مهما كانوا يضمرون له من خصومة .

وقد راينا بعد ذلك كل دستوري حتى اشدهم عداء لاميل اده ، لا يكاد يدخل فى وزارة ائتلافية فى عهده الا ويتجانس نوعا ما معه .

هكذا جرى مثلا للاستاذ كميل شمعون ، وللاستاذ حميد افرنجيه الشخصيتين الاكثر بروزا بين السياسيين المعارضين ، عندما كانت سياسة الفرنسيين «السويعتية» تجعلهم يجمعون الخصوم فى وزارة واحدة

ومع ان ميدان العمل الاساسي للكتلة الدستورية كان بالاحرى جبل لبنان حيث الاهالي ، تبعا دائما لميلهم الفطري للاشتغال بالسياسة اخذوا ينضمون بطريقة منظمة للاحزاب التي تقوم ، وهذا بالعكس ـ كما قلنا سابقا ـ عن باقي المناطق والمدن الساحلية ، التي امامها ميدان الاعمال تجول فيه وتصول ، وتنشغل فيه عن السياسة واحزابها ، وهذا كان السبب انها حتى الان لا تعرف التنظيم الحزبي الذى يعرفه جبل لبنان ، وتبعا لهذا راينا الاحزاب السياسية التي تقوم بالجمهورية اللبنانية ـ ومنها الاحزاب المنظمة تنظيما كاملا ـ تولد وتنتظم وتتثبت فى جبل لبنان .

يرجع ذلك ـ كما قلنا اعلاه ـ قبل كل شيء للبطالة الدائمة فى القرى والدساكر ، وهي بطالة مدهشة تجعل الاهالي دوما فى افلاس وطفر ، ولكن دوما باعجوبة غريبة لا يحتاجون ولا يجوعون ويشبعون باعجوبة ، كانت دوما موضوع دهشة الملاحظين ، يغذيهم خصوصا شغف كبير بالسياسة يكاد يكون نوعا من المرض .

فالسياسة عندهم مثل حب النسوان ومثل القمار ومثل الادمان على الحشيش .

قلنا ، مع ان الكتلة الدستورية اتخذت جبل لبنان حقلا لنشاطها السياسي الحزبي ، فهناك عناصر قوية انضمت اليها من غير جبل لبنان ايضا ، مثل الامير خالد شهاب نائب الجنوب يومئذ ، ومثل محمد العبود نائب عكار الذى جاء للحزب يحمل اسطورة ملايين والده عبود بك العبود ـ ويحمل معها اطماعه الاستوزارية ـ وعاطفته القوية نحو بشارة الخوري

وكان والده عبود بك العبود يساعده ويسانده بالاكثر ليس فى ماله ـ لان عبود بك لا يحب كثيرا صرف المال ـ بل فى حذاقته ودهائه اللذين جعلاه يملك ثلاثة ارباع سهول عكـــار .

وكان صبري بك حماده رسول الشيعة عنصرا قويا فى الكتلـــة يحمل لها تأييد عشائر الدنادشة وجعفر والحماديين ، اسياد الجبـــال والمغائر فى بلاد بعلبك والهرمل ، ويحمل اليها ايضا نشاطه السيـــاسي القوي الذى تحدى به اخواله مشائخ الهرمل الاولين فى الانتخابات التى ربحها ، وجاء للكتلة يحمل معه كذلك رائحة الحشيش، وهي الرائحـــة التى رافقت ـ عن خطأ او صواب ـ حياته السياسية باجمعها ، وكـان خصومه دوما يشمونها اكثر من غيرهم بكثير ، فيحاربونه بها . وبطريقة متواصلة يخترعون الروايات والحكايات المختلفة عن متاجراته بالحشيش، مما جعل اسطورة الحشيش ترافق رئاسته الطويلة القوية للمجلس النيابي حيث جاء وقت كان حضرته فى تلك الرئاسة يسيطر سيطرة كاملة علـى المجالس التى تراسها .

ولكن اي زعيم فى بلاد البقاع ـ ومن بعدها فى بلاد عكار ـ يحتـرم نفسه ويملك حقولا ، ولا يزرع فيها الحشيش ، مما كان وقد لا يـزال شيئا عاما ، وفيه الكثير من الارباح والبطولة ايضا ؟

فانما عمت زراعة الحشيش دوما ومنذ عهد الاتراك سهول البقاع وبعلبك بالرغم عن مطاردة الحكومات ، مما جعل الذى عنده حقل ولا يزرع الحشيش فيه يعتبره الناس جبانا خائفا !

وصار اتهام السياسيين بعضهم بعضا فى هذه البلاد بزراعـــــة الحشيش وتهريبه طريقة للانتقام من بعضهم بعضا ولم يوفر غير العـدد القليـــل منهم .

فانما هو اتهام يلصقه غالبا الناس هنا بخصومهم لتسويد صحائف

هؤلاء ، وللنيل منهم كما لو كنا رجعنا لعهد الاتراك عندما كان الواحد منا يتهم عدوه بمسبة السلطان ، وكما أنتهت الحال الان باتهامنا بالشيوعية ، اي رجل نريد له شرا .

ونحن نبحث بالحشيش الان من هذه الوجهة ، فانما اذا كان خصوم الدستوريين اتهموا صبري بك حماده وغيره من رفاقه بتهمة زرع الحشيش وتهريبه ، فان الدستوريين يساعدهم يومئذ بذلك مدير الامن العام المسيو كولمباني ، وصلوا الى اتهام الاستاذ اده نفسه بزراعة الحشيش بقرية «عانا» مزرعته فى البقاع . ولحسن الحظ انهم اتهموه بزراعة الحشيش فقط ، ولم يصلوا باتهامه بتهريبه . . .

ونذكر باجمعنا عندما اراد مدير الامن العام المسيو كولمباني ان يخلق للرئيس اده المشاكل ، بعد ان سلطه دي مارتل عليه ، فذهب يفتش بطريقة علنية عن الحشيش فى مزرعة رئيس الجمهورية اللبنانية .

ولا شك ان هذا العمل اضحك دي مارتل كثيرا ، وهو الذى لم يكن يتورع عن شيء للنيل من اميل اده ، بعد ان ساعده لان يكون رئيس الجمهورية وبصوت واحد ، فكان هكذا يستعمل كل الطرق لاخجاله وتصغيره !

وكان اميل اده يظهر سخطه بطريقة ماضية لهذه التهمة ، ويدفعها عنه ويذهب الى مطاردة الحشيش وزراعته وتهريبه فى كل مكان ، كيما يثبت انه فعلا عدو هذا المخدر المخيف واللذيذ معا .

وكان اتهام اده بزراعة الحشيش كاذبا طبعا ، ولكنه عمل ضجة كبرى فى صحف فرنسا وغيرها ، اذ ليتصور القارىء دهشة الفرنسيين ودهشة لندن ونيويورك وبرلين وغيرها ، عندما تقول الجرائد ان هناك فى الشرق احد رؤساء الجمهوريات يزرع المخدرات ويتاجر بها .

ومنذ ذلك الحين امتدت وتوسعت تهمة وسعاية السياسيين بعضهم بعضا بالمتاجرة بالحشيش ، وصارت التهمة عادية ـ صحيحة او مخطئة ـ حتى بلغت المبالغات الكبرى ، خصوصا عندما وصلت الى القطار الملكي الذى ارسلته الحكومة المصرية لبيروت قبل حرب فلسطين ، يحمل الوفد اللبناني الذاهب لمصر بعد استقلال البلاد للاشتراك بالاجتماع الاول للجامعة العربية . وكانت السيدة المبجلة عقيلة رئيس الجمهورية اللبنانية

قد سافرت يومئذ فى ذلك القطار ترويحا للنفس .

وبلغت الخصومة بين الاديين ، وبين بشارة الخوري ، انهم قالوا ان ذلك القطار كان يحمل كمية كبيرة من الحشيش يهربها الخوريون لمصر، تحت حماية الحصانة الدبلوماسية ، وانه ليس اعضاء الوفد هم مهربوه فقط بل تشترك معهم ايضا السيدة عقيلة رئيس الجمهورية نفسها ، وهي تذهب لمصر لتحرس ولترافق الحشيش الذى تأخذه معها !

***

ولم ينخرط حميد افرنجيه فى الكتلة الدستورية الا بعد وفاة والده قبلان بك فرنجيه الذى كان فى نيابته صديقا ومناصرا للشيخ بشاره الخوري ، ولذلك عندما جاء ابنه نائبا خلفا له ارتبط حالا بالشيخ بشاره الخوري واصبح من مناصريه الاولين ورفيقه السياسي المعزز .

ومنذ البداية ظهرت شخصية حميد افرنجيه قوية متعصبة ، تأخذ الامور باجمعها بطريقة جدية لا تقبل فى امور الدولة والمجلس استهتارا ولا مجونا ، بل تريد للدولة هيبة كانت هذه الاخيرة تضيعها لتقول نكتة ظريفة ، او لتقوم بعمل ارتجالي فيه الهزل والمسخرة .

***

قلنا تألفت الكتلة الدستورية من جانب .

وطبعا تنظمت مقابلها من الجانب الاخر كتلة اميل اده ، ودعي رجالها فى ذلك الحين بالاديين ـ اذ ان الكتلة الوطنية الحالية لم تكن رات النور ، وقامت مزاحمة شديدة بين الكتلة الدستورية وبين الاديين ، على اكتساب انصار من الزعماء المسلمين ، وحضرنا حينذاك سباقا غريبا نشيطا لا يكل ولا يتعب فى هذا السبيل ، فانما كل حزب يقوم ولا يكون فيه زعماء مسلمون لا يمكنه ان يلقب نفسه ممثلا سياسيا للبلاد ، بل كنا نعتبره ممثلا طائفيا فقط . وهنا يجب القول ان بشارة الخوري، مع انه يجمع فى حزبه اكبر العناصر المارونية ، استطاع ان يجمع ايضا عددا من السياسيين المسلمين الكبار .

ومع ان وجهاء بيروت كانوا محسوبين على اميل اده ، مع اعترافهم

بتعصبه المسيحي ، فانهم كانوا يعتبرونه ابن البلد وكان يعرفهم ويعرفوه منذ الحداثـــة .

وكان لحزب الاديين – كعنصر ماروني شديد المراس – روكـــز ابو ناضر ، الملقب بضبع صنين . كان رئيس اركان حرب الحزب ، يدير الامور بحنكة وبراس كبير جدا ، ولا يتورع من النزول وحده للميــدان ينازل الدستوريين باجمعهم .

وكان الرجل مستهترا ايضا وظريفا ، وليس عنده شيء من الصلف، مما جعل خصومه يتهمونه ايضا بحب المال والمتاجرات والاثراء من وراء صفقات متنوعة ، حتى من وراء بيع مقابر سن الفيل الارمنية المشهورة !

وكان الناس على كثرة ما قيل عنه بهذا الصدد يصدقونه فيـــه ، حتى اليوم الذى دخل فيه الوزارة مع خير الدين الاحدب ، واثبت فيهـا تجردا واستقامة لم يكونا منتظرين من رجل له ذلك الصيت العاطل الفظيع

وفى جو مضطرب خلقته الحرب القائمة بين الرجلين الكبيرين بدات معركة الرئاسة للجمهورية الثالثة (سنة ١٩٣٦) ، وكانت الفوضيـــة السامية قد فتحت بابها يومئذ . وهي المعركة التي تتابعت بعد ذلـك وظلت كما قلنا سابقا هائجة صاخبة خلال الثماني عشرة سنة الاخيرة، وهي التى شطرت البلاد الى شطرين سياسيين تسيطر على كل جانب سياسة الاحقاد والضغائن ، ويعمل كل منهما ليس فقط لكســب خصمه ، بل لتحطيمه نهائيا ، وباية وسيلة كانت .

ومع ان تلك المعركة هدات نوعا ما فى هذا الوقت الذى نكتب فيه هذه المذكرات ، بعد اعتزال الشيخ بشارة للرئاسة – ولكن من يعرف ، فقد تبعثها الايام عن جديد ، طالما ان نجلي الاستاذ اده ورثا عن والدهما الروح السياسية الحزبية التى كانت تحارب بشارة الخوري بدون هوادة وبدون شفقة ، وطالما انهما اقسما على ضريح والدهما الا يتركان سياسة الانتقام ابدا ، وخصوصا ان بعض السياسيين يقولون ان عزلة بشارة الخوري، بعد الانقلاب الجديد ، ليس فيها شيء يدل انها عزلة نهائية .

وفى هذه البلاد ليس من احد يعرف ما اذا كان هذا الصواب الذى يراه اليوم لا يراه غدا خطأ .

وكما راينا بعض اعداء الفرنسيين ايام الانتداب ينقلبون الى اصدقاء فرنسا بعد الانتداب !

وكما راينا مثلا ، كمال جنبلاط ، يتهم الاستاذ اميل اده وجماعته بالخيانة العظمى يوم راشيا ويتحالف معه بعد ذلك ويحالف من بعده نجليه يوم الانقلاب ، ثم يتعادى الفريقان عن جديد فى انتخاب الشوف الفرعي للمقعد الذي تركه الاستاذ كميل شمعون عندما صار رئيس الجمهورية اللبنانية (سنة ١٩٥٢) ، كذلك نرى الكثيرين من اعداء وخصوم بشارة الخوري يذهبون اليوم لقصر «الكسليك» يستشيرون ويصادقون !

- ٢٤ -

قصر المفوض الطاهي الصامت بونسو

وكان فى ذلك الزمان قد وصل الى هذه البلاد مفوض سام جديد يخلف المسيو بونسو المفوض السامي الذى كان ملقبا بالطاهي ، وكان معروفا بالرصانة والسكوت وابتعاده عن المجتمعات والحياة العامة المحلية، مما كان موضوع مجادلات ومناقشات عديدة فى ذلك الحين .

ولم يتفق الناس اذا كانت هذه الصفات بالمسيو بونسو تأتيه عن نباهة ودهاء ، او عن طبيعة متقاعسة متراخية كسولة ، وكان بعضهم قد اطلق عليه لقب المفوض الطاهي لما كان يظهره من شغف بطبخ طعامه بنفسه ولتردده فى هذا السبيل على مطعم ابو عفيف المشهور حينئذ فى ذلك الوقت ، يتعلم على طهاته فن شوي الشورما ، وصنع الحمص والفول بالطراز اللذيذ الذى عرفناه فى ذلك المطعم !

وقال كثيرون يومئذ بالمناسبة عن هذا المفوض السامي ان الرجل الذى يحب بطنه يطلسم عقله !

وحفظ المسيو بونسو فن شوي الشورما وعمل الحمص والفول جيداً ، وكان فى اكثر اوقاته يعتزل الى المطبخ بقصر الصنوبر ، يتدبر بيده لغذائه الالوان اللبنانية الجديدة ، وكان يقول انه سيحمل مذكرة عن طريقة طبخ هذه الالوان لفرنسا ، ويجعلها تروج عند الفرنسيين ، مما يعمل بواسطتها دعاية للبنان وتعريفا اليه عن طريق البطن ، الذى هو افضل طريق للبروبغندا بالعالم .

وكان يتكلم بلذة عن مهارته فى الطبخ ، مما كان يجعل مدعويه يتملقونه كثيرا ، وينالون حظوة عنده عندما كانوا يظهرون اعجابهم

بطبخه ، ويظهرون رغبتهم فى تناول الالوان التى يعملها بيده.

وكانت حياة المسيو بونسو المنزلية حياة هادئة ساكنة جعلت قصر الصنوبر اشبه بالاديرة . ولم يعرف الانتداب اياما هادئة ساكنة اكثر من الايام التى قضاها هنا ، والتى لم يتخللها من القضايا والمشاكل غير قضية الامير لطف الله التى رويناها سابقا .

وظل قصر الصنوبر مثل الدير ، حتى جاء الكونت دي مارتل خلفا المسيو بونسو (سنة ١٩٣٥) ، وما كاد هذا الاخير يستقر فى القصر حتى اخذ ذلك القصر يستصرخ السماء من اليقظة الفظيعة التى ايقظه اياها المفوض السامي الجديد ، وقد جعله حالا ـ بعد ذلك السكون الرهيب الكامل ـ عاصفة هوجاء للولائم والحفلات والاعياد الصاخبة حتى الرومانية منها ، وللاجتماعات السياسية وللفضائح المتتابعة !

***

وكانت وزارة الخارجية الفرنسية قد قدمت لنا مفوضها الجديد بسوريا ولبنان الكونت دي مارتل ببيان رسمي اصدرته يوم تعيينه، فصورته كمستشرق سياسي كبير عارف بامور بلادنا ، وذلك ـ على زعمها ـ لاختباراته العديدة المختلفة التى اكتسبها فى البلدان الصينية، اذ كان سفيرا لفرنسا ببكين، ولهذا السبب رات وزارة الخارجية الفرنسية انه يجب ان يكون قد أصبح خبيرا بامور لبنان وسوريا كما لو ان بكين على مرمى حجر من بيروت ودمشق !

وهذا البيان دعا يومئذ الامير مجيد ارسلان الذى كان قد بدا يظهر الكثير من الظرافة وخفة الروح للقول :

ـ يجب ان يكون دي مارتل تعرف على اخواننا الدروز هناك ...

قال الامير مجيد هذا اشارة الى الاسطورة القائلة بتقمص الدروز فى الصين بعد الممات.

وبعد ان كان سلفه المسيو بونسو يتجاهل كثيرا تلك المشادة الحزبية القائمة بين اده وبين الشيخ بشارة الخوري قاصدا بذلك ان لا يجعل لها شأنا كبيرا امام الناس فلا يتخيلونها شيئا حيويا في حياة البلد السياسية رأينا الكونت دي مارتل يتبنى تلك المشادة حالا وبحماس غريب، وذلك في اليوم الاول لوصوله الى هذه البلاد ، ويأخذ في اذكاء نيرانها بجميع الطرق ، ناصبا شباكه حولها ، متجاذبا الرجلين الكبيرين بتلك الخيوط غير المنظورة التي تفرد بها ، وهذا حسب اهوائه وساعات الغضب او الرضى عنده ، مما جعل الناس يتخيلون ــ والحقيقة هكذا ــ ان الكونت دي مارتل كان يجد في مشادة السياسيين المتزاحمين موضوع لهو وسلوى من جهة ، وموضوع سخرية وتلاعب بسياسة البلاد وبرجالها من جهة ثانية ، محاولا ــ كما اتضحت نواياه بعد ذلك ــ جعل كل سياسي في لبنان موضوع هزء من جانب الاهالي ، ودمية يلعب فيها كما يشاء !

فالمسيو دي مارتل كان ذكيا ، وكان ساخرا ، ثم ــ وقبل كل شيء ــ كان ملتهيا لاهيا ، يلعب ويتلاعب بكل الامور ، ولا يحترم شيئا ولا يحرم شيئا .

لقد كان الاستاذ الاكبر في مدرسة المستهزئين وهي مدرسة فتحها كبيرة وسيعة في السرايات بهذه البلاد !...

ومع ذلك بين المفوضين الساميين الذين تعاقبوا علينا ، لم يمارس مفوض سام صلاحياته الكبرى الديكتاتورية بطريقة هازئة ساخرة ونابهة ايضا مثلما فعل المسيو دي مارتل !

لقد كان دابه أن يجعل كل شيء موضوع عبث وسخرية ، وبين المفوضين الساميين الذين تعاقبوا علينا لم يحاول احد حتى الجنرال سراي نفسه اخجال أهل السياسة وتصغيرهم وتحقيرهم اكثر مما فعل دي مارتل !

وكان يكتب كل ما يجول في راسه الى صديقته الحسناء ، مدام دي كاركوف ، وقد كان انتقاها بين سيدات السلك الديبلوماسي ، ومع كل ما كان له من سلطان على الناس ، كان لها هي من سلطان عليه ، وكانت شقراء وصبية وجشعة ومغامرة ، جاء بها زوجها من بلاد الروس ،

واصطفاها دي مارتل ، وجعلها تلعب تجاهه دور « البومبادور » تتدخل في السياسة وتبيع رجالها بالمزاد العلني ، ولا يعمل الصديق شيئا بدون مشورتها ورضاها ؛ وهي تحيط نفسها بصفوةمن اهل المتاجرات والاستثمارات ، لا يحرمون شيئا فيها .

ومع ان الصديقين كانا يتلاقيان يوميا وفي كل مكان خصوصا في البيوتات الكبرى التي كانت تسهل للدكتاتور اجتماعاته اليها ، فقد كانا ايضا يوميا يتبادلان الرسائل ، وهي رسائل كان يضمنها الصديق كل اسرار الدولة وخفاياها وكان قد كتب لها بالصدد الذي نتحدث عنه الان يقول :

« يكفيني ان ابتسم لهذا السياسي ، كيما ارى سحنة خصمه تنقلب الى سحنة شيطان مرتعد ، مما يجعلني اعرف مقدار ما يجعل الحسد صاحبه بشعا قبيح المنظر ! »

وكانت له روح عابثة ، ولربما شريرة تتلذذ في خلق المشاكل والمشادات والمنازعات ، ليس بين اهل السياسة فقط ، بل ايضا في كل الحقول .

وعلى وجه الخاص كان يتدخل في امور الازواج والعشاق ، ويجد لذة خاصة في كشف الستر عن الحسان ، وخلق الفضائح لهن ، حتى قيل انه كان يشي ببعض الزوجات لازواجهن؛ فقط ليثير الفضائح ، ويلتذ ويغتبط لحكاياتها ، كما وانه كان رسول التفرقة والتعصب في الاوساط الاجتماعية العالية التي فتح لها باب قصره على مصراعيه ، ترتاده جماعات مختلفة منها ، وذلك بعد ان كان ذلك (الباب) مقفلا محترما بايام سلفه؛ كانه باب « السكرستيا » !

ووصل به حب الشر انه كان يغذي بعض الصحف من الجانبين، كيما تتهاجم وتتشاتم وتتضارب بعضها مع بعض !

ثم لا نبالغ ايضا عندما نقول انه في عبثه بامور اصدقائه البيتية افسد الحياة الاجتماعية بالبلد،خصوصا بعد ان جعل قصر الصنوبر ملتقى اهل المغامرات وسيدات الحب والغرام .

وكانت تلك البيئة التي فتح لها بابه وجدت في ذلك القصر من

المغريات وطرق العبث ما جعلها تعيش فى جو حافل بالرزايا .

وكانت لهلفة هازلة ساخرة ضاحكة دوما حتى فى الامور الخطيرة جدا .

وفى كل صباح حالا عندما كان يدخل مكتبه كان اول سؤال يلقيه على اول موظف يمتثل امامه :

ـ هل من جديد بين بشارة واميل ؟

وفى اليوم الذي لا يكون فيه جديد بين بشارة واميل ، كان دي مارتل يغضب اولا ، ثم يخلق بينهما خلافا جديدا .

كان يحتضن ـ على الاقل ـ الاستاذ اده جهارا ، ولكنه كان يسلط عليه فى الخفاء صنيعته كولمباني مدير الامن العام المخيف ، الذي ارسلته باريس لهذه البلاد على اثر فضيحة ستافسكي ، وكان قد لعب فيها دورا مشبوها ، قيل من ورائه انه هو الذي دفع المحتال الشهير للانتحار ، بعد ان سلمه بيده المسدس ليقتل نفسه امامه ، وذلك كيما لا يبوح بأسماء الرجال العظام الذين كانوا شركاءه فى اعمال النصب العظيمة التي كان يقوم بها !..

وكان دي مارتل يبعد بشاره الخوري عن القصر ولكن يرميه بين احضان مندوبه فى الحكومة اللبنانية ...

مع هذا الفارق ان بشارة الخوري فى نباهته لم يكن يستسلم بكامله لاحد وكان دوما ، فى محالفاته واتفاقاته مع الفرنسيين والسياسيين اللبنانيين فى ايام الانتداب ـ ومع كبار الساسة والملوك والرؤساء بالبلدان العربية ـ يترك جزءا كبيرا من نفسه ملكا خاصا له .

[٢٥]

الكونت دى مارتيل مجموعة متناقضات

وعمل دى مارتل انتخابات مجلس الخمسة والعشرين (فى كانون الثاني ١٩٣٤) فكان يجد مجالا عظيما محبوبا للاغتباط والتلذذ فى تلك الانتخابات ، عندما كان يحاور ويداور ويتآمر على المرشحين ، ويجعل ترشيح كلا منهم يكلفه ثروته وثروة غيره ، فلا يصل للمجلس الا منتوفا ليس عليه ريش !

واثناء انتخاب مجلس الخمسة والعشرين ، اجيز لمدير الداخلية يومئذ الاستاذ صبحي ابو النصر — الذى كان رئيس مكتب الاقتراع ببعبدا ، حيث كان لدي مارتل مرشحون خصوصيون — بقراءة اوراق التصويت كما يشاء ، فكان مثلا يقرأ اسم روكز ابو ناضر فى الاوراق التى عليها اسم اميل لحود ، وهكذا دواليك !

وهذا ما دعا اميل لحود فى اليوم الثاني، عندما جاء لقصر العدلية ، ان لا يجيب المباشر الذى كان يناديه كيما يحضر جلسة هو محام فيها . ولما نبهه بعضهم لذلك ، قال :

— ولكن انا اسمي روكز ابو ناضر ... هل تعرفون باسم الناس اكثر من صبحي ابو النصر ؟

ولكن فى انتخابات مجلس الخمسة وخمسين ، التى تلت انتخابات مجلس الخمسة وعشرين ، كان دى مارتل اول من افسد الانتخابات والناخبين بوجه عام وبطريقة علنية ، عندما جعل الاصوات تشرى وتباع فى الاسواق على عينك يا تاجر . وهو الذى كان يجعل كل مرشح يعمل هكذا ، بعد ان يفرض عليه مبلغا كبيرا من المال يصرفه فى شراء الناخبين، فيشجع على المتاجرة بالاصوات . وهو الذى كتب ذات يوم بهذا الصدد لصديقته الحسناء ساخرا هازئا ، يقول : « انني اعمل عملا انسانيا، فليس هناك من وسيلة لعبود عبد الرزاق ولاميل ثابت ولغيرهما من المرشحين

الاغنياء ـ تفتح فيها الصناديق وتجعل الناخبين المساكين والصحافيين المفلسين يستفيدون الا هذه الوسيلة . كما وانه يجب ان تعلمي ان حصتك فى كل هذا دوما مسوكرة وقد ضمنتها لك منذ الساعة الاولى ! »

وكان يبتهج جدا عندما كان يعرف ان اميل ثابت مثلا فتح صناديقه وذلك لما كان يعرفه فيه من يد ماسكة .

وكان من جهة اخرى ، بالرغم عن سياسته الهازئة فى حياته الهزيلة وحكمه الساخر ، يشتغل كثيرا ويحقق المشاريع الكبرى التى لم يسبق لغيره من المفوضين السامين الافتكار بها .

وجعل نفسه فى سياسته محور الدائرة ومصدر السلطات ، اكثر بكثير مما كان يفعله المفوضون السامون الذين قبله ، حتى العسكريين منهم ، كالجنرال غورو والجنرال ويغان والجنرال سراى الذين كان عندهم على الاقل بعض الاحترام لبعض الاشياء .

ولكن دى مارتل لم يكن يحترم شيئا ، حتى ولا حرمة قصره حيث ترك ذات يوم نجله الطائش يحيي حفلة سباحة فى بحيرة ذلك القصر ، سكب فيها كمية كبيرة من اكسير «الكانتاريد» الذى يثير الشبق ، فما كاد السابحون والسابحات يستقرون فى مياه البحيرة المعطرة المهتاجة ، حتى آخذوا يشعرون بالشهوات تتآكلهم وتفقدهم عقولهم ... يتبع ذلك مشاهد وروايات تهتكية يجد دى مارتل بمشاهدته لها اللذة التى يجدها كل كهل فاسق امام مشاهد كهذه ، ويلهو هذا النيرون الجديد ويغتبط وقد جلس على مقعده الوثير ، ينظر الى هذه الخلاعة مقهقها ، وعيناه تزدادان بريقا واشتهاء !

ومع هذه الغمرة من الاعياد والحفلات والمغامرات المتتابعة ، كان دى مارتل يظهر نشاطا سياسيا واداريا وعمرانيا كبيرا ، لو وجهه نحو الخير لكان جعل للانتداب استقرارا اقوى ولفرنسا مكانة اعلى .

وكان ذلك النشاط يتناول المرافق العديدة ومواضيع كثيرة جدية ، وكان من جهة مثلا ، يحكم بقوة وسيادة ، ومن جهة اخرى يفسد ويخدع ويهزل !

هنا يوسع ميناء بيروت ويجعلها ميناء عصرية ، ويمد سكة حديد الجزيرة ، وينشىء اول مطار فى هذه البلاد ، ويفتح الشوارع بالمدينة ، ويساعد من الاموال المشتركة المشاريع الوطنية الكبرى .

ومن هناك يذكي نار البغضاء والاحقاد بين الرجال السياسيين الوطنيين المتزاحمين ، وبين الاحزاب المتخاصمة .

ثم فجأة يرمي الى الحضيض الرجال الذين يكون قد رفعهم بالامس ، ويعود بعد حين يرفعهم ليرمي الذين رفعهم قبلهم ويرميهم اليوم .

قال فى رسائله لصديقته الحسناء : «لا يجب ان يرتفع اى رجل فى هذه البلاد فيصل الى اكثر من زناري » .

وهذه السياسة الاستهتارية الهزلة التى تتبعها الكونت دي مارتل ، جعلت الفرنسيين يفقدون كل هيبة ، مما جعل الناس يخطون الخطوات الاولية الصعبة عاديا – نحو الوقوف بوجه السلطات الحاكمة فيهم ، فاخذوا يتطاولون على الفرنسيين ، ويجابهونهم بمعارضات سياسية لم يكن يجسر عليها احد قبل ذلك ، وهي معارضات كان الرجل الرابع يقودها ويضع خططها .

ومع ان المفوض السامي الجديد المسيو دى مارتل كان متحكما وقويا ، فانه كان ايضا – عن عدم اكتراث بالاكثر وليس عن نفس حرة ولا عن جبانة – يقتبل ولا يقف بوجه العناصر الغاضبة الثائرة ، اعتبارا منه ان الانتداب اقوى منها ، ويستطيع وقت الخطر ان يظفر بها ، فلماذا يعمل لها اهمية بملاحقته اياها ويجعل رجالها ابطالا ؟

فالكونت دى مارتل كان قبل كل شيء يكره الابطال ، ولا يريد فى هذه البلاد خلق احد منهم

وكان دى مارتل فى روح المغامرة السياسية التى اتصف بها وفى عدم خوفه من طغيان الوطنية على الانتداب اول من شجع الوطنيين فى سوريا ولبنان عندما طلب عقد معاهدة بينهما وبين فرنسا .

وكانت طبعا المعاهدة تقضي بزوال الكثير من امتيازات وتحكم الفرنسيين فى هذه البلاد .

ومع ذلك فان دى مارتل – وليس الوطنيون السوريون – اول من

قال بالمعاهدة ، واول من شجع الوفد السوري للذهاب لباريس ومفاوضة وزارة الخارجية فيها ، ولم يكن الناس هنا قبل ذلك يأملون انهم يصلون في يوم قريب الى مفاوضة فرنسا ـ السيدة الحاكمة فيهم ـ بعقد معاهدة معها ، تقول بالاستقلال مهما كان نوعه .

« لا اله الا الله ، والبطريرك عريضة حبيب الله » !

لم يكن احد فى هذه البلاد ـ خصوصا بين السياسيين المسلمين بسوريا ولبنان ـ يعتبر ان سياسة دي مارتل المستهترة الهازئة ، ستجعل بكركي صديقة فرنسا الاولى وقاعدة نفوذها فى هذا الشرق منذ تسعمائة سنة ، تصل لان تديروجهها نحو دمشق ، ونحو زعمائها الوطنيين، اعداء فرنسا الالدودين ، العاملين دوما لطردها ورميها بالبحر !

ويأتي شكري القوتلي وجميل مردم وفخري البارودي والدكتور شيشكلي ولطفي الحفار ونسيب البكري وغيرهم وغيرهم من بطاركة الوطنية وزعماء الثورة السورية ـ يقودهم رياض الصلح ، الذي كان قد اصبح يومئذ « غوبلز » القضية العربية وحامل اختامها ـ يأتون لبكركي يوم عيد البطريرك، ويقلبون ذلك العيد المفروض فيه السكون والسلام، الى مهرجان صاخب وطني «كزونوفوبي» معاد لفرنسا ، متحديا انتدابها ، طالبا استقلالا ناجزا ، جاعلا بكركي تتنكر فيه رسميا للام الحنون ، مع انها كانت تربطها بها تقاليد ومصالح وصداقة الاجيال .

ويحمل يومئذ البطريرك عكازه وينادي بخروج بكركي على فرنسا، وبتعاونها الكامل المطلق السياسي والوطني مع الوطنيين السوريين ، وتعلن بكركي استنكارها للمنتدبين ، والمطالبة بجلائهم عن هذه البلاد !

***

اما سبب هذا المهرجان، وارتماء بكركي يومئذ بين احضان الوطنيين السوريين خصوم الانتداب الفرنسي ، فهو قرار الكونت دي مارتل ـ بالرغم عن معارضة بكركي الشديدة واهالي البلاد ـ بحصر الدخان، واقامة ريجي عليه ، واحتكار شركة الريجي وحدها صنعه والمتاجرة به وتحديد زراعته فى البلاد .

وقد ثار البطريرك عريضة على هذا القرار دفاعا عن حرية زراعة

وتجارة الدخان للناس عامة ، وبنوع خاص للرهبانيات التي تملك حقولا وسيعة لهذه الزراعة ايضا .

واشتد الخلاف بين بكركي ودي مارتل فى هذا الصدد فخلق عداء بينهما قويا لدرجة اهابت ببكركي لاعلان الحرب على الانتداب ، مما لم يكن احد يعتبره ممكنا قبل ذلك، ومما جعل رياض الصلح والوطنيين السوريين يجدون فى هذا فرصة غالية غير منتظرة يجب انتهازها، ساعدهم بذلك ذاك المغامر المخيف خليل معتوق رجل البطريرك الاقرب ، الذي اسماه بعضهم « راسبوتين» بكركي ، فيأتون للبطريرك فى عيده ، ويقيمون له ذلك المهرجان التاريخي الذي رمى ببكركي بين احضان السوريين ــ ولكن الى حين طبعا !

فانما غبطته فى وطنيته الصحيحة الكاملة كان معتادا دوما انه يجعل سياسته تتطور مع تطور الحوادث ، تجاه المصلحة اللبنانية قبل كل شيء ، كما يفهمها هو .

وفى المناسبة ، وكيما لا نترك شيئا لا نقوله فى هذه المذكرات ، يجب ان نذكران غبطته وجد فى حدث جميل قام قبل ذلك بدمشق تكريما له : سببا جعله يتعاون مع السوريين بطريقة صاخبة غاضبة .

وهذا الحدث، هو الذي كان المقدمة لمهرجان بكركي ، وهو حدث لم يسبق له مثيل فى تاريخ النصرانية بهذا الشرق ، اغتبط له صاحب الغبطة لدرجة جعلته يفتح ذراعيه للسوريين، ويوافق بسرعة على سياستهم الوطنية الاستقلالية المعادية لفرنسا ولانتدابها .

كان البطريرك فى محاربته للمسيو دي مارتل قد حمل على المجلس النيابي اللبناني يومئذ حملة شعواء عندما اقر ذلك المجلس مشروع الريجي ، ولم يخالفه غير نواب مسلمين ، وصرح غبطته على اثر ذلك لصاحب هذا الكتاب انه ليس غير المسلمين عندهم وطنية ، وليسوا عبيدا للفرنسيين ، كما هم النواب المسيحيون بالمجلس بلبنان .

وحمل فخري البارودي هذا التصريح بحماس غريب ، وهو يجد فيه سلاحا يحارب به الوطنيون الفرنسيين ــ اذ ان هؤلاء هذه المرة من بيت ابيهم ضربوا ــ حمل فخري التصريح وذهب للجامع الاموي يتلوه فى صلاة الجمعة ، فتحمس المؤمنون المصلون ، ودعوا للبطريرك وهللوا

وكبروا ، واخذوا يهتفون بالمسجد وفى الاسواق ، بعد ان تجمعوا بهيئة تظاهرة وطنية « لا اله الا الله ، والبطريرك عريضه حبيب الله ! »

وكان بعضهم يزيد على هذا الهتاف بقوله :

– والشيخ تاج الدين عـــدو اللـــــه !

وكان الشيخ تاج الدين رئيس الدولة السورية يومئذ ، وقد انفصل عن الوطنيين وعاداهم ، واخذ يحكم باسم الانتداب ولمصلحته ..

قلنا ، اغتبط غبطته لهتافات وادعية المصلين فى الجامع ، فكان من الطبيعي ان يجعله ذلك ايضا يقبل بحماس على التعاون مع الوطنيين المسلمين ضد فرنسا ، وقد جعله المسلمون فى الجامع الكبير «حبيب الله» ، مما يجب ان نحسبه اكبر واسمى ثناء واعتراف عرفه رئيس ديني مسيحي من المسلمين !

***

ولكن ماذا كان موقف الزعماء السياسيين الموارنة من مهرجان بكركي ، واخصهم الفارسان الاغبران اده والخورى ؟

لم يكن اده ببكركي ولا احد من انصاره ، هذا اذا لم نحسب منهم صديقا جديدا له ، كان لا يمكنه بالنسبة لروحه التواقة لكل جديد ، ولدخوله القريب فى الميدان السياسي ، وللنزعات المتخالفة التي كانت تساوره ، والتى كان يعمل على توفيقها بعضها ببعض ، مهما قد تكون عليه من تناقض وتعاكس، وللاطماع الكبيرة التى اخذت تتملكه وتقود اعماله ....

كان هناك رفيق الاستاذ اده الجديد ، الذى سيكون بعد الان فى هذا الكتاب ما اسماه اللبنانيون «مكيافيلي» لبنان : حبيب ابو شهلا .

لم يكن مضى زمن طويل على تعيين الاستاذ الدكتور بالحقوق الشاب الوردي حبيب ابو شهلا عضوا ببلدية بيروت ، حيث اثبت حالا شخصية قوية متلاعبة ، تكهن لها العارفون انها ستصل ليوم تتمكن فيه من جعل الاسود ابيض والابيض اسود ، كما ظهر منها بسرعة بوادر كثيرة من الحذاقة واللباقة يساعدها بذلك شخصية تفرض نفسها بالطرق المختلفة ـ حيث

تريد ان تكون – مع فتوة ناضرة ووجه جميل وكلام ظريف لبق ويد مبسوطة ومغامرات غرامية ، تجتذب رواياتها دوما الناس نحو ابطالها .

هو وحده من اصدقاء وانصار اده كان ببكركي يوم المهرجان .

ولم يكن يستطيع ان يفعل غير ذلك ، طالما انه ومنذ ذلك الحين ، كان يفرض على نفسه ان يكون من جميع العقائد الوطنية ، ومن جميع الاحزاب السياسية ، انتدابيا في المفوضية ، ولبنانيا في سراي البرج ، عربيا في دمشق ، ليس صديقا كبيرا للموارنة عند المسلمين ، وليس صديقا كبيراً للمسلمين عند النصارى ..

وكانت الكتلة الوطنية السورية في ذلك الزمان تقوى وتشتد. وكان قد اصبح من المعروف ان الفرنسيين اخذوا يتصلون بها ، وان مهرجان بكركي قد يكون فوزا لها ، فكيف يمكن لهذا الانتهازي النابه الفهيم ان يترك فرصة مثل هذه تفوت ، وهو الشمام رقم اول الذي يعرف ما سيصير بالمستقبل ؟

لذلك جاء كما قلنا اعلاه الى مهرجان بكركي ، ولاحظ الناس انه وحده بين انصار الاستاذ اده اشترك في هذا المهرجان ، ولكن بطريقة لطيفة ومتحفظة معا .

اذ قد لا ينجح مهرجان بكركي

والسياسي الفهيم ، هو الذي لا يتظاهر مع سياسة قد لا يكون اكيدا من نجاحها !

ولكن اذا لم يكن هنا في مهرجان بكركي غير الاستاذ ابو شهلا يحمل شارة صديقه الرئيس اده ، فقد كان هناك الدستوريون باجمعهم ، وقد وقفوا في الجبهة في مقدمة المتحمسين والخطباء ، وذهب كل منهم الى ابعد مدى في اظهاراغتباطه وتأييده لهذا التعاون السوري المسلم – اللبناني النصراني – الوطني المعادي للفرنسيين .

وقد بلغ الحماس في الدستوريين مبلغا بعيدا جعلهم يقومون بمظاهرات عدائية كبيرة للفرنسيين، يشجعهم بذلك ابتسامة زعيمهم بشارة الخوري ، ولكن من بعيد جدا من زاوية قصية اعتزل اليها في قاعة الديوان البطريركي !

فانما الرجل عرف دوما ان يكون معتدلا ، وان يحسب حساب الخير كما يحسب حساب الشر .

وكان دوما ابعد نظرا من غيره ، لا يقول اليوم كلاما يعرف انه فى اليوم الثاني قد يضطر الى انكاره او ان يقول عكسه ...

وقد كان يعرف ان هذا التعاون بين اعداء الفرنسيين الدائمين وبين بكركي عدوتهم الموقتة المرتجلة لن يدوم كثيرا ، لذلك ، آخذ بشارة الخورى فى مهرجان بكركي جانب المستمع المجبذ الساكن ، بدون ابداء اى مجهود ، وهو يتبع بذلك سياسة الحكماء القائلة «انتظر ثم انظر !»

وفى مساء ذلك اليوم ، عندما عاد البكركيون ـ كما اسميناهم يومئذ ـ الى بيروت ودمشق ، ذهب المسيو دى مارتل الى مربع «الكيت كات» ترافقه صديقته الحسناء ، واخذ يسكر ويرقص ويهزل ويقوم بظاهرات صاخبة يريد من ورائها افهام الناس الذين ـ لربما ـ قد كانوا يتصورون ان مهرجان بكركي ازعجه واغضبه ، ان ذلك المهرجان لا اهمية له عنده ، ولا يسال عنه !

وفى مناسبة ادمانه على الخمرة فى تلك الليلة ، اخذت صديقته تتململ علنا ، وتشكو من حركاته وهياجه وعربدته ، فغضب عليها ونعتها عاليا امام الحضور بالمراة العمومية ، وقال لها ختاما لشتائمه :

ـ اني لا اسال عنك كما لا اسال عن البكركيين !

ولكن الحقيقة ـ كما يخيل للملاحظين ـ آن البكركيين كانوا هاجسه فى تلك الليلة ، مما جعله يشرب كثيرا ويخرج ـ وهو ممثل فرنسا فى هذه البلاد ـ عن كل رصانة، ويتشاجر علنا مع صديقته ، التى انتهت اخيرا بان صرخت بوجهه على مسمع من الحضور :

ـ كم يجب ان يكون صاحب الفخامة ازعرا وقليل الادب !

- ٢٧ -

الرجل الذى جاء بكنوز كسرى

واذا فرضنا ولم يكن دي مارتيل ازعر كما نعتته صديقته ، فقد كان هناك فارس للمغامرات ، جريء مخيف ، كان قد عاد مؤخرا من بلاد العجم يحمل كنوز كسرى التي وصلت اليه بطرق غريبة ، ومن وراء مغامرات تشبه مغامرات علي الزيبق ـ كان هذا الرجل قد اخذ على نفسه ان يتولى تعريف الكونت دي مارتل كازعر و « كانغستر » فاحاطه هنا وبباريس بعد خلافه معه بفضائح لا نهاية لها ، وظل يلاحقه ويطارده حتى شهره بين البشر ، وجعله يموت حسرة .

كان ذلك المغامر من محترفي السياسة المتلاعبين الاذكياء ، ومن القائلين بالوطنية والنزاهة عندما تكون هناك اسباب مناسبة تدعو لهذا القول . وكان من المشاغبين الاولين ، تستلفت شخصيته الابصار وكان محبا للظهور لدرجة متناهية ، يعرف كيف يحيط نفسه بهالة من الفخفخة والجاه والاموال والجواهر يرميها فى وجه الذين يريد منهم ان يعظموه ويمجدوه ، وخصوصا بوجه الذين يريد منهم ان يزيدوا ثروته ويرفعوا شانه ، اذ انه كان ضعيفا جدا امام المديح والاطراء .

وكان دي مارتل قد اسماه « النا باب » وهو اسم هندي يعطونه للمهرجاه الكريم السخي ، الذي يرمي بالجواهر والمال على الطرقات ، اسماه ده مارتل « النا باب » بالنسبة لتلك الثروة التي كان يتمتع بها ولجمهرة الحسان اللائي جمعهن حو له يقلدهن الحلى والعقود والهدايا الجميلة ، والفساطين الثمينة، والجوارب الحرائرية النادرة المثال ، وصناديق الحلويات، والشكولاته الفخمة جدا التي كانت تصله من باريس اسبوعيا مع رسل مخصوصين .

وكان « النا باب » ـ قد جاء يحمل من ايران ، عدا عن كنوز كسرى، ستة وثلاثين الف كيس تنباك عجمي اصلي ، كان يريد ان يبيعها هنا

بالسعر الذي يوافقه ، مما كان يجعله ــ لو استطاع ــ ان يزيد على مجموعة الحسان اللواتي احطن به من كل جانب ، مئة حسناء وحسناء جديدة ، دون ان يعرضهن كثيرا للخطر ، لانه كان ايضا من اركان « جمعية عدم الامكان » !

ومما كان يجعله يزيد على عدد الصحافيين والسياسيين الحاملين لوائه الناشدين سجاياه ومكارمه مائة الف داعية جديدة . ومما كان يجعله ايضا ، وفى كل ساعة ، يحقق ما قاله عنه شاعر الارز المعروف شبلي الملاط :

الواهب المئة الصفراء معتذرا
كما رووا عن ملوك منذ ازمان !

قلنا وكان « النا باب » يريد بيع تنباكه بالثمن الذي يوافقه ، معتمدا على مصادقة الكونت دي مارتل ، اذ لا يمكن لرجل لذات وبهجات وعبث وهزار مثل دي مارتل ان لا يصادق مغامرا فظيعا كريما وقحا سخيا متلاعبا مشاغبا تحيط به مئات الجميلات مثل خليل معتوق .

قلنا ، وكان « النا باب » ، او بالحري راسبوتين لبنان ، يريد بيع تنباكه كما يشاء ، ولكن دي مارتل قفل امامه هذا الباب ، وذلك عندما انشأ بالرغم عن الاهالي شركة احتكار الريجي الفرنسية بالاصل ، والتي رفضت حالا شراء اي تنباك لمعتوق . اولا لاسعاره الغالية ، وثانيا لسياسته المعادية لفرنسا فى ذلك الحين ، مع انها عادت بعد زمن طويل فقبلت شراء جزء صغير من التنباك بثمن زهيد هي التي حددته ، وذلك بعد ان عاد معتوق ــ انما لمدة قليلة ــ الى الفرنسيين تائبا !

وهكذا لم يفعل الكونت دي مارتل شيئا يساعد صديقه بهذا المعنى ، بل بالعكس حاربه فى تنباكه .

ولم يستطع صديق معتوق ، حبيب باشا السعد ــ وهو الرجل الوحيد الذي اخلص له معتوق حقيقة وظل على وفائه وامانته له ــ لم يستطيع حبيب باشا ان يعمل شيئا يساعد به صديقه فى قضية التنباك .

حينئذ غضب « النا باب »

غضب بالجراة والمكارم التي غضب فيها بايران ، وقت حمل ثروته وثروة صديقه السردار اسعد ، وصديقه الاخر تيمورتاش وزير المالية

عندما غضب عليهما الشاه واعتقلهما وقرر اعدامهما ـ فدبر معتوق مؤامرة لانقاذهما ، كلفته مالا كثيرا ، أخذه طبعا من كنوز السياسيين الكبيرين ، اللذين كانا قد سلماه ثروتيهما امانة لهما ، يحفظها لديه لبينما يخرجان من السجن، او انه يسلمهما لاهلهما اذا وقع الاجل المحتوم بهما.

وافتضحت المؤامرة ومات السردار وتيمورتاش بالسجن بامر من الشاه طبعا ، وهرب معتوق معما تبقى معه من كنوزه وكنوز غيره !

وجاء الى دمشق ثم لبنان بجاه وفخفخة ، تتبعه قافلة تحمل اخراج الذهب واكياس الاحجار الكريمة ، وتحمل ايضا اسطورة « النابابب » العائد لهذه البلاد ، يحمل النجوم والعجائب من السند والهند وبلاد فارس .

***

وطارد معتوق دي مارتل هنا وبباريس ، تلك المطاردة المتتابعة المخيفة التي جعلته يصرف مئات الالوف فى سبيل تقوية اعداء المفوض السامي فى سوريا ولبنان .

ودفعته الحيلة لشراء صداقة وضمير صديقة دي مارتل ، وهي صداقة وضمير كلفاه مبالغ كبيرة ، وجزءا محترما من جواهره اهداها اياها ، وانتهى معها بمساومة دنيئة جعلتها تبيعه رسائل دي مارتل لها ـ وفيها ذكر الفضائح السياسية التي تعرفها ـ وقد نشر منها معتوق بعد ذلك العدد الاوفر فى جرائد باريس ، عندما ذهب اليها يثير الاوساط السياسية والوزارية والصحافية الباريسية على دي مارتل .

وكان هذا الاخير يأتي فى رسائله من هنا وهناك غالبا على ذكر امور سياسية فضاحة ، تدل على نزعة ذاك الرجل نحو التجني على الوطنيين، والسعي المستديم لتحقيرهم وجعلهم صغارا امام الناس .

كتب لها مثلا بعد مهرجان بكركي الاستقلالي يقول : « الم اقل لك ان فرنسا مخطئة فى سياستها السابقة بتقوية البطريرك الماروني لدوام نفوذها فى هذا الشرق ، وفى اعتبارها انه اذا تخلى عن هذه الصداقة اضاعت ذلك النفوذ ؟

« والان بعد اجتماع بكركي وخروج البطريرك علينا ، نرى فرنسا

قد بقيت سيدة البلاد ، وبقي الموارنة اصدقاءها » .

وكتب لها فى رسالة أخرى : « اذا لم اضع اده ضد بشاره الخوري ، و بشارة الخوري ضد اده ، واذكي فيهما نار البغضاء والتزاحم ، فقد يفعلان ذلك بدوني ! »

وكتب فى رسالة ثالثة : « خذي من صديقك راسبوتين (اي خليل معتوق) كل ما تستطيعين ، ولكن بسرعة ، لانني قررت ان اتخلص منه ، فهو وقح جداً ، وخرج عن الدور الهزلي الذي طلبت منه ان يلعبه مع الوطنيين السوريين .

« كنت دوما تقولين أن صداقتي لك يجب أن تجعلك صاحبة ملايين ، والان اني اعرف انك جمعت بعضا من هذه الملايين ، ولكن يجب ان نجد لك طريقةتضاعفين فيها ثروتك ، لهذا سأجعل الانتخابات النيابية القادمة بابا جديداً تكسبين فيها ما تريدين ، فلا يصل نائب للمجلس الا بعد ان يكون زارك وعمل واجبه . ومن هذا ترين كم انا احبك ! »

وكتب لها ايضا تلك الرسالة التي كان نصها السبب الرئيسي لاستدعاء الوزارة الفرنسية للمسيو دي مارتل من بيروت . كتب لها ـ قبيل انتخابات رئاسة الجمهورية اللبنانية (سنة ١٩٣٦) بيومين يقول : « ساجعل المرشحين لا يصلان ليوم الانتخابات الا وكل منهما يكون فقد عقله او فقد ماله، أو فقد الاثنين معا . واني اؤكد لك ان هذه هي الفرصة المناسبة جدا التي يجب ان تنتهزيها لتصبحي كثيرة الملايين! »

هذه رسائل مستغربة هازلة محتقرة ، جميلة وقبيحة معا ، لو كنا نستطيع الوصول الى نصوصها كاملة لكانت تؤلف لوحدها صورا مستغربة مدهشة لحياتنا السياسية فى ذلك الوقت ، ولما كانت عليه الشخصيات الكبيرة فى هذه البلاد من مدهشات ، ومن نفوس مجهولة صغيرة لم نكن نعرف عنها شيئا تاما ، وكنا ننخدع بظواهرها البراقة والجبروت التي يخيل لنا انها تحمل صولجانه .

وقد ظهر دي مارتل فى تلك الرسائل ـ كما هو بالحقيقة ـ رجلا مخيفا فظيما ، لم يراع لا الشر ولا الخير ، ولا الحسن ولا السيء ، مما جعل الناس فى هذه البلاد يحارون بامورهم ، ويتساءلون اذا كانت

فرنسا فقدت عقلها كيما ترسل الى هذه البلاد ممثلا لها رجلا مستغربا كالكونت دي مارتل .

والناس عندنا ، بالنسبة لماضى المتاجرة والخداع والغش السياسي بينهم وبين الاتراك ، أو انهم مفسودون نهائيا ، او ان عندهم استعدادات كاملة كيما يتعمدوا ويقترنوا بالفساد .

وجاء هذا الرجل الساخر يحكم فيهم ويبيح لهم كل شيء فتبعوه.

ولقد انتهى معتوق نهاية لم تكن منتظرة من رجل جابه دوما الحقائق فى حياته ، فقد وصل ذات يوم اخيرا لان يكون من اتباع داهش الساحر المشهور الذي خلق فى بيروت جماعة جديدة تتبعه كرجل فوق العادة ، وتقول معه بالمذهب الداهشي الجديد ، الذي يرتكز على اعمال السيما والسحر وقراءة الغيب ، قلنا وصل معتوق ذات يوم لان يكون من اتباع داهش ، وكان قد ذهب اليه مؤمنا به طالبا منه ان يعيده الى الشباب يتمتع ايضا بحب النساء ، ذلك الحب الذي كان ربه المعبود ، وقد كرس حياته باجمعها تقريبا لملذاته وشهواته !

واخذ من الساحر العظيم بعض العقاقير تعيده الى صباه ، ويظهر انه اكثر من تناولها فاصابته ذات ليلة نوبة قلبية ذهبت به وحيدا منفردا فى احدى غرف فندق سان جورج ، ليس بقربه احد !

وانتهى هكذا معتوق ، وانتهت ثروته التي ضاعت بعد موته بين الذين تراكضوا من كل جانب يتخاطفونها .

- ٢٨ -

الرجل الثالث عشر : الياس السلاف

تجلت أكبر ظاهرة لاستهتار وسخرية الكونت دي مارتل للجمهورية اللبنانية ولكرامتها في انتخابات الرئاسة لاميل آده (كانون الثاني ١٩٣٦)

ففي الجو المتاجر المتلاعب المشاغب الهازل ، الذي خلقه دي مارتل، وذلك في اقصر وقت ممكن بعد وصوله لبيروت، جاءت انتخابات الرئاسة.

وكانت انتهت مدة حبيب باشا السعد المعينة ، وجرت في مطلع كانون الثاني ١٩٣٦ انتخابات شكلية للمجلس الذي تكلمنا عنه سابقـــا ، والذي كان مؤلفا من ٢٥ نائبا ، جاء اكثرهم عن الطريق المختصرة الناجعة التي توصل للنيابة دوما ، والتي جعلها دي مارتل عامة ورائجة وعلنية ، وهي طريق المال .

ولم تكن النيابة يومئذ تكلف صاحبها ثلاثمائة او اربعمائة الف ليرة كما اعتلت سوقها في ايامنا هذه .

ولكنها على كل حال كانت ايضا غالية .

فانما ، كما يعمل العصفور عشه ويكبر رويدا رويدا ، كان النواب يعملون صفقاتهم رويدا رويدا ، فبدأت صغيرة ثم اخذت تكبر على ممـــر السنين حتى صارت بالملايين ، مما صار يجعل اهل الطمع يدفعون مئات الالوف ليصيروا نوابا .

فانما كل مرشح دفع ثمن نيابته ، اعتبر القيمة التي دفعها راسمالا يضعها في تجارة مسوكرة ، ستضاعف مرارا ذلك الراسمال . ولا يمكـن لنا بوجه من الوجوه ــ ونحن نعرف شمس بلادنا من اين تطلع ــ أن نقول ان هذا المرشح الذي صار نائبا بعد ان دفع مئتين وثلاثمئة الف ليرة لم يفكر أنه في النيابة سيعمل كل الصفقات ويحاول اعادة ماله اضعاف الالوف!

وكان النائب الظريف المفلس اديب الفرزلي في مجلس الاستقلال يقول

« انه ذاهب لاميركا » عندما كان يذهب للمجلس ، اعتبارا ان النيابة طريق للثروة ، كما كانت الهجرة الموفقة لبلاد العم سام !

وعندما يأتي الوقت ، سنأتي على ذكر تلك الصفقات الكبرى المشهورة ، والتي عمل بعض النواب ثروات كبرى من ورائها .

وسنأتي على ذكر بعض الرجال الذين صاروا نوابا عن مقاطعة لا يعرفونها ، وكفاهم لذلك ان ابتاعوا ورقة السفر اليها غالية جدا طبعا على قول الصديق النائب المحترم الياس الطرابلسي الذي اشترى تذكرة نيابته بقطار الجنوب ، بالمبلغ الذي نعرف !

***

قلنا جاء مجلس الخمسة وعشرين بعد الجمهورية الثانية جمهورية حبيب باشا السعد المعينة (من كانون الثاني ١٩٣٤ الى كانون الثاني ١٩٣٦) . وكما انه ليس فى العالم دولة بدلت واوقفت وعدلت وغيرت دستورها قدر ما فعلت الجمهورية اللبنانية خلال هذه الخمس وعشرين سنة التي عاشت فيها حتى الان ، كذلك ايضا ليس فى العالم مجلس نيابي تبدل عدد نوابه على معدل كل سنة أو سنتين ، وكل مرة كان ينتقل فجاةوبدون اية قاعدة من العدد الادنى الى العدد الاقصى ، والعكس بالعكس ، على ان يصبح العدد لربما بعد سنة ٢٤ او مائة وعشرين ، فلا اساس معروف ولا نظام مكشوف .

وكل هذا يعود لسياسة الارتجال التي تمشينا دوما عليها ، والتسويات اليومية ، والحلول الاعتباطية التي عالجنا فيها امورنا دوما . فيوما مجلس من اربعين ، ويوما اخر مجلس من ٢٥ ، وبعدها مجلس من ٤٥ ، وبعدها مجلس من ٦٣ ، وبعدها مجلس من ٧٧ ، ثم نعود فى اخر مرة الى الوراء فجاة ونقرر مجلسا من ٤٤ . وطبعا ليس هذا العدد هو العدد النهائي ، فقد يكون عندنا مجلس بعد حين من ١٥٠ او من ٣٠ ، لا فرق فى ذلك ، فهذا شيء يعود الى اهواء الحاكمين فى الظروف والمناسبات التي يكونون فيها !

وفى هذا لم نتساءل مرة واحدة : أي عدد يكون الافضل والانفع للمصلحة العامة ، الكثرة فى عدد النواب أو القلة ؟

وهذا يثبت ايضا ان الدهشة التي أصابتنا يوم راينا نفسنا — بعد

حكم الاتراك دولة مستقلة ، لا تزال تسيطر علينا ، ولا نزال ضائعين فيها

جاء مجلس الخمسة وعشرين ينتخب رئيس الجمهورية الثالثة التي اخذت يومئذ اسم جمهورية الرجل الثالث عشر ، اذ ان الكونت دي مارتل كتب يومئذ لصديقته رسالة هي ولا شك اكثر رسائله فضيحة وسخرية وشرا ، قال فيها :

« رميت بالفارسين فى الميدان : اميل اده وبشاره الخوري ، وليس بينهما ثالث يرشح نفسه ، وتركتهما يتصارعان ، اشد بهذا حينا واشد بذاك حينا اخر ، فلا ينام واحد منهما ليلة مطمئنة ، وعندئذ ساعة رايت ان كلا منهما امن لنفسه ١٢ نائبا ، فتساوت هكذا الاصوات بينهما ، جئت بالرجل الثالث عشر الذي كنت احتفظ به للساعة الاخيرة واعطيته لصديقنا اميل اده . وهكذا صار اميل اده رئيس جمهورية بصوت واحد زيادة ، مما يجعل رئاسته هزيلة وتحت رحمتي ورحمة خصومه !»

ويقول دي مارتل فى رسالة اخرى لصديقته تعليقا على رسالته الاولى : « لا اريد ان اجعلك تتعبين نفسك وتتساءلين لماذا اعطيت الرجل الثالث عشر لاميل اده ولم اعطه لبشاره الخوري ؟ يجب ان اعترف لك انني لا اكره بشاره الخوري ، ولكني لا احب حياته المتقشفة المطمئنة ، واكره هيئة اركان حربه المؤلفة من جماعة من الفشارين الوقحين ، يتكلمون عاليا ، ويتحدون المفوضية يوميا ، كما وانني ما احببت جماعة جريدة ليجور ، والحبر الجليل الذى وراءها ، (اي الاستاذ ميشال شيحا) الذي يتكلم مثلما يتكلم الكرادلة ، ويلقي فى جريدته بطريقة غير مباشرة طبعا — ولكن مفهومة جدا — دروسا فى الحشمة وحسن السلوك ، فانما الاستاذ ميشال شيحا والمتجزوتون الذين حوله ، يصلون كثيرا ، ويحتشمون اكثر من اللازم مما يدعو للاشتباه فى ايمانهم !»

وطبعا من جميع رسائل دي مارتل لصديقته اعطتنا هذه الرسالة التي تعبر عن روح الرجل صورة حقيقية تجمع بين الصراحة والشؤم ، وبين محبته للحقيقة العارية ، حتى ولو كانت فاسقة وكريهة !

كما وان هذه الرسالة تجعلنا نلمس روح الاستهتار عندذاك الرجل الكونت دي مارتل ، التي هي طبيعية فيه ، وليست مؤامرة تدبرها ضد الهيبة اللبنانية وضد كرامة المرشحين الكبيرين ، اللذين كانت البلاد قد انقسمت شطرين متقاتلين فى سبيلهما ، وقد علق كل شطر مصيره

ومقدراته على مرشحه منهما .

وكان النائب المحترم المرحوم الياس السكاف ذاك الرجل الثالث عشر الذي احتفظ به دي مارتل حتى النهاية .

ظل حتى الساعة الاخيرة ينتظر ولا يقول كلمته ،

فضلا عن أنه كانت هناك مشكلة عميق : المزرعة الكبرى وهي مشكلة يجب حلها حالا ، واعطاء الياس السكاف حقه فيها . وكانت الحكومة تتاخر كثيرا فى انصافه ، فظل صامتا ساكتا ينتظر ، بينما كان زملاؤه الباقون قد انتقى كل منهم جبهته واصطف فيها ، وذلك طبعا بعد ان اخذ اولئك الذين يأخذون ، ما اخذوه .

فانما سوق الحراج كانت بالمزايدة العلنية ، فى وسط القهاوي والمنتديات العامة !

وكانت المساومات المالية تجري فى دوائر المفوضية نفسها ، فتخلق الفضيحة وراء الفضيحة .

وكان يساعد على التشهير قلة عدد نواب مجلس ذلك الزمان ، مما جعل سوق الحراج ضيقة ومنظورة جدا .

وساعد دي مارتل ايضا ماليا ، عندما جعل صندوق المصالح المشتركة يشترك فى شراء بعض الاصوات بمبالغ محترمة ، كان النواب الذين اخذوها يقتطعون منها ـ قبل كل شيء ـ حصة الصديقة الحسناء، وذلك بمعرفة ـ ولربما بتوصية ـ الكونت دي مارتل نفسه ، الذي لم يكن يتورع من اظهار غيرته على الصديقة بشتى الطرق والمناسبات !

وظل الرجل الثالث عشر ينتظر حتى اخر ساعة ، حتى صباح يوم الانتخابات . عندئذ اعلن اقتناعه وكشف قناعه وقال باعطاء صوته للاستاذ اده .

ومما ذكره بصدد ذلك ـ غالبا على سبيل الفكاهة وقول الحق ـ الاستاذ جبرائيل المر الوزير النائب السابق المعروف ، انه فى ليلة الانتخابات لتلك الرئاسة ، رن التلفون فى مكتبه بسينما روكسي ، واخذ السماعة ظنا منه ان احدا يريد التحدث اليه ، فتبين ان الرنين جاء بالغلط ، وان حديثا يدور على الهاتف بين شخصين ، عرف فى احدهما صوت صاحب هذه المذكرات ، وسمعه يتحدث من غرفة قطع التذاكر

بسينما روكسي مع المرحوم الياس السكاف بلوكندة أميركا . وقد كان موظف غرفة قطع التذاكر بالسينما قد ترك الخط متصلا ايضا بمكتب الاستاذ المر ، مما كان يجعل هذا الاخير يسمع المحادثات التي تجري بين مكتب قطع التذاكر وبين الخارج . ويروي لاستاذ المر انه سمعنا تقول لالياس بك السكاف :

ـ معتوق ينتظرك ، والكونت دي مارتل انهى معه قضية «عميق» ، فلم يبق عليك الا ان تذهب لبيت الاستاذ اده !

وقع المقدر وكان ما اراده دي مارتيل .

وصل المرحوم الياس السكاف لبيت لاستاذ اده ، حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، حيث كان الاثنا عشر المعروفون مجتمعين او بالحري الاحد عشر ، لان الاستاذ بترو طراد ، الذي كان فى النادي يتسلى باللعب ـ كما كانت عادته التي لم تتغير ابدا ـ كان قد ارسل برنيطتهذات الشكل البطيخي (الميلون) ، التيكان معروفا بها عن بعد الف متر وكان يتفرد بلبسها ـ ارسلهايعرضها فى العلاقة القائمة بوسط الدار ، فكان كل من يدخل يراها وجها لوجه ويخيل له ان الاستاذ بترو طراد هو فى احدى الغرف يستريح !

وهكذا يطمئن ايضا ، لان الاستاذ بترو طراد كان مشهورا عنه فى انتخابات الخمسة وعشرين للرئاسة انه يعبر عن رأي المفوض السامي ، وذلك بوصفه رئيس المجلس النيابي الاقرب للمفوضية .

قلنا ، وعندما وصل الاستاذ الياس السكاف ، تأكد الاستاذ اميل اده حالا من الانتصار واخذ يتقبل التهاني وهو فى فراشه مريضا تعبا ، بعد تلك المعركة المخيفة التي كان فيها دي مارتل مدةشهرين كاملين يتلاعب بالمرشحين الكبيرين ، ويلعب معهما لعبا فظيعا ، فلا يقوم بظاهرة تدل على تأييد اده مثلا ، حتى يهب حالا ويقوم بمظاهرة اخرى تدل على تأييدهبشاره الخوري ، مما كان من شانه ان يجعل عقل كل منهما يضيع ، وصحة كل منهما تنحرف .

كان ولا شك له لذة فى ان لا يجعل احدهما ينام لا هو ولا رجاله ليلة واحدة براحة !

وفى اليوم الثاني بعد ان جرت عملية الانتخابات واعلنت رئاسة اده رسميا ، كان معتوق يعرض على اصدقائه رسالة جديدة من دي مارتل لصديقته ارسلها لها حالا بعد فوز مرشحه يقول لها :

« وهكذا يا صديقتي العزيزة اوصلت الجوادين الى العامود منهوكي القوى خاليي الوفاض ، لم اترك لهما منذ اسابيع واسابيع دقيقة طمانينة واحدة وانتهيت ان عملت للجمهورية اللبنانية رئيسا باكثرية صوت واحد مما يجعله دوما يذكر فضلي ويذكر مساعدتك ، ومما يجعل كرسيه دوما مهتزة مرتجة . »

ولكن بعد ٤٨ ساعة من ذلك قام الاستاذ الرئيس الجديد بعمل لم يعترف فيه مطلقا بالفضل الذي يدعي دي مارتل انه عمله له ، وذلك عندما اقام تلك الوليمة الرسمية بمناسبة انتخابه رئيسا للجمهورية ، ودعا اليها المفوض السامي والوزراء والقناصل العامين والنواب وزوجات الجميع وتجاهل صديقه الكونت دي مارتل ، مع انه لايام قليلة جدا مضت ، كان لا يفارق صالونها ، حيث كان يحاول ان يتلاقى مع دي مارتل عندها ، ويتدبر انتخابات رئاسته بحضورها وبموافقتها !

وهكذا لم يدع اده صديقة دى مارتل للوليمة الرسمية كما دعا زميلاتها زوجات الرجال الديبلوماسيين ، مع انها زوجة قنصل اجنبي .

وعندها وعند دي مارتل ، هاتوا بيت الله لنهده .

وهكذا ، بعد ٤٨ ساعة فقط من اعطاء دي مارتل صوت الرجل الثالث عشر للاستاذ اده يوجه فخامته للمفوض السامي اهانة عدها هذا الاخير من اكبر الاهانات ، واعتبر ان الاستاذ الرئيس الجديد قصد بها اظهار ازدرائه لصديقته ، وانه يتورع عن دعوتها ـ بالرغم عن مكانتها الديبلوماسية ـ ولا يريدها ان تجلس على مائدته ، وهي التي كان الاستاذ معتوق صديق الرئيس الجديد والعامل الاكبر فى نجاحه ، قد ابتاع مساعدتها وحسن توسطها لخدمة مرشحه اده ، وذلك مقابل كل ما كان عند برانجه والكف الاحمر فى سوق الطويلة من روائح عطرية وماركات شوكولاته وكلسات حرائرية والبسة تحتانية ممتازة ، مرفوقة من حين لاخر بشيك محترم ، او بجوهرة غالية ، ودوما يوميا طاقة أزهار جبارة من شانها ، ان تذكرها بالغرض الذي يدعو مرسلها لارسالها !

وهذه الحسناء قد تكون ـ كما كان معتوق يؤكد بدهشة ـ هي التي جعلت دي مارتل ياتي بالرجل الثالث‌عشر لاده ، واهمل رئيس الجمهورية دعوتها لوليمته ، مع اعتبار انه لم يكن يزدري بها مطلقا عندما كان يدلعها ويدالها قبل الانتخابات ، ويدعو صديقه معتوق لاغداق هداياه الثمينة عليها !

كما وان دي مارتل اعتبر حالا ـ كما قال ذلك لمدير الامن العام صنيعته الخاص المسيو كولومباني ـ ان رئيس اكثرية الصوت الواحد اراد اكتساب بتولية جديدة واكتساب شعبية لنفسه فى اظهار تمرده عليه بهذه الطريقة العلنية ، واراد ايهام الشعب انه ليس مديونا لاحد بالرئاسة التي اخذها ، كما وانه اراد اظهار احتقاره للصديقة الحسناء !

وقد كان الشيء مؤكدا هكذا ، اذ لم يكن بالامكان تجاهل هذه السيدة ، التي كانت فى مقام دبلوماسي يجعل من الطبيعي دعوتها لوليمة يحضرها الديبلوماسيون وزوجاتهم .

وغضبت الحسناء ، وغضب معتوق متضامنا معها ، مدعيا انه هو الذي اقنعها واشتراها لتكون بجانب الاستاذ اده تأخذ جانبه ، وليس جانب الخوري، وتقنع الكونت دى مارتل بمناصرته .

ووجد معتوق فى عمل صديقه الكبير اهانة له ايضا .

واخذ معتوق جانب‌الحسناء حالا ، مما كان سببا لعودة الصداقة بينه وبين دي‌مارتل ، انما الى وقت قصير ، اذ ان معتوق عاد بعد ذلك يطالب ببيع تنباكه للريجي بالاسعار التي يريدها ، وعاد دى مارتل‌يرفض!

وكان معتوق اثناء انتخابات الرئاسة يلعب بالذهب لعبا ، فلا يدخل احد الى غرفته الا ويجد اكداسا من الليرات الذهبية امامه ، كان حضرته يريد بذلك اغراء الذين يزورونه من النواب .

وكان جميع الناس يتصورون انه دفع كثيرا فى تلك الانتخابات‌للنواب ولاهل السياسة والصحافة ، كيما يماشون‌مرشحه .

ولكن دي مارتل كان اعرف بمعتوق اكثر من جميع الناس وكان « زيلعيا » مثله ، يفهم بلغته ويعرف بتفشيره ، لهذا لم يكن يصدق الشي الكثير عن مكارمه !

وكان يقول ، ذلك القول الذي ضحكت له بيروت يومئذ : « معتوق عندما يعطي كيسه يربطه بخيط مطاط ، فلا يكاد الكيس يستقر في جيب الذي يأخذه حتى يجذب معتوق الخيط فيعود الكيس اليه كما هـــو ، وبعض الاحيان مع ما يكون في جيب الرجل الاخر من مال ايضا ! »

***

وهكذا في اليوم الثاني لانتخاب الاستاذ اميل اده رئيسا للجمهورية اللبنانية، وجد حضرته نفسه مضطرا ان يجابه الاشياء العدوة الثلاثة الاتية:

١ ـ محاولات دي مارتل حالا ، وبعد انتخابه بيوم واحد ، تصغيره واخجاله ، والحط من هيبة رئاسته ، وتسليط مدير الامن العام الشهير كولمباني عليه ، وزعمه على مسامع الكثيرين ان السيدة التي استنكف الاستاذ اده عن دعوتها لوليمته الرسمية التي يدشن بها رئاسته ، هي ذات السيدة التي كان يتوسطها ويقضي اوقاته عندها ، طالبا مساعدتها لدى المفوضية لاجل الرئاسة .

٢ ـ غضبت السيدة على اميل اده طبعا ، واخذت تضع كثيرا فمها الجميل وبطريقة متواصلة ، في اذن المسيو دي مارتل ، تثير حفيظته على اده ، عاملة للانتقام منه للاهانة التي وجهها اليها امام الهيئة الدبلوماسية التي هي منها ، وهي اهانة يجب ان يعدها دي مارتل موجهة اليه ايضا . اليست هي ـ بمعرفة جميع الناس ـ صديقته المعبودة ؟

٣ ـ الحرب الجديدة الشعواء التي اسرع طبعا الشيخ بشاره الخوري واعلنها على الاستاذ اده الذي شلحه الرئاسة بصوت واحد ، مما يكفي الافتكار فيه ليجعل الدم يفور ويثور .

وهنا يجب ايضا بالمناسبة ان نذكر شيئا عن موقف الرجل الرابع فانه لم يحاول التعاون مع صديقة المفوض السامي قبل الانتخابات ، ولا سيما وانه لم يكن بامكانه ان يشتريها بالمبالغ التي اشتراها بها معتوق . وذلك لانه كان دوما في ضائقة مالية ، ولم يكن له ثروة خاصة يستعين بها ، ولم يكن اخوه الشيخ فؤاد الخوري ـ سنده المالي الدائم بعد ذلك ـ قد تزوج باغنى وارثة في لبنان (ابنة المرحوم اسكندر الحداد) واستلم اكبر محل تجاري في بيروت . وبعد فوز الاستاذ اده ، دعت هي الشيخ بشاره الخوري للاشتراك معها في محاربته فرفض ، اذ ان بشاره الخوري لم يرض

يومئذ ان يلجأ فى اغراضه السياسية الى سيدة تستمد قوتها من فراشها !

ونذكر ايضا رحابة ذلك الصدر عند بشاره الخوري ، واستقبالـه الرزايا بسكون غريب،وهي ميزات أسماها يومذاك المستهترون من اصدقائه عدم احساس ، وجلد تمساح . ولكن رحابة ذلك الصدر الفريبة العجيبة التي استقبل فيها فشله بالرئاسة بصوت واحد ، ومعرفته ما كان يدبره له دي مارتل من اشراك جعلته لا يشكو ولا يتذمر امام احد ، دون ان يفقد الابتسامة الصامتة التي عرفناها عنده مع كل ما كان يتلقاه مـن ضربات وكوارث .

وذهبنا فى اليوم التالي لفشله فى انتخابات الرئاسة ، زيادة فى حشريتنا لكي نرى وجه ذلك الرجل، ولكن عبثا حاولنا ان نقرأ على وجهه شيئا من التأثر او العتب او العنف وآثار الفشل عليه .

وعلى مدى الايام والسنين لا نذكر اننا شاهدنا مرة واحدة هـذا الرجل فى غير الهدوء والسكينة اللذين كانا من امضى سلاحه.

***

ومن الطبيعي ان لا يكون الاستاذ اده فى هذه الحالة ــ وبعد ان اخذ المفوض السامي يقطع عليه الطرقات ويثير عليه الحفائظ ويخلق له المتاعب ــ ومن الطبيعي ان لا يكون حقق الآمال التي كان الكثيرون يعقدونها عليه من اصلاحات ومشاريع كبيرة بالدولة .

ولم يكن اميل اده فى جراته المعلومة يخفي شكواه من اعمـال المفوض السامي ، معه ، مما كان ايضا يزيد من مشاغبة الكونت دي مارتل عليه .

ومن الطبيعي ان يكون الرجل الرابع وكتلته الدستورية قد استفادت من المناسبات ، واخذت تقوى وتشتد ، يساعدها بذلك بطريقة كتومة غير مباشرة معاونو دي مارتل اصدقاؤها ، فتجد الكتلة الدستورية بذلك ما يشدها ويزيد سلطانها ، ويدعوها للقيام بظاهرات مختلفة جريئة وشديدة ، ضـد الحكومة القائمة ، كانت لربما لا تقوم بمثلها لو كان دي مارتل ــ وهـو صاحب السلطان ــ راضيا عن الرئيس الجديد .

ويجب ان يكون دي مارتل قد شجع بطرقه الخاصة جماعة الكتلـة الدستورية ، قبل سفره بمهمة جديدة لفرنسا ، للعمل لازعاج الاستـاذ

اده وحكومته ، مما حدا بهؤلاء أثناء غيابه لاعلان ثورتهم المقاتلة العاملة والتى دعوها ثورة احراش الباروك، التى اتخذوها مقرا عاما للثورة يعتصمون فيها ، وتوافيهم اليها يوميا عصابات مسلحة يتولى تدريبها طبعا الرجل العسكري الوحيد بين زعماء الثورة الامير مجيد ارسلان، وذلك سنة ١٩٣٧

وتولى حضرته تدريبها وتدريب نفسه أيضا استعدادا لتلك الثورة التي كانت منتظرة وتحت الحساب ، واخذ عطوفته لنفسه لقب القائد العام لثورة الباروك ، وهي الثورة التي صارت معروفة بعد ذلك باسم الثورة البيضاء ـ كما سيراه القارىء فى سياق هذه المذكرات ـ وذلك لانها انقضت بدون دماء، وهو شيء كان القائد العام فى روحه الحربية يظهر امتعاضه منه !

- ٢٩ -

الثورة البيضاء فى الباروك

كانت الحكومة الافرنسية استدعت مفوضها السامي الكونت دي مارتل الى باريس ، كما كانت تفعل من وقت لآخر عندما تستدعي الحالة وذلك لتتفاوض معه وتدرس معه أمور البلدان التي تحت الانتداب ، وذلك بمناسبة المشادات التي كانت قائمة وبمناسبة خلافات دي مارتل مع الزعماء من الجانبين ، وقيل يومئذ انه يذهب ولن يرجع .

وطبعا ادعى جماعة الرئيس الاستاذ اميل اده ان خلاف دي مارتل معه ، وحياته المستهترة فى تلك البيئة المفسودة التي تحيط به ، قد يكون السبب الذي جعل الوزارة بباريس تستدعيه اليها لتقيله من منصبه .

ولكن الكونت دي مارتل رجع ايضا هذه المرة . رجع اكثر عنفا رجع فى اليوم الذي كانت فيه حكومة الاستاذ اميل اده ـ والتي كان يراسها ذلك السياسي المرن العنيف خير الدين الاحدب ـ تتخذ قرارات لوضع حد لعنف وتهجمات الكتلة الدستورية واصدقائها وللاحقة زعمائها ملاحقات بوليسية !

رجع ليجد بشاره الخوري مع هيئة اركان حربه ، وعلى راسها الامير مجيد قائد القوات المسلحة ، وكميل شمعون مستشار الحزب السياسي وامين سره الاعلى قد اعلنوا الثورة على الحكومة القائمة .

وكان فى الباروك ايضا هنري فرعون ممول الحزب ـ على ما كانوا يقولون ـ ومما لم تثبته الايام بعد ذلك ، بالرغم من ادعاء اصدقاء بنك فرعون وشيحا انه هو الذي ساند الكتلة الدستورية ورئيسها ماليا منذ البداية، وانه هو الذي تحمل مصاريفها، وهو فى مناسبة ثورتها بالباروك حمل جميع أعبائها .

وهناك ايضا كان سليم تقلا ، ذلك الاستاذ فى النباهة والتدبيرات وكانت حكومة الاستاذ اميل اده الجديدة قد عزلته من محافظة بيروت

لا لسبب غير انتمائه لحزب بشاره الخوري . وكان ميشال زكور الـــذي كان قد شق لنفسه فى عالم الصحافة مكانة مرموقة قادته الى الوجاهـــة السياسية وجعلته ركنا من اركان الدستوريين .

وكان الشيخ فريد الخازن يحمل ما عنده من جراة وفكاهات ويحمل ايضا بوصفه من عشاق « بنت البستوني » دزينات من ورق اللعب ، مع كميات من الفيش يقامر مع الزعماء تحت ظلال الاشجار بينما تقع المعركة .

ولا شك ان الشيـــخ فريد الخازن كان اكثر الدستوريين ظرفـــا ومنطقا ، يقرن الوطنية اللبنانية الصحيحة بليالي الميسر الجميلة ، وبحماية اندية القمار الكبرى ، يتطوع فى خدمة الشريف ايام الحرب العامة الاولى ، ويدخل لبنان بعد انتصار الحلفاء على راس فرقة من الخيالة الفيصليين ووراؤه قافلة من البغال تحمل الحنطة هدية من الشريف للموارنة بكسروان ويحمل بعضها اكياس من الذهب قيمة مـــا جمعه وربحه وسبـــاه الشيخ فريد فى الصحراء باسم الجهاد واسم العروبة ، وقيمة ما اخذه من امـــوال الكولونيل لورانس صديقه ورفيقه فى حرب الصحراء .

وكان فيصل فى بداية الثورة العربية ، قد اهتم كثيرا بان يحيط نفسه برجال من جميع الطوائف واخصها من الموارنة المسيحيين، املا منه بدخول لبنان وضمه للدولة العربية بمكة عامة وللدولة الشريفية بدمشق خاصة ـ تلك الدولة التي كان يشتغل لها عندما ثار تحت قيادة والده الحســـين بن علي فى الصحراء .

وكان قد وجد فى الشيخ فريد الخازن الذي اتخذه مرافقا له ، شخصية لبنـانية مارونيـــة محبوبة لهـــا مكانتها فى جميع الاوساط ، وسليلة بيت ارستوقراطي ماروني كبير يحترمه اللبنانيون ويجلونه ، فاعتبر فيه افضل ممثل للموارنة فى الجيش العربي محرر البلاد فيكتسب عن طريقه صداقة الموارنة وانضمامهم اليه .

وطبعا طالما ثورة الصحراء هي ثورة عربية ، فقد كان من الطبيعـــي ان يعلن الشيخ فريد نفســـه عندما التحق بالشريفـــ انه الماروني العربي الاول

وكانت تلك اول مرة ـ بطريقة عملية واقعية ـ يعلن فيها ماروني انه عربي ، غايته وحدة لبنان والجزيرة ، وقيام امبراطورية عربية تكـــون بلاد الارز ولاية منها .

ولكن الشيخ فريد الماروني العربي الاول ترك عروبته وتناساها تماما بعد عودته للبنان ، مما كان متوقعا منذ الساعةالاولى عند رجل نبيه فهيم، يماشي الظروف ويعتنق الجنسيات حيثما تكون خدمةبلده وخدمته الخاصة .

وكان يقول — ولو كان الموضوع هنا فى غير محله — للذين قاموا عليه يومئذ من رهابين وانعزاليين فى هذا الجبل : « ان السياسة الحقة الصحيحة فى ان تخدم نفسك وتخدم بلدك ، ولو كان ذلك عن طريق خيانتهما ، اذا لزمت الحال . »

وان لم يكن الشيخ فريد خدم بعروبته كسروان الا بقوافل القمح واكياس الذهب التي وزعها على اهاليه باسم الشريف لكان ذلك كافيا لان نقول أنه فى عروبته كان لبنانيا اكثر من اللبنانيين القائمين عليه ، والذين لم يخدموا لبنان بغير الكلام والتفشير والتعصب الذميم !

***

كنا اعلاه نعدد اسماء بعض جماعة اركان الحرب فى ثورة الباروك ، وقد تحصن رجالها فى هضابها المشجرة ، بينما الرئيس اميل اده ورئيس حكومته خير الدين الاحدب يحشدان جندرمتهما وبوليسهما فى عاليه والمديرج ، لمهاجمة الثائرين ، وقد استفحلت الحالة وخيم على لبنان جو من الخشية والروعة ، فهي المرة الاولى تقوم فيها فئة سياسية معروفة تحمل السلاح بوجه الدولة . وقد كثر عدد رجالها المسلحين وسادت روح حربية عند جميع الثائرين من سياسيين وغير سياسيين ، حتى أن هنري فرعون وسليم تقلا وميشال زكور حملوا السلاح ايضا وكان الشيخ فريد بهذه المناسبة يقول لهنري فرعون وهو يشير الى المسدس الذي كان يحمله وجيه الكاثوليك :

— الافضل ان تحمل يا هنري بك اوراق المئة ليرة فهي تصيب احسن .

وكان هؤلاء غالبا يتفركشون فى سيرهم لثقل البنادق الحربية التي كانوا يتمنطقون بها ، ولربما لا يعرفون ان يطلقوا رصاصها !

ولكن لا بنادقهم ، ولا بنادق الثوا رباجمعهم ، اطلقت رصاصها ، فلم نختبر هكذا الى اي مدى كانت قد وصلت معرفة فرسان الباروك فى فن الحرب ، اذ ان دي مارتل — الذي كان الاديون يؤكدون انه لن يرجع — كان

قد اسرع فى الرجوع عندما عرف بما يجري ، وبعد ان أرسل يطلب من الحكومة ايضاالتوقف عن اية مطاردة للثوار !

رجع فى الوقت الذي كان الباروكيون قد ازدادوا عدة وتحصينا ، وفى اليوم نفسه الذي كان فيه اميل اده ورئيس حكومته خير الدين الاحدب اعتمدا مهاجمة الثورة بعد أن حشدا كل قوى الدولة .

وتساءل طبعا كل من الفريقين : الى اي جانب من الجانبين سينحاز دي مارتل ؟

تساءل الجميع هذا السؤال ما عدا الشيخ بشاره الخوري الذي كان يعرف الحقيقة وحده ، عندما كان قبل ذلك وهو فى باريس قد اتفق سرا مع الكونت دي مارتل على ما سيكون ، وكتم الاتفاق عن الجميع وكان يضحك فى سره عندما كان يسمع الاديين يهددون جماعة الباروك بقرب عودة دي مارتل ، وتجريد حملة عسكرية عليهم تربيهم وتؤدبهم !

وكانت المرة الاولى التى فيها يقوم عصيان فى البلد ، ولا يتدخل الجيش الفرنسي حالا لقمعه ، مما فهم منه ان الاديون بعد ذلك أن دي مارتل يريد أذلالهم . ولكن كان طبعا من المنتظر عاديا وبالاكثر ان يأخذ دي مارتل جانب الحكومة ، مع ما كان عليه من قطيعة مع رئيس جمهوريتها ، وان يأمر عندوصوله عساكر السنغالية بالمشي على الباروك ، مما كان يجعل العصاة طبعا ، وفى رأسهم قائدهم العام الامير مجيد ارسلان ، يفكرون برفع الراية البيضاء .

ولكن دي مارتل كعادته اخذ المسالة بالطريقة اللعوبة الضاحكة الساخرة التي اعتاد عليها ، فكان اول شيء عمله انه بدلا من ان يفاوض رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه ، ارسل يفاوض العصاة ولصالحهم ايضا حتى اذا تمت مفاوضته معهم ، وبعد ان اخجل الرئيس اميل اده وخير الدين الاحدب قفز من فوق رأسيهما واعلن قراره الشهير فى فرض الائتلاف بين الجانبين لانتخابات عمومية لمجلس من واحد وستين نائبا ، قفز بعد ذلك الى الثلاثة والستين، على ان يكون فيه للاستاذ اده ٣٧ نائبا ويكون فيه للشيخ بشاره الخوري ٢٦ نائبا على ان ينتقي كل من الفريقين المرشحين الذين له ، دون ان يكون لاي فريق حق « الفيتو » على اي مرشح من مرشحي الفريق الاخر ، ويجب أن يجري ذلك تحت اشراف

المفوض السامي طبعا وبموافقته وحده . وكان هذا القرار اكبر وافظع تزوير انتخابي في تاريخ هذه البلاد . وليس تزوير ٢٥ ايار ١٩٤٧ المشهور الذي جاء بعد ثلاثة عشر سنة من ذلك ـ شيئا بالنسبة للتزوير الـــذي انهى به دي مارتل ثورة الباروك بتلك التسوية المستغربة الهازئة ، تلـــك التسوية بين السراي الادية والدستوريين الخوريين .

وكان كما قلنا اعلاه على بشاره الخوري ان يقدم ٢٦ مرشحا يتفق مع اصدقائه عليهم ويفرضهم فرضا ـ طبعا مع موافقة دي مارتل الكتومة .

ويفعل الرئيس اده الشيء ذاته في حصته البالغة السبعة والثلاثين مرشحا .

وباجمعنا كنا نعرف خير الدين الاحدب ، بالامس العربي القح ، واحد كبار دعاة الحركة الثورية العربية الثلاثة ، العاملين ببيروت بشدة وعنـف وجراة لخدمة الوحدة : رياض الصلح ، خير الدين الاحدب ، صلاح بيهم .

وكنا نسميهم يومئذ فرسان « العهد الجديد » بالنسبة لجريـــدة خير الدين الاحدب التي كانت تحمل هذا الاسم المأنوس ، وكان يجتمـــع الفرسان الثلاثة يوميا في ادارتها بشارع فخري بك وكانت تلك الادارة تحت المراقبة الدائمة من جانب الامن العام الفرنسي وكان هناك رجال الامن أيضا يتعقبون كلا من الثلاثة الكبار ليل نهار ، بطريقة يظنونها سرية . ولكـــن اي شيء كان يخفى على رياض الصلح ؟

لقد كان يعرف وينظر الى هذه المراقبة بهزء ومجون ، حتى انه طلع على باله ذات يوم ان يثبت للبوليس السري الذي يتعقبه انه يعرف امـــره تماما ، فدعاه للركوب معه بالسيارة قائلا :

ـ الافضل ان نتقاسم أجرة هذه السيارة بدلا من ان يأخذ كل واحد منا سيارة لوحده !

ولم تكن جريدة « العهد الجديد » في عهد عدائها للفرنسيين تستطيع ان تصدر كل يوم بطريقة منتظمة ، كما كان اصحابها يتمنون وكماهو مطلوب منها وذلك لان موازنة خير الدين ورفيقيه السيدين بالوطنية لم تكـــن تسمح باصدار الجريدة الا بطريقة متقطعة .

وبالمناسبة يجب ان نلاحظ انه لم تقم في هذه البلاد قضية معروفة او

احزاب سياسية الا ووجدت ـ عن حق او بدون حق ـ انصارا كرمـــاء يمولونها على قدر الامكان ، ما عدا قضية الوحدة العربية التي لم تستطع ان تتدبر مرة واحدة مالا يساعدها ، مع ان القائلين بها كانوا دوما اكبـــر زعماء العرب ـ باستثناء عارف بك النعماني الذي قدم اموالا طائلة بسخاء عظيم لهذه القضية وكان بعض زعمائها ياكلونها .

***

قلنا اعلاه اننا كنا باجمعنا نعرف خير الدين الاحدب العربي فى جريدة « المهد الجديد » .

واذا بالاستاذ اميل اده يكتشف فجاة ان هناك ايضا خير الديـــن الاحدب اللبناني الانفصالي ، عندما كلفه بتاليف وزارته الاولى فى كانـــون الثاني ١٩٣٦ .

كيف جرى ذلك ، وكيف خرج خير الدين على رفيقيه وعلى قضيـــة الوحدة التي كان يشتغل ممهما لاجلها ؟

هذا شيء يمكن تفسيره عندما نقول اولا ان خير الدين الاحدب كان يعرف انه يشتغل لقضية ليست رابحة . وكان يعرف مـن جهة ثانيـة انه ، وهو عربي فى لبنان ، فالسراي تبقى مقفلة ابوابها فى وجهه . وكان يقول فى فطنته الغريبة ، اذا قرر العرب الوحدة ، فليس وجودي بسراي لبنان يمنعهم من تحقيقها كما وانني ساجد سبيلا لان اعود عربيا عند ذاك !

وكما كانت باريس تسوى قداسا ، فان النيابة فى لبنان ورئاســـة الحكومة من بعدها تسوى التنكر للصحراء .

وذات صباح ، ودون ان يكون الشيء منتظرا ، جاء خير الدين فجـاة للسراي يستند على ذراع الرئيس اميل اده ، ليستلم الحكم ويؤلف وزارة لبنانية تتفق اراؤها الانعزالية مع مبادىء ووضعية رئيس الجمهورية زعيم الانعزاليين رقم اول !

- ٣٠ -

خير الدين اللبناني

وبدأ عندئذ العهد الذهبي لاهل السراي : عهد الاعياد والسعة والليالي الحسان ، والاعيب السحر الطريفة اللطيفة والمال ، والظرافة واللباقة في الالعاب السياسية الجميلة . . وخلق رئيس الحكومة الجديد بلاطا له ، جمع فيه اظرف الفكهاء والطف الحسان ، واخذ يجاري المفوض السامي على عقله وفكره وطريقة حياته ، وصادق الصديقة الحسناء ، واصبح في نظر المفوضية الزعيم المسلم الذي سيجعل الراية اللبنانية ـ الفرنسية ترتفع على البسطة . وكانت البسطة عاصية دوما ـ ان لم يكن واقعيا فمعنويا . .

واكتسب خير الدين في ايام قلائل عطف ورعاية المفوضية لما كان بيديه من استعدادات للخدمة ، ولما كان عنده من حيلة ومقدرة . وكان له تلك الميزة النادرة المثال ، انه عندما تزول الضائقة المالية عنه تتضاعف قواه العقلية ويكبر قلبه ويصبح عبقريا وداهية دهماء . واذا كان لم يستطع ان يظهر في السابق الحقيقة الكاملة الكامنة فيه ، فذلك لانه كان يتخبط في افلاس دائم من وراء اسرافه وكرمه وحياته الصاخبة .

وسلم الكونت دي مارتل قيادة الانتخابات الصورية التي ارادها ائتلافية الى الرجل الذي جاء به الاستاذ اده بطريقة غير منتظرة لرئاسة الوزارة ، متحديا به كبار البيروتيين المسلمين . وصادف انه كان عند ذاك الرجل رجاحة عقل وقوة عارضة وارادة قوية ، جعلته حالا يفرض نفسه على البلاد وخصوصا على المجتمع الاسلامي الوجيه الذي كان قبل ذلك يشجب استدعائه لرئاسة الوزارة يمثل المسلمين في هذه الدولة ، مع انه من اسرة يمكن حسبانها من اكبر الاسر المسلمة البيروتية الوجيهة .

ولكن اميل اده الذي اكتشفه لم يكن يتراجع ، وذلك لمعرفته قيمة هذا الرجل الذي كان قد تعاون تعاونا حاذقا جدا في انتخابات الرئاسة

واثبت في وقوفه الجازم بجانبه اخلاصا كاملا ودهاء عجيبا في التدابير والمناورات السياسية التي قام بها .

وكما قلنا اعلاه لم يكد خير الدين يدخل السراي وقد زال العسر عنه وجاء اليسر ـ حتى ظهر فجاة ـ وامام دهشة الجميع ـ جبارا مثبتا قوة عارضة وحنكة كبيرة مؤكدا مقدرة سياسية كاملة تتحدى جميع وجهاء هذا البلد . وقد كان حسابه تافها جدا عندهم قبل ان يجلس في الرئاسة ويتسلم مقدراتها .

وكانت هي المرة الاولى التي يتسلم فيها مسلم رئاسة الوزارة في لبنان وصادف ان الرئيس الماروني الذي استدعى هذا المسلم لاستلام الحكم هو الرئيس الانعزالي الذي حاول دوما ان يصبغ لبنان بصبغة مسيحية اكبر واوسع من الصبغة التي هي له بالحقيقة !

وكان هكذا اميل اده ، هو الذي دشن هذه التقاليد التي جعلت رئاسة الوزارة في لبنان بعد ذلك للمسلمين ، يعدونها حقا صريحا لهم ولا يجسر سياسي واحد ـ حتى ولا ميكافيلي لبنان الجديد ـ مساومتهم عليها ، مع ان هذا الاخير ، اي الاستاذ حبيب ابو شهلا ، كان ولا يزال المدعو الاكبر والافضل لاستلامها ، ومع ان عددا كبيرا من المسلمين الوجهاء رغبوا به ، فهو مع كل وقاحته السياسية تهرب وخشي امتعاض المسلمين ضمنا اذا قبل !

وجاءت مناسبات كثيرة بعد ذلك كان من الامور الضرورية الوطنية تكليف غير مسلم لتشكيل الحكومة المناسبة ، ولكن لا السراي تجاسرت على هذا العمل ، ولا المسلمين اظهروا اي تساهل امامه !

قلنا ، اثبت خير الدين الاحدب وجوده في السراي حالا .

وكان له ما لم يكن بالحسبان ايضا ، اذ انه جمع حوله بطريقة مدهشة وبسرعة غريبة ، جمهرة من الانصار الاقوياء من السياسيين وزعماء الاحياء وكبار القبضايات ، يماشونه ويقولون قوله ، ويخلقون له في المدينة قوة كبرى يستند عليها في الوقت الذي كان فيه الناس قبل دخوله السراي وعلى راسهم ابناء عائلته الكبيرة الوجيهة ببيروت ، يتنكرون له !

ولكن عندما جلس في صدر المقام ، وجد الناس انفسهم حالا اما رجل

تجلت فيه فجأة ودون سابق انتظار ، زعامة سياسية تفرض نفسها على السراي وعلى البلد .

وهي زعامة زادها قوة وسؤددا اموال المفوضية والخزينة التي اخذت تتدفق على خير الدين بك الاحدب من جميع الجوانب ، مما اخرجه اولا من الضائقة المزمنة التي كانت تسيطر عليه ،ومما جعله يغذي بسخاء غريب انصاره وقبضاياته وزعماء احيائه . وقد استباحت السراي اموال الخزينة وصفقات البلدية لخدمتهم ، اعتبارا منها ان المال – ولو كان من مال الحكومة – لا يجب ان ينام بالصناديق طالما رجال تلك الحكومة وزلمهم يحتاجونه !

وكان خير الدين ، كرجل يعرف الفضل ، ويعرف صالحه ويعرف من اين تؤكل الكتف ، قد وضع في البداية كل قوته في خدمة الرجل الذي اكتشفه وجاء به لرئاسة الوزارة : الاستاذ اميل اده .

وعرف خير الدين الاحدب بالوقت نفسه – وهو المعاون الامين لرئيس الجمهورية – عرف في البداية ولاشهر قليلة – ان يوقف نوعا ويزيل الكثير من التوتر بين هذا الاخير وبين المفوضية السامية ، او بالحري بين الكونت دي مارتل ، الذي كان قد اصبح معجبا بخير الدين بعد ان كان قد عارض في البداية باستدعائه للحكم، انما بعد التجربة اكرم الرجل وقدره ووجد فيه كلما يفتش عنه كل حاكم مغامر مخيف وجديد :الرجل الذي يمكن الاتكال عليه بكل المهمات فوق العادية والمستغربة ، التي كان دي مارتل يريدها . وكان يقول عن خير الدين انه وحده يفهمه ، وانه صورة طبق الاصل عن السياسي الشيطان « سافانارول » .

وقال الكونت دي مارتل لبشاره الخوري بعد تسوية الباروك ، عندما دعاه للاتصال مباشرة مع رئيس الوزارة خير الدين الاحدب للاتفاق على اسماء المرشحين المؤتلفين :

– ولكن احذر خير الدين الاحدب ، فلا تدعه يبلفك ، فهو يحمل في جرابه اكثر من حيلة !

واخذنا نشهد باعجاب تلك المبارزة التي قامت بين الاستاذين الالمعين بشاره الخوري وخير الدين الاحدب في اجتماعاتهما المتوالية ، بمكتب مدير المكتب السياسي في المفوضية ، الذي وضعه دي مارتل تحت امرتهما ،

وذلك ليتدبر كل منهما اسماء المرشحين الذين يخصونه : ٢٦ لبشاره الخوري و٣٧ لاميل اده ، فكانت تلك المبارزة نوعا من التسابق فى العبقرية والنباهة ، ياخذ عنها السياسيون امثولات وعظات فى فن الدهاء والتخادع!

ولا شك ان رئيس الدستوريين هو الذي فاز فى تلك المبارزة الفريدة من نوعها ، اذ انه استطاع ان يفرض الستة والعشرين مرشحا المحسوبين عليه ، باجمعهم من مؤيديه ورفاقه ، غير تارك مجالا لاية مساومة، ولا لحيلة خير الدين ، ولا لرغبة المفوض السامي ، ولا لاهتمامات الرئيس اده .

كان لا يلين ، وكان يجعل الجانب الاخر مضطرا لاقصاء عدد من اصدقائه عن حصته فى ترشيح السبعة والثلاثين التي له .

وهكذا اضطر جانب الرئيس اده ان يتخلى عن صاحب هذه المذكرات وكان قد اعلن ترشيحه بين السبعة والثلاثين بطريقة فريدة باهرة ، يوم استدعاه لوليمة اقامها فى فندق الجبيلي بعاليه ، واعلن امام الحضور من مندوب المفوض السامي لرجال الحكومة ، الزعماء السياسيين ترشيح اسكندر رياشي تحت رعايته وباسمه !

ودعاه بعد ذلك، تثبتا لقوله ، لمرافقة رئيس الوزارة خيرالدين الاحدب فى دورته الانتخابية بجبل لبنان ، حيث كان يقدمنا كالمرشح المفضل للنيابة.

ولكن جاءت بعد ذلك تسوية دي مارتل .

وتمسك بشاره الخوري بصديقه الاستاذ سليم تقلا ، يريده مرشحا عن الكاثوليك فى جبل لبنان الذي كان الاستاذ اده وخير الدين بك الاحدب خلقوه بقانون خاص ليعطونا اياه . اذ انه حتى ذلك الوقت لم يكن فى جبل لبنان نائب الكاثوليك .

وكان معلوما ــ كما ذكرنا اعلاه ــ ان الاستاذ اده ، عندما استلم رئاسة الجمهورية قد عزل الاستاذ سليم تقلا من محافظة بيروت ، لا لسبب غير انه من انصار الشيخ بشاره الاولين .

وعمل الشيخ بشاره ما اعتاد دوما عمله فى التمسك باصدقائه حتى النهاية .

وهذا ما دعانا فى ذلك الحين ، لتقدير هذه الميزة بالرجل ولعدم

الصخب عليه ، مع انه شلحنا هكذا نيابة كانت مضمونة لنا . وكان الاستاذ اميل اده يتنبا عنها انها تكون انبه واطرف نيابة تعرفها المجالس فى لبنان .

وفى اليوم الذي بدات معركة تلك الانتخابات الائتلافية ، ظهر خير الدين الاحدب يحمل ليس فقط نباهته ودهاءه بل ايضا مئات الـــوف الميرات ، جاءت أولا من المبالغ التي كان دي مارتل يسلمه اياها من امــوال المصالح المشتركة ، وايضا من المبالغ التي اطلق دي مارتل يد خير الديـن لاستلامها من الشركات الكبيرة ، فانما هذا الاخير ، كان عندما يريد ان يعمل شيئا يعمله كبيرا ، ولا يسال عن مصادره فى سبيل ذلك .

وكان الكونت دي مارتل ايضا بالمناسبة يريد ان يكون اكبر عدد من النواب مدينين لخير الدين الاحدب فى وصولهم للمجلس .

وهكذا لا يكونون تماما للاستاذ الرئيس اميل اده ، بل يكونون بطريق غير مباشرة للمفوض السامي ، طالما كان الناس اخذوا يعتبرون ان خيرالدين الاحدب اقرب له من رئيس الجمهورية الاستاذ اميل اده .

مع انه لا شك ان خير الدين كان امينا دوما للرئيس اميل اده وكان يسميه « كريستوف كولمبوس » ويقول انه اكتشف فيه امركا جديـــدة عندما اكتشفه وجاء به للحكم ، ولكنه كان دوما يقول انه بالاحرى يتقرب ويخدم دي مارتل ، ويعمل على كسب صداقته كيما يستطيع ان يزيل هذا الخلاف القائم بينه وبين الرئيس اده الذي يريد خير الدين خدمته ومــن كل قلبه !

وكان نابوليون والكونت دي مارتل وخير الدين الاحدب يعرفون اكثر من جميع الناس ، ان المال عصب الحرب ، لذلك ــ كما قلنا اعلاه ــ راينا المال يتدفق على صندوق الانتخابات الذي استلمه خير الدين الاحـدب وكان الشيخ فريد يقول بالمناسبة ــ ان خير الدين موضوع حسد لميـزات كثيرة ، ولكن اهم تلك الميزات انه مستلم لاموال صندوق الانتخابات !

وكان المفوض السامي يحث اقطاب الاعمال والمشاريع بالبلاد للمساهمة فى هذا الصندوق بقوله ان رئيس الحكومة الذي يشرف على هذا الصندوق هو العامل لتاليف مجلس نيابي مؤتلف يجعل البلاد تتصالح وتتعاون، فيكون من وراء ذلك عهد ازدهار وسعة وطمأنينة وثقة للتجار وللشركات والمصانع والمعامل والمشاريع العمرانية ، وحياة البلاد الاقتصادية !

نعم ، هكذا تماما كانت دعاية المفوض السامي لصندوق الانتخابات !

وهكذا ايضا كانت خزائن خير الدين ــ لزمن ما ــ تتفجر من كثرة ما احتشد فيها من اوراق مالية كانت تختنق فوق بعضها بعضا .

وكان اول ما عمله خير الدين ، وهو عمل مطلوب من رجل كريم ونبيه ويفهم الحياة ويعرف بيت الشعر المشهور ولا يخالف ان يردده عليه اصحابه ، والقائل :

ان الكرام اذا ما ايسروا ذكروا
من كان يألفهم فى المركب الخشن

وكان اول ما عمله خير الدين انه جعل انصاره واصدقاءه وعشراء البؤس والضائقة يتفرجون .

ثم فرج نفسه ، مما هو حق له ، وفعل ذلك بطريقة صريحة جلية ومعتدلة للغاية ، مما جعل الناس لا يرون فى ذلك اي عيب .

وبعد هذا اخذ يفرج المرشحين من الجانبين فهو فى روح الانصاف التي تجلت فيه هذه المرة ، اعطى الخصوم مثلما اعطى الانصار ، فكما اعطى مؤيديه الادبين كذلك اعطى الدستوريين . وقد كان بين هؤلاء ناس يقبضون بكل طمانينة ووقاحة ، مع كل ما عندهم من تعنت ، ومع كل ما كانوا يتغنون به من تجرد و فدائية للوطن !

ولو اضفنا تلك الاموال من الشركات والمفوضية الغالية جدا فى ذلك الزمان ، الى الاموال التي دفعها ايضا المرشحون الاغنياء ثمنها لترشيحهم لقلنا ان تلك الانتخابات كانت كالفورنيا جديدة فى معادنها الذهبية !

وبهذه المناسبة يجب أن نردد ما لاحظه رياض بك الصلح يومئذ ــ وكان قد ابتعد عن خير الدين الاحدب العربي سابقا ، وذلك عندما صار خير الدين الاحدب لبنانيا ــ وهنا يجب ان نردد ما لاحظه رياض بك الصلح عندما قال فى حديث عمومي له ، وذلك بعد ان نزل للترشيح وحاربه خير الدين والمفوض السامي محاربة العدو اللدود المنتقم ، ومما كلف صندوق الانتخابات مالا كثيرا ، فاضطر للانسحاب من المعركة قبل نهايتها ، قال رياض الصلح يومئذ :

ــ لم نر فقط خير الدين الاحدب يصير لبنانيا انعزاليا ، بل راينا

خصوم واعداء خيرالدين الاحدب وخصوم رئيسه الاستاذاميل اده والقائمين على المفوضية لعبثها بالدستور ، اعني بهم ثوار الباروك ، ياخذون مال الشركات ومال المفوضية من يد خير الدين الاحدب ، وفى مكتبه ، ليتدبروا انتخاباتهم وليأتوا لمجلس عين المفوض السامي نوابه قبل انتخابهم ، وقبلوا ان يكونوا فيه اقلية ، وان يكون خصومهم فيه اكثرية !

وكان حكم رياض الصلح هكذا قاسيا جدا . وكان ولا شك مبالغا فى قوله ، اذ ان الشيخ بشاره الخوري وعددا كبيرا من زعماء الدستوريين مثل كميل شمعون والامير خالد شهاب ومحمد العبود وحميد فرنجيه وسليم تقلا وغيرهم وغيرهم ، ابتعدوا عن الصندوق المشترك ولم يعرفوه كما وان بشاره الخوري كان قد فرض مرشحيه الستة وعشرين فرضا ولم يقبل اية مساومة عليهم ، ومن بينهم عدد كبير من السياسيين الذين عملوا مؤخرا انقلابا عليه . وقد يكون ذلك الصندوق اخذ من هؤلاء بدلا من ان يعطيهم .

ونحن فعلا كنا هناك .

وكنا لربما نساعد خير الدين الاحدب فى عمل حساباته مع هؤلاء ومع اولئك . وكان قد اختصنا بصداقته ، وهو الذي تدبر لنا تعويضات محترمة مقابل ابعادنا من قائمة المرشحين لياخذ مرشح الشيخ بشاره الخوري الاستاذ سليم تقلا مكاننا المقعد الكاثوليكي فى قائمة الخوريين .

وكان خير الدين يقدر صداقتنا وفننا الصحفي واعجابنا بعبقريته ، لهذا كنا مقربين منه كثيرا نطالع اكثر الاحيان على اعماله وخفاياها .

وهكذا فعلا كنا هناك نرى اكثر هؤلاء الذين اثاروها حربا على خير الدين الاحدب ورئيسه اميل اده ، واتهموهما بكل الرزايا وبالعبث بالحريات العامة وخيانة القضية الوطنية ، والاستعباد للفرنسيين ـ كنا هناك نرى اكثر هؤلاء ياتون للسراي يمشون حسيسا يحلقون الجدران حلقا ، يحاولون ان لا يستلفتوا الانظار عندما يدخلون على خير الدين الاحدب ، وبيد خجولة وبعين تتظاهر بالاستحياء ، يتناول الواحد منهم الظرف الذي يكون خير الدين الاحدب قد اعده وسيعا ملآنا !

وكانت لخير الدين عندما كان يسلم الظرف حركة جميلة بليغة تخاطب بفصاحة وبدون كلام المرشح وهو يقبض قائلا :

ـ للحقيقة المال لا لون ولا رائحة له ، وهذه اليد التي تعطيك اياه الان هي اليد التي كنت تدعو عليها بالكسر امس ، وستدعو عليها بالكسر غدا!

واشرقت شمس خير الدين الاحدب . ولم تستطع حملات لا الدستوريين ولا وجهاء بيروت الذين اخذوا يغارون من المكانة التي وصل اليها رئيس الوزارة ، ان تقلل من زهوها ، مع انها كانت حملات محكمة تحالفت فيها جميع العناصر القوية ، ومنها حملات رياض الصلح التي جعل قاعدتها خروج خير الدين على القضية العربية ، وقد كان من جنودها الاولين

وكان رياض الصلح قد رشح نفسه فى الانتخابات الائتلافية ، كما قلنا اعلاه . ويجب ان نعترف انه اذا كان الجانبان ، الجانب الدستوري وجانب الاستاذ اده ـ لم يتفقا قلبا وقالبا على جميع الاشياء فقد اتفقا قلبا وقالبا على محاربة ترشيح رياض الصلح ، حاشدين جميع القوى فى ذلك السبيل !

فانما الفرنسيون جعلوا قضية ترشيح رياض الصلح قضية تحد وهجوم على الانتداب ، مما يجب ان يجعل المؤتلفين من الجانبين يتفقون على محاربته .

وكان الفرنسيون عرضوا فى البداية مالا على رياض الصلح . وكنا كالعادة احد الذين ذهبوا اليه ونصحوه ان يقبض ، وهو يومئذ خالي الوفاض يعيش بضائقة معروفة . قلنا له كما قال له غيرنا ان يقبض وان يعتبر مال المفوضية ايضا لا لون ولا رائحة له ، او بالحري يجب ان يعتبره مال الامة ، يبتزه الفرنسيون جزية منها ، فاذا هو استرجع شيئا منه يكون عمل واجبه الوطني . ولكنه لم يفعل ، وانسحب من الترشيح عندما تألبت جميع القوات عليه ، بعد ان اقسم على الاخذ بالثار .

وكنا نقول له ، انه سيأسف لذلك فى المستقبل وان المال افضل مفتاح للفرج !

وكاذبون ونمامون اعداؤه الذين قالوا بعد ذلك ان الفرنسيين استرضوه بالكثير ، ورضي به وانسحب .

ولكن كان معتادا على الضائقة منذ زمن طويل ، وكان يخيل للناس انه يحبها ويلتذ بها ، ولا يريد التخلص منها ، ولم يكن يشكو ولا مرة منها

او يقوم بابة حركة تدل على انه متذمر منها ، مما لا تستطيع ان تفهمه ليست عقليتنا فقط، بل عقلية العدد الاكبر من السياسيين فى هذه البلاد ، حتى عقلية المعتزين بالتجرد والنزاهة منهم ، والذين كثيرا ما يتركون فرصا اصغر واحقر من هذه الفرصة تفوت ولا يتمسكون بها .

***

ولكن هل خير الدين الاحدب فى ذكائه المفرط، كان يفتكر دقيقة واحدة ان فى استلامه الرئاسة وادارة الانتخابات واموالها ـ شيئا يمس بالكرامة ؟

ولماذا يكون ذلك ؟

طالما ان خير الدين الاحدب ـ واكثر الرجال الكبار الذين حكموا هذه البلاد ـ لم يجدوا اقل غضاضة لا فى خدمة المفوضية السامية واحترام رغباتها والعمل بمشيئتها ، ولا فى عمل الانتخابات النيابية بالشراء والارتشاء وحسب ما تقتضيه سياسة ومصالح المناسبات والاوقات التي وجدوا فيها ، ولا فى الاتكال لاكتساب الشعبية والقوة على مختلف عناصر القبضايات واهل المسدسات والخناجر ؟

ولماذا التشاؤم ، ولوم الكرامة ، طالما ان الباروكيين انفسهم انتهوا ووضعوا يدهم بيد الذين كانوا بالامس يرونهم خونة ومارقين ، وبعد ذلك يتعاونون ويأتلفون معهم ، ويقبلون منهم المساعدة ليصيروا نوابا ، فلا يبقى هناك بعد الانتخابات التي جرت ، شيء لا يجعل الرئيس اده وخير الدين الاحدب ومن ورائهما دي مارتل لا ينامون على اكاليل الغار ؟

والنوم هنا كلمة بالافواه !

اذ ان دي مارتل وخير الدين الاحدب ـ على الاقل ـ لم يكونا ينامان كثيرا ، لا قبل ولا بعد الفوز بالانتخابات الائتلافية بل بالعكس كانا يسهران كثيرا كل واحد من جانبه .

فاما دي مارتل ازداد صداقة لصديقته .

وكان قد كتب لها على اثر فوز خطته بالانتخابات :

ـ هل تعترفين الان ان صديقك يستطيع ان يعمل كل ما يشاء فى هذه البلاد ؟ لقد جعلت ذئاب الامس نعاجا يأتمرون بامري ويعملون بمشيئتي .

والذي تحدثه نفسه منهم بالعصيان والتمرد ، استطيع ان اجعل اعز رفاقه ينقلبون عليه !

وهكذا كانت الامور تجري كما يرسمها المسيو دي مارتل ، وحسب اهوائه ومشيئته .

وكان دي مارتل من اغرب الرجال فى اموره العاطفية ، يغار على حسنائه عندما يريد اذلال الرجل الذي يكون سبب هذه الغيرة ، ولا يغار عليها عندما لا يكون هناك من سبب لاذلال الرجل الذي يقاربها !

فانما الحسناء ، مع انها كانت نوعا ما تحت مراقبة صديقها لم تكن تتورع عن ان تهدي نفسها من وقت لاخر ، الى هذا الفتى الجذاب او ذاك الرجل الوهاب السخي .

وكانت هناك سيدة اجنبية ـ روسية ايضا ـ مطلقة احد رجال الانتداب تدبر لها مواعيدها السرية مع اصدقاء الصديقة كما وانها كانت دوما ترافقها ، وتجد لذة خاصة ، وكسبا كانت بحاجة اليه وجمعت من ورائه ثروة صغيرة جعلتها تزيد فى الزينة والبهرجة ، اللتين كانتا تخفيان ـ انما بطريقة قبيحة ـ تجعيد وجهها ، وتعطيان لشعرها الذي كان الشيب بدأ يضرب فيه ، لونا شقراويا باهتا .

وكان دي مارتل قطعة من اعصاب لا يعرف مطلقا الراحة حتى عندما لا يكون عنده شيء يعمله . وكنا نسميه « الساهر رقم اول » ، فهو لم يكن يحب النوم ، ولاينام . وقد كان مستهترا بالامور ، وكانت روح المغامرة والاقدام التي اتصف بها على جميع انواعها ، واخصها العاطفية ، تعطيه نشاطا جديدا غريبا فلا يتعب ولا يتقاعس ، بالرغم عما تتطلبه تلك الامور من القوى والاجهاد ،

وكان خير الدين الاحدب يحب الظرف ، ويحب الحسن ، ويحب السياسية والحياة اللاهية ، فلا يحتقر اي قسط من اقساط المرح والانبساط والسلوى ويدعه يفوته .

وكان يحيط نفسه بجمهرة من كبار الظرفاء والظريفات ، يتدبرون له الليالي الجميلة الفتانة ، فى ولائم واعياد تسطع فيها دوما نجوم متألقة تثبت سلطانها ـ ومنها نجمة كان يخيل للناس ان نورها يشع على دولته اكثر من انوار باقي النجوم !

- ٣١ -

فردوس الكسليك : قطعة من التاريخ

نأخذ نفساً بعد هذا الفصل الطويل عن عهد دي مارتل ، وهو عهد كان اكثر ضجة ومشاغبات سياسية من كل عهد عرفناه قبل الاستقلال ، يؤلف احداثا وعظات وامثولات كثيرة في حياتنا العامة .

ونأخذ نفسا بعد كل ذلك الشرح الحقيقي والظريف حقا ونتساءل :

« ترى لو كان الفرنسيون يومئذ ليسوا هنا ، يسيطرون بجيوشهم وباموالهم واموالنا وبضائعهم وبضائعنا ، وبصناعتهم وصناعتنا ، ثم بحسانهم وحدهم ..

« ترى لو كنا في ذلك الوقت مستقلين كما نحن اليوم ، ليس عندنا اجنبي يجب مداراة خاطره ، واستدراك شره ، هل كان خصوم الرئيس اده وخير الدين الاحدب يعملون معهما ـ باسم الاصلاح ومحاربة الفساد والرشوة والارتشاء على قارعة الطريق ، ما عمله في ما بعد خصوم بشاره الخوري ـ بالامس ـ عندما قاموا عليه باسم الاصلاح ومحاربة الرشوة والارتشاء ، فعاف الرئاسة وذهب لقصر الكسليك يعتصم ويعتكف فيه ؟

وهل يعترف الناس معنا ، بعد ما جئنا عليه من كشف الخفايا عن الاوضاع الشاذة والمتاجرات غير المشروعة وسياسات الاستهتار والاعتباط في عهد دي مارتل ، ان عهد الاستقلال في ايام بشاره الخوري ، الذي قامت القيامة عليه ، لا يفرق كثيرا عن عهدنا في ايام المفوض السامي المهزار الهازىء ؟

ولكن الجبانة التي تميزنا بها تجاه الاجنبي هي بالاحرى التي جعلتنا لا نجد في عهد دي مارتل من ينادي بالويل والثبور ، ويستصرخ الارض والسماء من مظالم الدولة وفسادها . نعم لم نجد غير الرجل الذي قمنا عليه بالامس ، وذلك عندما عادت لنا شجاعتنا ـ بعد أن استأمنت على

نفسها بعد زوال حراب السنغاليين ، فاتهمناه بكل القبائح والمفاسد التي كان مع حزبه يحاربها في عهد دي مارتل !

وهكذا تنقلب الادوار وتدور الدواليب في هذه الحياة: ويذهب بشاره الخوري الى بيته ، ويأتي كميل شمعون مكانه ممتزا مفاخرا بتجرده ونزاهته وترفعه عن كل حزبيته .

ولكن من منا يضمن ان كل هذه المزايا التي يصف الناس اليوم كميل شمعون بها ، لا يقلبها غدا خصومه ـ عندما يصير له خصوم ـ الى سيئات ومفاسد فيقومون عليه كما قاموا على اده، ثم على الخوري وايضا على الرؤساء الاخرين من قبلهما ؟

على ان الرئيس السابق اذا خسر حاضره ، يبقى له ذلك الماضي في الكفاح ، عندما كان يراس تلك الجمهرة القليلة جدا في عدد رجالها ، وفي واجهتها الاولية رئيس الجمهورية الحالي الاستاذ كميل شمعون .

... عندما كان بشاره الخوري مع جمهرته وحدهم ، بين اهالي الجبل ، يحملون راية العصيان والتمرد في وجه الاستعمار ومفاسده وعبثه بالدستور وتحقيره للبلاد !

ومن مصادفات الزمان الطيبة ان يذهب الرئيس السابق الان الى قصر « الكسليك » قرب جونيه ، الذي يعتكف فيه ، متهما بدوره بالطغيان والفساد والتحكم في الدولة والعبث بمصالحها !

وهذا القصر في الكسليك ، الذي يجعله المعتكف فيه الان يدخل ثانيا في التاريخ ، يقوم على ضفة البحر ، في اجمل شاطىء من هذا المشرق . وهو شاطىء كانت السماء قد جعلته ليكون بالاحرى مرتعا للحسان ولاهل الشعر والغرام اكثر منه ملجا للرجال السياسيين الذين يكون نجمهم السياسي آخذ يتضاءل .

فانما شاطىء الكسليك جميل لدرجة يجعل امواج البحر تلامسه حتى في الليالي العاصفة بحلاوة وعذوبة دائمتين ، وتلبسه الشمس حلة من نور لا تعرفها باقي الشواطىء ، لا في لبنان ولا في غير لبنان وتعطي السماء لاشجاره ولارضه ولصنوبره اخضرارا ساحرا تفرد به بين سواه من اخضرار الحقول والاحراش ، وبحره له زرقة لا تختلف عن زرقة السماء ،

فيبدو الاثنان وكانهما على وصال غرامي دائم ، يكاد الناظر اليهما لا يفرق بينهما ولا يجد ما يدله على انهما منفصلان .

هناك كان قدابتنى الرئيس السابق منذ بضع سنوات ما يسمونه بالانكليزية « بانفلو » جعلها دارة للراحة والترفيه ولنظم الشعر وللاستيحاء وقت التصافي ، ولمناجاة الطبيعة باجمل منظرها وقت الخيال .

وتأخذ اليوم الدارة الجميلة الانيقة الصغيرة ـ التي يخيل للناظر اليها انها عش غرام وملتقى عشاق ، لا معتكفا سياسيا ـ تأخذ اليوم شهرة جديدة تذكرنا بما عرفته فى السابق من شهرة .

وهذه الجنة فى الكسليك لها تاريخ قديم جميل جذاب فى اساطيره وحكاياته . وكانت الكسليك قد عرفت ، رجالا كبارا مشهورين قبل بشاره الخوري كانوا ايضا نزلوا فيها معتكفين لاجئين وقت الكوارث ينشدون فى جنباتها وبظلال اشجارها وتحت وارف اوراقها السلام والطمانينة ، ويحاولون ان ينسوا فى جمالها وروائعها عزا افل وامجادا تمضي .

وكان الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين الاكبر قد لجأ الكسليك (سنة ١٩٣٧) وسكنه باقامة جبرية ، بعد ان طارده الانكليز فى فلسطين عندما كان يقود حرب العرب على اليهود ، وكان امين الحسيني يقول معتزا بنفسه وبخدماته للعرب وتقديره لها حق قدرها :

ـ ليس بين لوحات نهر الكلب التاريخية التي نقر الفاتحون تواريخ امجادهم على صخورها ، وبين الكسليك حيث انا معتكف سوى رمية حجر فقط !

وبالفعل ،كانت الكسليك ، قبل الحاج امين موضوع بحث للمستشرقين القلائل الباحثين عن العبادات والديانات السالفة المنقرضة وانما لباقي الناس كانت اسما مجهولا ، وبقعة غير مطروقة فاذا بعيون العالم العربي والاسلامي ،وبعيون الانكليز معا ، تتجه نحو الكسليك عندما نزلها ذلك المجاهد المغامر ، المفتي الاكبر ، الذي لم تقو عليه عواصف الزمان وقوات الحكام وظل منتصبا امامها يتحداها ويجابهها رغم ما نزل عليه من صواعق ورزايا .

وبعد ان افلت طريد الانكليز من معتقله الفردوسي فى الكسليك حيث كان الفرنسيون قد انزلوه معززا مكرما ، وحيث استعاروا مدة اقامته

معتقلا ، نفوذه ودهائه لاكتساب صداقة العرب فى كل مكان ، وخصوصا فى المغرب الاقصى والجزائر وتونس ، حيث كانت شهادة الحاج امين الحسنة بالافرنسيين وتعاونهم معه ، مما كان يسطره برسائل يبعثها لزعماء الوطنيين فى تلك البلدان البعيدة الهائجة طالبا الوفاق مع فرنسا وليس اعلان الثورة عليها — كانت هذه الرسائل تجعل الفتن على الفرنسيين تتوانى والعصيان يتصاغر ، والتمرد يتضاءل مما قدره هؤلاء قدره ، ومما جعلهم يحيطون لاجىء الكسليك بعناية خاصة ، كانت تجعل سماحته يقول بلطافة ولباقة اشتهر بهما ، وهو يعرف ان الانكليز فرضوا على الفرنسيين يوم لجأ الى هنا ، اعتقاله بمكان معلوم ، حيث يستطيعون دوما الاشراف عليه من بعيد :

— ليس فى العالم شيء افضل من الحرية ، ولكن اذا كان للاعتقال درجات كما هي الحال بالفنادق والقطارات ، فانا من وراء انتقاء الفرنسيين لي هذا الفردوس اسكنه ، ومن وراء حسن معاملتهم لي هنا اعتبر نفسي اني معتقل درجة اولى !

وعندما افلت المفتي ذات ليلة فى اوائل الحرب الاخيرة ، سنة ١٩٣٩ ليلجأ لبغداد ، يضع قواعد الثورة على الانكليز التي قام بها رشيد عالي وصحبه ،ثم يذهب بعد ذلك لبرلين وروما حيث يجد ترحيبا كبيرا، وحيث يحاول ان يتفق مع هتلر وموسوليني على ميثاق الحرية والاستقلال الكامل للبلدان العربية — عندما افلت المفتي ، بعلم الفرنسيين او بدون علمهم ، — ولكن الارجح ان الشيء كان بعلمهم ، فهو لم يكن يعمل شيئا الا وهم واياه متفقون ، كما وانه كان يحترم معاملتهم له وضيافته عندهم كثيرا ،فلا يعبث او يستخف بهما — وفد من بعده على القصر الذي كان يسكنه جماعة من المستنيرين المدهشين ، يقولون بشيعة جديدة اسموها « الداهشية »، بالنسبة لاسم مبتدعها داهش بك ، الذي ذكرنا شيئا عن الرسالة السماوية التي ادعاها وعن العقاقير التي كان يبتدعها والتي يجب أن ترجع الشيخ الى صباه ، اذا لم ترسله الى القبر . وقد تكلمنا عنها سالفا .

وقد جعلته رسالته يقوم بتنبؤات فشارة كنا نستغربها . واشتهر يومئذ باعمال الشعوذات التي كانت تجمع حوله الكثيرين من المعجبين المشدوهين . ولم تتحقق من نبوآته غير نبوءة واحدة فقط ، هي نهاية بشاره الخوري السياسية المفاجاة ، والتي كان داهش ينتظرها ويتكهن عنها ،

متشفيا قبل الاوان ، وذلك لان حكومات ذاك الرئيس لاحقته وطاردتـــه كثيرا ولم تستطع قواته غير المنظورة ان تنقذه منها ، فترك هذه البلادوذهب يموت قتيلا فى جبال الاذربيجان ، كمازعم الداهشيون .

واخذت هذه الجماعة التي نزلت فى قصر المفتي بعد فراره ، تحتفل عند انتصاف الليالي بقداديس وطقوس سوداء ، مستنجـــدة بالارواح تستدعيها للظهور امامها ، وتتحدث اليها وتنشد معرفة الغيب من افواهها.

وكان من ادهش قداديسها السوداء ، عندما احتفلت بمراسيـــم جنازة غريبة مستغربة الطرق ، لفتاة مستنيرة بالداهشية لدرجة جعلتها – وهي الانسة زينة حداد – تنتحر احتجاجا لمطاردة الحكومة لاستـــاذ مما عدته تدنيسا لشخصيته الالهية ولرسالته السماوية ، وكان قد استولى عليها اليأس وقتلت نفسها ببيروت (سنة ١٩٤٦) ، وحملتها الجماعـــة بالخفاء لقصر الكسليك ، حيث احتفظت بها ليالي عديدة فوق منصة عالية مجللة بالسواد ، تنيرها شموع ضئيلة يظهر المعلم عليهاعندما ياتي منتصف الليل ، ويبعثها حية لدقائق قليلة ، تقول فى خلالها للمؤمنين الداهشيين المذهولين امامها ، المستنيرين باعجوبتها ، ما فى العـالم الاخر من عجائب وغرائب ، وما ينتظر الداهشيين فيه من غبطة ومباهج !

وهكذا للكسليك تاريخ حديث خاص ، يتبع الاساطير التي تروى عنه على ممر الاجيال ، والتي ارادت ان تجعله موطنا للجان ، تظهر فيه عنـد بزوغ القمر حوريات جميلات ترقص فى جنباته وبين خمائله المعطرة رقصات الهياكل المقدسة فى عبادة عشتروت ، ربة الجمال والحب !

وبعد ذلك انقلبت تلك الهياكل ، كما انقلبت جميع هياكل الديانات القديمة فى لبنان ، الى اديرة وكنائس ، فكان فى الكسليك دار الراهبـات لم تنفع رائحة قداستهن حتى الان فى طرد رائحة الشبق والاشتهاء التي ما زالت تملأالاجواء !

وكان ابراهيم باشا المصري ، بعد ان اقام معسكرهعلى ضفاف نهـــر ادونيس ، الذي دعي من بعده باسمه ، اي نهر ابراهيم ، قد اشاد دارة راحة على شاطىء الكسليك يأوي اليها لينام ، ويعتزل اليها ناشـــدا الهدوء والسكون كل ما كان عنده وقت لذلك .

وقيل ان جمال المكان وجوه العابق بالعطور كان يجعل ملوكبيبلوس

(جبيل) يجمعون فيه اجمل الحسان فى مباراة للجمال العالي ، وكان اولئك الملوك اول من قام بهذه البدعة ـ بدعة مسابقات الجمال ـ التي تروج اليوم فى كل مكان .

وبالرغم من ان ابراهيم باشا قد اشتهر فى حملته على لبنان وسوريا والاناضول بعفته وابتعاده الكامل عن النساء ، كان ـ كما يقول العارفون ـ يجتمع الى عفيفة اللبنانية ، بنت الجبل الحسناء ، التي لجأت اليه هربا من مظالم والدها ، الذي اراد ان يزوجها ـ وهي الصبية الحسناء ـ الى حاكم كسروان ، الشيخ الهرم المتصابي .

وقد يكون ابراهيم باشا الفاتح الوحيد فى التاريخ الذي لم يستطع سياسيو وزعماء هذه البلاد اغراءه بالملاح وقضاء مصالحهم بتقديمهن له ، الى ان سحره ذات ليلة جمال شواطىء الكسليك وما يحويه من عواطف وشاعرية ، فعاف ـ كما يقال ـ عفته وعرف بين الخمائل المعطرة هذه اللاجئة الحسناء التي استصحبها معه بعد ذلك لمصر ، واقام لها قصر فى سفح الاهرام .

- ٣٢ -

الحسناء التي هزمت خير الدين

لم يكن احد من الذين عرفوا خير الدين الاحدب فى جبروته وقوته، وبعد ذلك النور الوضاح فى الدولة الذي انار به السراي عندما جاء بعد الشيخ محمد الجسر ليمثل المسلمين فى الحكم بطريقة واقعية مستكملة — لم يكن احد يتساءل كيف انتهى هذا الرجل الكبير فجاة وبطريقة عادية مبتذلة !

هذا السؤال لم يتساءله الكثيرون وذلك لانهم كانوا يعرفون باجمعهم لماذا انتهى خير الدين تلك النهاية الزرية (ترك الوزارة نهائيا فى اذار ١٩٣٨)

... نهاية ليس فيها جاها ولاتخليدا جتى ولامالا ، مع ان كان خصومه كانوا ينسبون اليه الملايين ، ويتحدثون عن الثروة الطائلة التي زعموا انه جمعها من وراء رئاسته الفردية للوزارة .

انما الذين شاهدوه فى باريس ، بعد ان راوه فى ايامه السوداء جدا ، وبعد ان اضطر ان يبيع سيارته التي كانت عزيزة جدا عليه ، وكان قد اخذها معه من هنا ، وان يبيع ايضا ازرار قمصانه الذهبية فى ضائقة استحكمت به ، وينتهي اخيراً معدما وحيدا — اثبتوا كذب شائعة غناه واثرائه ، وامنوا معنا انه عندما ترك السراي بعد ذلك العز ، ترك ملايينها فيها !

وكان قد ترك لبنان ، بعد ان عثر به الحظ ، وعثرت به عاطفة صاخبة لم يستطيع كبح جماحها . وكانت بالاحرى السبب الرئيسي للتقاعس والعبث اللذين تسلطا عليه بعد تركه الحكم . وجاءت بعد ذلك ، واخيرا حكاية تاديب صديقته الحسناء على مصطبةالجبيلي،حيث تصدت لها سيدة محترمة كان قد امتلأ صدرها عليها غضبا وصخبا ، فكانت هذه الفضيحة الاخيرة خاتمة الفضائح المتعددة من هذا النوع وهي التي اودت به الى الرحيل والى تزعزع مركزه تماما كرجل دولةكبير ، واضطراره

لرمي اطماعه السياسية بالبحر والرحيل الى الخارج !

وجيء من بعده بوزارة فرضها المفوض السامي ائتلافيــة بــين الدستوريين والادبيين ، يكون من الدستوريين فيها الامير خـالد شهـاب كرئيس ، الاستاذ كميل شمعون كوزير (من اذار الى تشرين الثاني ١٩٣٨)

ولم يستطع الاستاذ اميل اده مع الوزارة الجديدة ان يسترجــع شيئا من سلطانه الذي كان اخذه منه المفوض السامي ليعطيه للاحـدب يحكم بالسراي حكم المعلم ، وكانت المفوضية السامية قد اجبرت اميل اده لان يعمل رئيس جمهورية فى بيته ، وذلك تبعاللعداء الذي يضمره له دومارتيل .

وكانت هذه الظاهرة تجعل الناس يتصورون رئيس الجمهـورية مقصاصا شان التلميذ الذي يكون خالف معلمه .

ولكن على كل حال كان اميل اده قد اخذ مع الوزارة الجديدة ، وبعد رحيل خيرالدين الاحدب ، يجد راحة لم يعرفها ايام وزارة هـذا الاخير ، الذي كان دوما مستعدا للقيام بمغامرات سياسية ، تقلق رئيس الجمهورية وتضع السراي فى خطر من المشاكل والمشادات .

فانما مع هذه الوزارة الائتلافية ، وجد الرئيس اده نفسه امام رئيس وزارة مسالم صاحب اخلاق رضية نزيهة مجردة ، لايتصـف بالكثير من الدهاء ، فيمكنه ان يكتسبه بشتى الطرق .

واسرع اده الى ذلك واخذ يدلل الامير خالد حتى جعلـه يعمـل برغباته ، ويقضي له بعض الاحيان مصالح اعوانه، مما اغضب ليس دي مارتل فقط ، بل ايضا الكتلة الدستورية ولامير خالد والاستاذ كميل شمعون ممثلاها بالوزارة ، الواحد رئيس الحكومة والثاني وزير المالية .

وكان ايضا ان الاستاذ كميل شمعون راى ــ وهو من اركان تلـك الحكومة الائتلافية ــ ان صلف الكتلة الدستورية ومطامعها ومطاليبها الكثيرة تهدد هذا الائتلاف بالشقاق المريع ، فوجد من جانبه ــ حبا بالتضامــن والاتحاد ــ ان يماشي الاستاذ اده رئيس الجمهورية ، على منوال مماشـاة الامير خالد لحضرته ، فغضب الدستوريون وصخبوا على زميليهــم ، وانذروهما اولا وثانيا بوجوب السير فى الوزارة بسياسة حزبية دستورية

صرف ، لا يجب ان يريا فيها غير مصلحة الحزب واعوانه ، مما لم يقبلـه الاستاذ كميل شمعون على نفسه ، وقد كانت اكبر الظاهرات التي اخذها الدستوريون ليبنوا زعمهم القائل ان حضرته يخرج بالوزارة على كتلته هي انه كان يجد من الاشياء المبهجة المستحبة ان يزور الاستاذ اده ، هذا الرجل الظريف الجذاب الفكه الحديث واللطيف المعشر ، ويقبل دعواته المتوالية للعشاء ، وللحفلات التي كان يقيمها .

ونفذ صبر الكتلة بعد الانذارات ، ووجدت في مسلك وزيريها تحديا لها . وقد اخذ الامير خالد عن كميل شمعون ايضـا شجاعة التمرد ، فاتخذت قرارا بوجوب انسحابهما من الوزارة وزوال الائتلاف ، واعلنت قرارها وابلغتهما اياه ، وهي تعتبر انهما سيمتثلان له !

ولكنهما – ويا لدهشتها – لم يفعلا واعلنا العصيان، ورفضا الانسحاب: الامير خالد من الرئاسة وكميل شمعون من وزارة المالية !

فماذا تعمل الكتلة ؟

غضب اعضاؤها غضبا كبيرا ، وطلبوا طرد المتمردين من الحزب حالا وبدون سؤال .

ولكن كان هناك الرجل الرابع بحيلته الواسعة وبدهائه الغريب ، وهو دهاء لم يخنه ولا مرة – حتى ولا في اليوم الذي اعتزل فيه رئاسة الجمهورية في صيف هذه السنة ١٩٥٢ .

ولكن كان هناك الرجل الرابع رئيس الكتلة ، فقد جارى الغاضبين في غضبهم ، واشترك في الصخب والشكوى من الولدين الشاطرين ، ولكنه قال ، ان الحزب المدرك الحكيم لا يترك غيره ينال منه ويشمت به ولا يفتح باب الانشقاق في صفوفه ، ومن الحكمة ان يغسل اثوابه بنفسه !

وبلع رجال الكتلة عند هذا القول الموسى وسكتوا ...

وعد طبعا الاستاذ الرئيس اميل اده هذا انتصارا له ، وهو الذي كان يعتز في احاديثه هنا وهناك ان عضوين بارزين جدا من الكتلة ما كـادا يدخلان بالوزارة ويتعاونان معه ، حتى وجدا اين هي خدمة البلاد الحقيقية واين هي الحقيقة ، فتمردا على حزبهما وادارا له ظهريهما !

انما كان من صالح الكتلة الدستورية ان تتغاضى عن الامر ، بعـد أن

اصبح معروفا عند جميع الناس ان الامير خالد وكميل شمعون متمردان عاصيان . وهذا لم يمنع رجال الكتلة من الموافقة اخيرا على راي رئيسهم والرجوع عن تهديد زميليهما بالطرد والتشنيع والاعلان بانهما كانا فى كل ما عملاه وكل ما يعملانه متفقين مع الكتلة ، وليست اخبار الخلاف المزعوم بين الكتلة وبين ممثليها بالحكومة غير تلفيقات جرائد ومشاغبين ، يريدون الايقاع بالحزب ، والعمل على التفرقة فيه !

وسكت رئيس الكتلة ، والشيخ فريد الخازن والامير مجيد وصبري حماده وحميد فرنجيه وغيرهم من اركان الكتلة عن هذا التمرد غير المنتظر ، ومشى الائتلاف فى طريق عادية ساكتة حتى اليوم الذي اخذت فيه شائعة التجديد لاميل اده تروج هنا وهناك .

- ٣٣ -

تمديد لا تجديد ورئاسة ليست بالسراي

لم يستغرب مطلقا الذين يعرفون جيدا المسيو دي مارتل ونزعته نحو التشفي والتحكم والخروج على الناس بمفاجاآت غير منتظرة ـ لم يستغربوا الشائعة القائلة بانه سيجدد للاستاذ اده ، ولكن عن طريق التعيين لمدة ثلاث سنوات .

وظل الناس يعلقون على الشائعات ويتناقشون بها ، حتى جاءت اخيرا حقيقة واقعية !

وطلع المفوض السامي بهذا القرار على الناس ، عندما اتخذ قرارا بتعيين الانتخابات لائتلافية لمجلس الثلاثة وستين يمدد فيه رئاسة الاستاذ اميل اده للجمهورية اللبنانية ثلاث سنوات جديدة ، على ان تبدا رئاسته الثانية فورا ، اي بعد ثلاثة اشهر من صدور ذلك القرار ، وفي اليوم الذي تنتهي فيه مدة رئاسته المنتخبة الاولى .

وبطبيعة الحال وجم الدستوريون وغضبوا وسكتوا في البداية، وذلك لان التمديد كان نوعا ما شرطا من شروط الائتلاف ، وجلب الستةوالعشرين من الدستوريين لمجلس الثلاثة والستين ، في الوقت الذي كان فيه امل الدستوريين بالنيابة ، عن غير طريق الائتلاف ، ضئيل ما عدا قلائل منهم ، وهكذا يكونون قد قبضوا سلفابالائتلاف تعويضا عن تمديد الرئاسة لخصمهم .

وكان من الطبيعي بعد ان يجيء الدستوريون بذلك العدد الكبير من النواب الى المجلس ان يزدادوا نشاطا ليس فقطان التجديد او التمديد لاده يجعلهم ينتظرون دورهم ثلاث سنوات يتحكم الاستاذ اده بخلالها تحكمه الحزبي ، وكان قد اخذ يتمشى عليه منذ ذلك الوقت ، بل ايضا لما في ذلك القرار بتمديد مدة رئيس الجمهورية دون الرجوع للمجلس النيابي القائم غير المعطل من مخالفة للدستور ، ومما لم يجر مثله من قبل ، وهذا يعاكس

تماما مبادىء الكتلة التي قامت على اساس جعل الدستور مصانا ومقدسا فكان من الطبيعي ـ على اعين الناس على الاقل ـ ان يقولوا عن قرار دي مارتل انه خرق فاضح للدستور .

فانما التمديد بالتعيين لرئاسة منتخبة في جمهورية برلمانية ، هو عمل لا يقدم عليه غير دي مارتيل ، الحاكم المستهتر .

وكان من الواجب هكذا على الدستوريين الذين لقبوا انفسهم حماة للدستور والنظام البرلماني ان تقوم ـ ولو بالظاهر ـ على هذا القرار ، فاخذوا بعد ان استقر لهم الامر فى المجلس وجاؤوا اليه من وراء هذه التسوية المخجلة يملأون الدنيا احتجاجات واعتراضات ، مشمرين عن سواعدهم ، يعملون فى جميع الميادين هنا وفى باريس ، فى سبيل توقيف هذا القر[illegible] الفائه .

وقد ذهب بعضهم الى اتهام رئيسهم الشيخ بشاره الخوري بانه هو الذي تدبر مع دي مارتل هذه التسوية ، متجاهلين تماما انهم هم اولا كانوا على علم بماكان المفوض السامي يضمره ، ولكنهم باجمعهم سكتوا عن الشيء حتى تمكنوا من النيابة وجاؤوا اليها ، وبعد ذلك قاموا على هذا التمديد يجمعون الاموال لمحاربته. وقد قيل يومئذ ـ كالعادة ـ ان تلك الاموال كانت بالاحرى اموال هنري بك فرعون ، مما لم يثبت شيء من حقيقته !

وكان هذا الاخير اشد حماسا فى محاربة التمديد ، يحلف ويقسم فى حماسه الدائم المعروف ، انه سيحاربه بكل ما عنده من قوة مادية ومعنوية ووجاهة وزعامة .

والخواجا ، كان دوما غنيا ووجيها وزعيما .

وكان الفرنسيون دوما على صلات طيبة معه وكان مقره مضافة لهم ينزلون فيه نزولهم فى بيوتهم . وكانت كلمته تجد عندهم اذانا صاغية ، لا سيما وهو من انصار الانتداب الاولين ، ومن اشدهم تشيعا للصداقة الفرنسية ، يساعدها فى استتباب امرها بالبلاد بواسطة نفوذه المعروف الدائم فى الاوساط الشعبية ، خصوصا عند العمال والقبضايات والسواقين ، المديونين له غالبا بالكثير من المساعدات ، ومنها المالية .

والخواجا كريم جدا – انما بطريقة خاصة – عندما يكون هنـــاك اعلان ، وعندما يكون هناك اكتساب قوة جديدة له ، وعندما يكون هناك سبيل لمضاعفة غناه وزعامته .

وكان كما قلنا ، من اكثر انصار بشاره الخوري حماسا ضد التمديد ، يزبد ويرعد ويهدد . وظل هكذا يثير في حفيظة الدستوريين ، حتى الليلة التي جاء فيها حبيب ابو شهلا من جانب الرئيس اده ، يخفف من روعه وغضبه ، ويفاوضه في مبدأ الاتفاق مع اده ومصادقته ، مما سمعه الخواجا بكل ارتياح ، حاسبا ان التجاء اده اليه يجب ان يجعله يقبل بالتمديد . وذلك انه وجد في محاولة اده التقرب منه ما كان يرضي صلفه واعتداده بنفسه ، ووجد في ذلك ما يكفيه لان يسكت عن ذلك القرار الخـــارق المفاجيء !

وكان في ذلك الزمان رجلان سياسيان جديدان ، العبانان متلاعبان ، دخلا في الميدان رهوانين مغامرين ، الواحد شجاع عالي الاعتداد بالنفس ، والثاني ثعلب مراوغ نبيه ، وقد امتلك كل منهما من الحيلة والنباهة مـا ليس عند ملوك الجان .

اولهما كان الاستاذ حبيب ابو شهلا ، المهر الابجر ، الذي يدخل على الدنيا السياسية بنباهة مستحبة وبوجه صبوح وباطماع كبيرة ، ويضرب المقياس العالمي بين السياسيين في السرعة التي حققها فيها ، يساعده في ذلك اكثر من كل شيء احاديثه الظريفة واقواله النابهة ، وكلمة عاليـة جريئة قد تذكرنا كثيرا بالتاجر الذي ياكل مال التاجر !

وانما الاقوال الظريفة النابهة في جميع بلدان العالم ، كثيرا ما ترفـع صاحبها ، وكثيرا ما تنقذه من المهالك ، وكثيرا ما تجعله يصل الى المعالي ويفوز بكل مبتغى ، وكثيرا ما تخرج السياسيين من المازق ، وتفتح لهم باب النجاح والشهرة .

والاستاذ ابو شهلا كان قد حفظ التاريخ واجتهاداته ، وهو من أهل الادب القليلين في هذه البلاد الذين يطالعون كثيرا جدا ، وذلك مع كل ما كان وما يزال ، عنده من مشاغل واعمال سياسية وغير سياسية ، وهي مشاغل مع كل اهميتها ، ما اشغلته مرة واحدة عن مجونه وندماته ، والاهتمـام بنفسه .

ادخل الاستاذ اميل اده حبيب ابو شهلا الى السراي كنائب فى مجلس الائتلاف الكبير ، وذلك بعد ان كان جعله يبدأ حياته السياسية فى البلدية عندما عينه عضواً فيها ، وحيث بدا مجده حالا يتألق خصوصا عندما طلب تعديل امتياز شركة المياه ببيروت لصالح الاهالي، مما كان اول هجوم معروف على الشركات ذات الامتيازات. وقد كانت حتى ذلك اليوم الذي فتح فيه ابو شهلا جبهة الحرب عليها ، معدودة مقدسة محترمة لا يجوز مسها والبحث بها ، تحميها الفوضية بكل قواها وتستثمرها لصالحها، دون ان يكون للحكومة اللبنانية اقل حق عليها .

وعندما دخل حبيب ابو شهلا النيابة ، دخل حالا فى الاستاذ اده دخول النعس ، اذ ان رئيس الجمهورية احب فيه روحه ونباهته وظرافته وقد كان الاستاذ اده معدوداً من سادة الظرفاء الاولين . وما هي الا ايام حتى اصبح حبيب ابو شهلا مستشاره النافذ الكلمة ، صاحب القول الاخير والراي المسموع ، والخصم للدستوريين الاقوى والاكثر حركة للوقوف بوجههم مما جعل طبعا الاديين يعززونه ويرفعون من شانه .

ولا نقول هنا مع المثل العامي ، بمناسبة المكانة التي وصل لها حبيب ابو شهلا عند الرئيس اده ، وكيف انه جعله حالا مستشاره الاول والاقرب: « من كان الديك دالوله ، كان القن ماواه ! »

. . . اذ ان هذا الديك كثيرا ما قاد الاستاذ اده نحو الاشياء الكبيرة ، وكثيرا ما جعل نفسه فى حيلته ومقدرته من ضروريات بقاء اميل اده على سؤدده وقوته ، اللذين كانا تحت الخطر الداهم من وراء علاء المفوض السامي له من جهة ، ومن وراء حملات الدستوريين العنيفة المتواصلة عليه من جهة ثانية .

جاء حبيب ابو شهلا فى مجلس الائتلاف ، وحالا اصبح يفتش عن الثروة والمعالي . وكان يعرف كيف ان جميع الصفات ، مع الفقر تصبح سيئات ، وان حلاوة لسانه ورشاقة قده ولطافة اقواله تكتمل تماما وتصبح سامية اذا رافقتها راحة جيوبه ، فاخذ يكدح ويجري وراء المال بسرعة . ولما كان حب المال ، مثل القابلية يزداد على القبض ، كما تزداد القابلية عند الاكل ، فالاستاذ الحلو الطماع اصبحت له قابلية الوحوش عندما اخذ يهتم بامر جيوبه .

 ١٣

وقد كان سيادته ، الحامل نيشان القديس غريغوريوس الكبير الذي تعطيه الكنيسة الارثوذكسية مكافاة للعفة والطهارة والتقى ، مما ليس عنده شيء منه ـ كان سيادته ، يجد دوما ، بالرغم من مشاغله الكثيرة وقتا كافيا ليطالع تقريبا جميع الكتب والمجلات على اختلاف اصنافها ولغاتها . وقد كان يعد المطالعة من ضروريات الرجل الذي يريد ان يعتلي بالسياسة ويكبر . ومن ادهش ما عمله في حياته انه في الساعة التي مشى فيها الانكليز من فلسطين الى لبنان في حربهم مع الفيشيين ، كان اول شيء عمله انه اخذ يستكمل تعلم الانكليزية ، التي لم يكن يتقنها قبلا ، حتى استطاع بعد شهر واحد أن يصبح محدثا فيها .

كما وانه كان يجد وقتا طويلا ايضا للمغازلات واعمال الحب ، التي هي جزء رئيسي اساسي من حياته . وكان يعتبر في اغتراره بنفسه ان السماء ما اعطته هذه الرجولة القوية الجذابة الا ليجعل الحسان يستمتعن بها ويسعدن بساعات الغرام التي يغدقها عليهن معتبرا انه اذا لم يفعل خان الرسالة التي كلفته بها السماء ، كادونيس جديد ارسلته للارض من اجل ارضاء الهاويات المستمتعات وكان يجد وقتاطويلا ايضا لتدبير هندامه ولباسه وزينته بطريقة مستحبة جميلة ، جعلته حسب اراء الكثيرين «بترونيوس» هذا البلد ، والحكم في اللباقة .

وكان جاء النيابة كما اسلفنا واحدا من السبعة والثلاثين ، حصة الرئيس اميل اده في مجلس الائتلاف المعروف .

تماما ايضا كما جاء في سنة ١٩٤٣ من حصة بشاره الخوري في مجلس الاستقلال . فانما هو رجل سياسي دخل الدولة وظل فيها دوما ، حتى عندما رحل بشاره الخوري من الرئاسة سنة ١٩٥٢ ـ وقد كان اكبر المقربين اليه ـ ولكن بقي صديقنا « بترونيوس » اللبناني في القصر ولم يرحل معه .

بل ما كاد يغيب لساعات معدودة يوم الانقلاب عن السراي ، حتى عاد اليها مع كميل شمعون !

وقيل دوما ـ عند حساده ومنتقديه المبتذلين العاديين ـ ان حبيب ابو شهلا يأتي مع ام العروس ويذهب مع ام العريس !

انما على كل حال ، لم تقم دولة بالسراي ، الا وكان اول الذين يتقبلون التهاني عنها !

ولكن ما العمل اذا كان فى روحه المتلاعبة وشخصيته القوية ، يجعل نفسه لا غنى عنه لاية دولة جاءت ؟

فهو يفتن السرايات صغيرة كانت ام كبيرة ، مثلما يفتن النساء على اختلاف حلاواتهن .

ولا شك ان هذه البراعة فى التنقل والاقتران بكل حكم جديد ، هـي التي دعتنا ودعت الناس لتشبيهه بميكافيل . ولقد كان فى ذلك الوقت اخذ يكون معروفا بهذا اللقب .

وميكافيل هو ذلك الايطالي السياسي الاديب المشهور الاستاذ الداهية الذي وضع قاعدة السياسة فى ان يلبس صاحبها لكل حالة لبوسها . وقد اجاز فى السياسة القول المأثور المنسوب للجزويت ، والقائل « الغاية تبرر دوما الواسطة » .

ولكن هل يمكننا ان ندعو ابو شهلا انتهازيا ؟

نعم ، لانه ما ترك مناسبة الا وانتهزها ، حتى صار ما هو عليه الان : حكيم عصره وقارون زمانه ، وكان عند قارون كنوز لا تنتهي ولا تنضب !

كان انتهازيا ، مع ان مكانته لم تكن حقيرة ، وقوته لم تكن زرية يوم اعتنق السياسة ودخل اليها دخول المطمئن الامين ، يمشي على قدميـه وليس على اقدام غيره !

والاديون حتى الان ، لا يزالون يعيرونه بالخيانة،عندما ترك صفوفهم والتحق ببشاره الخوري ، يوم تألق نجم هذا الاخير وقالوا انه ناكر الفضل مدعين ان اده هو الذي عمله ، ولولاه لما وصل الى ما وصل اليه . ولكن حبيب ابو شهلا ، هذا الكهل المتصابي اليوم ، النائم على امجاده السياسية والغرامية والمالية ، هو الوحيد مع ذاك الذي يسميه خصومه وحساده ستافسكي لبنان – اميل البستاني – اللذان عملا نفسيهما لوحدهمـا ، وليس لاحد ان يدعي انه عملهما .

والاستاذ ابو شهلا عرف كيف يستنير من انوار كل شمس جديدة تطلع فيطلع معها ويخدمها بقوة عارضة وبكلمة عالية وباعمال ثابتة ويخلع على « الدونكشية » منها رداء من العز والقوة ، يخفي معايبها ونقائصها ويفرض بعد ذلك نفسه عليها !

وهكذا ، عندما تألب الدستوريون فى مجلس الائتلاف على اميل اده بعد ان كان قد صدر القرار بتمديد مدته ، وبعد ان استطاعوا ان يضربوا نواب اده بعضهم ببعض ـ شمر ابو شهلا عن ساعده ونزل للميدان، يجمع نواب اده ـ وهم الاكثرية ـ فى حزب ينتصر للرئيس اسماه حـزب الاتحاديين وتزعمه ووضعه بالمجلس فى وجه الخصوم ، وجعل رجالـه ـ وحتى بمساعدة بعض الدستوريين ـ يؤيدون المفوض السامي فى قراره بالتمديد ، ويخذلون بشاره الخوري فى اكثريتهم النيابية الساحقة ، وذلك بعد ان تخلى عن هذا الاخير عدد ليس بقليل من نوابه الستة وعشرين . وقد فعلوا ذلك عندما شعروا بجهة ضعف فيه جعات المفوضية تمـدد لخصمه بعد ان كان يؤكد حصوله على الرئاسة قريبا .

وكان من الطبيعي ان يحتج على قرار التمديد كل نائب ديموقراطي برلماني حقيقـي ، اعتباراً بانـه قرار يطيـح بصلاحيـات النواب الذين يجب المحافظة على صلاحيتهم ، فلا يجعلونها موضوع سخريـة وهزوء

وبعد ابو شهلا ، يجيء الرجل الاخر ، الغزال الثاني ، الاستاذ يوسف سالم من نواب الدستوريين ، او بالحري الذي كان محسوبا على الدستوريين وقد جاء من حصتهم فى مجلس الائتلاف . ولكنه كان الاكثر امتزاجـا بينهم مع الاستاذ اده حتى مرارا ما كان يخيل انه بالاحرى من انصار هذا الاخير ، اكثر مما هو من انصار الشيخ بشارة الخوري !

وكان ولا شك ، الانتهازي رقم اول ، الالمعي فى البلد .

بدأ مهندسا فى شركة المياه ، وما عتم حتى فرض نفسـه عليها ، وقبع مدير تلك الشركة وجلس مكانه يتحكم فيها ، ويجعل اصحابها السيـدة الجليلة مدام صباغ ونجليها الظريفين ، مع كل ما عندهم من صلف وقوة ، يخشونه ويعطونه من يـده فى ادارة شركتهم واستثمار اموالها !

وكان اول شيء عمله اقناعهم ان الشركة مطموع فيها كثيرا ، وهـي بحاجة دوما لحماية الدولة ونوابها . وبدلا من شراء تلك الحماية بالمـال كما يرى اكثر الذين يجب ان يتولوا حمايتها ، فانه هو يوسف سالـم يمكنه ان يعمل نائبا ، وهكذا عندما يصير فى السراي يستطيع ان يجعـل حماية الشركة من جانب الدولة لا تكلف شيئا ...

ونزل للانتخابات ، ودفعت الشركة ، وصار نائبا واخذ بعد ذلك يلعب الدور الذي يتفق مع نباهته ومصالحه وأطماعه .

فلماذا يعادي اده وهو رئيس الجمهورية ؛ طالما ان دستوريته يمكنهـا ان تكون ضعيفة تجاهه وتستطيع ان تخدم حزبه وتخدم اده معا ، وطالما انه يستطيع ان يعلن نفسه رسول السلام ، دون ان يزعج الطرفين ؟

وكان يقول انه يريد ان يوفق بين الجانبين ، مما لا يعده شيئا صعبا كما كان غيره يتوهم . وكان من جانب اخر يدعي انه مضطر كمدير شركة ، وكيلها المحامي مكتب الاستاذ اده ، لان يكون على افضل العلائق واوثقها مع الرئيس القائم !

وكان هكذا هو المدعو قبل الجميع - يوم اعلن دي مارتيل التمديد ، وشن الدستوريون بعد ذلك هجومهم الكبير على ذلك القرار - ان يتطوع ليحاول اقناع الدستوريين بقبول هدنة يرضى بها الاستاذ الرئيس ، مقابـل استجابة مطالب عديدة للدستوريين ومقابل اشراكهم بالحكم بطريقـة اوسـع .

وطبعا اشترك الاستاذ ابو شهلا - مستشار القصر الدائم على تتابع رؤسائه - وتطوع مع الاستاذ يوسف سالم لتنفيذ هذه الرسالة السلمية التي عدها ابو شهلا وسالم فى اقوالهما وقتئذ - وقد يكونا وجداها ايضا - رسالة وطنية مقدسة !

والاستاذ ابو شهلا ، الذي اسموه بعد ذلك برنادوت ، كان دوما لا يترك اية قطيعة او مشادة او مساجلة سياسية حزبية الا ويقلب نفسه حالا الى حمامة السلام ، فيحمل جانحيه ويتابط غصن الزيتون ، ويدخل بين المتخاصمين ، ويأخذ فى السعي لاصلاح الحال ، ولازالة الخلافات ، ويجد فى ساعات الصخب ، الكلمة اللازمة لتخفيف التوتر ولتذليل الصعوبات امام الائتلاف الذي قام .

وكان ولا شك لمساعي الرجلين النابهين فضل اكبر من فضل الانذار ، الذي هدد فيه المفوض السامي بالتخلي عن الدستوريين وبحل المجلس ، اذا عارضوا التمديد بطريقة نيابية !

ورضي النواب المحتجون بماكان، وذهب الدستوريون الى اكثر من ذلك اذ انهم اخذوا يشتركون بمعظم الوزارات التي جاءت بعد التمديد حتى وصلوا الى اخر وزارة ائتلافية بعهد مجلس الثلاثة والستين التي شكلها الاستاذ عبدالله اليافي ـ وكانت رئاسته الاولى للحكومة ـ واشترك فيها من الدستوريين حميد بك فرنجيه، وصبري حماده .

والدستوريون هذه المرة ، اعتبارا ان وزيريهما السابقين في وزارة الائتلاف السالفة ، الامير خالد وكميل شمعون ، لم يتقيدا بارادة الكتلة وبخدمة مصالحها وهما في الحكم ـ قلنا والدستوريون هذه المرة وضعوا شروطهم على وزيريهما في الحكومة الائتلافية الجديدة ، قبل ان يوافقوا على تعيينهما ممثلين للكتلة في الوزارة الجديدة :

١ ـ العمل اولا في الوزارة لتقوية الحزب الدستوري ووجوب طغيانه على مصالح الدولة .

٢ ـ وجوب عدم التئام وتجانس الوزيرين الدستوريين مع الوزراء الباقين ، خصومهما السياسيين ، على ان يبقيا مستقلين في وزارتيهما تماما .

٣ ـ اعتبار الكتلة الدستورية معارضة دوما حتى في قلب الوزارة ـ مما يدعو ممثليها في الوزارة لخلق المصاعب لرئاسة الجمهورية ولمحاولة لا لتسهيل مهمتها ، كما كان يفعل كميل شمعون والامير خالد في الوزارة الائتلافية الاولى .

٤ ـ القيام بمساع خفية ضمن السراي لاضعاف الرئاسة الممددة ولتصويرها للموظفين رئاسة هزيلة لا يجب احترامها وعمل حساب كبير لها .

٥ ـ الحذر من مناورات وملاعبات حبيب ابو شهلا ـ الذي كان قد اصبح مدرب الرئاسة الممددة ، وعدم الانصياع والخداع بحيله وفنه في تطبيق المعارضين ، يقلبهم انصارا للاستاذ اده كما كان يفعل غالبا .

***

هنا تدعونا المناسبة للرجوع قليلا الى الوراء ، الى الوزارة الائتلافية الاولى التي دخلها من الدستوريين الامير خالد شهاب كرئيس ، والاستاذ كميل شمعون وسليم تقلا كوزيرين ، وكيف ان الاولين التأما مع الوزراء

الادبين ،مما دعا الكتلة الدستوريةلارسال ذلك الانذار الى وزرائها الثلاثة بوجوب الاستقالة . . فلبى سليم تقلاوحدهالطلب ،وعصى الامير خالد وكميل شمعون اعتبارا انهما دخلا فى الوزارة لخدمة ابلد وليس لخدمة الحزب وحده ، وقد وجدا عند الادبين تعاونا صحيحا فلا يمكنهما ان يتنكرا لهم !

وكانت معارضة الامير خالد شهاب لهذا الانذار قوية غير منتظرة من رجل عرفناه لين الاخلاق يتصف بالمرونة وروح المسالمة ، ولكن يظهر ان عزة نفسه استيقظت تماما وذكر ـ كما كان من الطبيعي ان يفعل ، انه سليل بيت كبير قد تكون السماء اصطفته لاعادة امجاده ولرفع شأنه وهو يعمل فى هذا السبيل دوما ، ولا شك انه استطاع كثيرا فى هذا المعنى ، لذلك لا يمكنه ان يأتمر هكذا بامر الحزب لا سيما وهو رجل عاش مستقلا مخب لوطنه ، لا يخشى شيئا ويغار جدا على سيرته وكرامته ، وهو ما انضن واصطبغ بصبغة الدستوريين ، الا لانه آنس فيهم حبا للتحرر وللاستقلال فى وقت كان الانتداب فيه يتحكم بالبلد تحكما فظيعا .

لهذا كانت معارضته لانذار الستوريين قوية ، وهدد بالاستقالة مما دعا الدستوريين والادبين للتوسل اليه بالبقاء .

وللحقيقة ، من الواجب القول أن الامير خالد شهاب كان بامكانه فى كل وقت الجلوس فى السراي ، فهو العنصر النزيه المحايد بالاحرى الذي كانت الدولة تلجأ اليه فى كل مرة كانت هناك رسالة سلام واتحاد تريد ادائها .

وعلى هذا الاساس ، كما جاء فى كلام مسابق بهذا الكتاب ، جاءدولته فى الانقلاب الاخير يستلم الحكم يتربع فيه اليوم ، فى الوقت الذي نكتب فيه هذه المذكرات ـ حازما شديدا عنيفا ، ولكن عادلا يمشي الى الامام دون ان تصده العقبات والصعوبات الكثيرة التي يضعها الكثيرون امامه ، ويطمئن الناس فى جميع الامور السياسية الى تجرده ونزاهته .

وكان قد دعاه الرئيس كميل شمعون لاستلام الحكم من المفوضية اللبنانية بعمان حيث كان يقوم بوظيفته الدبلوماسية على أفضل وجه وبغيرة كاملة جعلت الملك عبدالله ـ كما يعرف الكثيرون ـ يدعوه لترك المفوضية اللبنانية ولاستلام الحكم فى عمان ، وتثبت جلالته فى هذه الدعوة طالبا منه اعتناق الجنسية الاردنية .

واعتذر الامير خالد ، ولا سيما وانه كان دوما يعتبر ان عليه نحو لبنان رسالة يؤديها خصوصا فى كل مرة تكون الاحزاب تتطاحن وتتذابح وتجد الدولة لا بد من دعوته لاستلام الحكم لينقذ الموقف .

وقد يكون السياسي الوحيد فى هذه البلاد الذي لم تغره عظمة السراي فهو كان دائما يدخل للوزارة هادئا ساكنا وديعا ويخرج منها هكذا تماما .

وفى جميع الوظائف التي تالب فيها ، قد لا يكون عمل المدهشات ، ولكنه كان دوما نظيفا ومثالا للنزاهة ، باجمعنا نعرف اولا موقفه تجاه اليهود فى حاصبيا ، ورفضه ثروات كبرى كان اليهود يعرضونها عليه شرط تنازله عن بعض اراضيه فى الجانب الاخر ، ومقابل الكف عن عل.. .ة توسعهم فى تلك المنطقة .

كما واننا لم ننس موقفه الجازم عندما هاجم الانكليز والديغوليون سوريا ولبنان فى ربيع ١٩٤١ ، واستدعاه القائد الانكليزي الذي كان يرابط مع جيشه على حدود مرجعيون وحاصبيا ، وفتح له صناديقه وقال له ان يأخذ ما يريد على ان يدخل الجيش الانكليزي ولا يعترضه رجاله فى تلك المنطقة .

وكان جواب الامير خالد انه سيأمر رجاله باستقبال الجيش بالترحاب ولكنه يدير ظهره لصناديق القائد الكبير ويقول :

ـ تقولون انكم تأتون بلادنا لمساعدتنا فى جهادنا للاستقلال ولم يتعود احد منا نحن الامراء الشهابيين الذين عملوا دوما لاستقلال لبنان ان يساوم هكذا على ذلك الاستقلال .

وهكذا مشى دوما الامير خالد فى حياته السياسية على هذه الوتيرة كما وانه كان من اكبر العاملين لليقظة المدهشة التي استيقظها الشهابيون فى هذه البلاد وظهورهم القوي فى عالم السياسة ، بعد ان كانوا منذ عهد المتصرفين حتى هذه اليقظة الجديدة قد اختفوا عن المسرح الوطني ، مما جعل الناس ينسبون اليهم الخمول والانحطاط والتلاشي مما يكذبونه الان بنشاطهم السياسي .

- ٣٤ -

غبريال بيو يعيد الرزانة الى الفوضى

وهنا يجب ان نلاحظ ظاهرة الشيء التي ترتكز عليه حجة هذا الكتاب ، موجهة الى جميع الذين قاموا على العهد السابق يوم انقلابه الاخير في ايلول ١٩٥٢ ، يتهمون رجاله بكل الرزايا والسرقات والنهب والسلب والمتاجرات ـ هنا يجب ان نلاحظ ونقول ما قاله المعلم : « من كان بدون خطيئة فليرم هذه الامراة بحجر ! »

وقد كانت تعددت اسباب الثراء من وراء النفوذ الذي كان يصل اليه السياسيون من رجال الحكومة ونوابها والزعماء الموالين لها ـ كانت تعددت الاسباب ، وكانت عقليتنا باجمعنا في هذه البلاد ـ ولا تزال هكذا ـ نتصور ان الرجل الذي لا يستفيد من المناسبات هو رجل ساذج لايستحق التقدير ويضحك عليه الناس .

نقول هذا بكل وقاحة ونتحدى المتظاهرين بالفضائل الذين يعرفون الحقيقة جيدا ولا يصرحون بها .

فانما نحن في بلد ، بدلا ان نسلم القاتل البوليس نحميه،وبدلا من ان نرذل السارق ، نشترك معه ونعجب بمهارته !

لهذا يمكننا التأكيد ان ليس من صاحب نفوذ في هذه الدولة ، الا واستعمل نفوذه في المناسبات المؤاتية ليستفيد ويقوى مهما كانت الواسطة والسبل . انما صادف ان بعض السياسيين تدبروا عمليات مالية مفضوحة صارخة ، اغتنوا من بعدها ، والبعض الاخر تدبر عمليات كتومة ساكتة خجولة اغتنى منها !

ولكن كما حكمت محكمة الجنايات الفرنسية على جان فالجان بطل رواية «البؤساء» لفيكتور هيغو بالحبس المؤبد ، لانه كان جائعا وسرق رغيفا كذلك حكمنا هنا ـ خصوصا في الانقلاب الاخير ـ حكمنا بالاحرى

بالفساد والسرقة والاستثمارات فقط على الذين عملوها فى وسط الشارع دون تمييز ولا تمحيص ، وشاهدنا القشةفى عين هذا البعض جسرا، وتحاشينا رؤية ذلك الجسر فى عيون البعض الاخر .

فانما السياسيون المفسدون المتاجرون والسياسيون الذين لم يتاجروا متشابهون اصلا : الاولون تاجروا بوقاحة وعلنا والاخرون عرفوا كيف تاجروا بادب ولباقة .

ولا شك ان الاستثمارات والمتاجرات رافقت بطريقة مبالغا بها جدا تطورات الاستقلال ، مما سنتحدث عنه قريبا وبتفاصيله باجمعها مع ذكر جميع الاسماء والمئة حيلة وحيلة لفن الاثراء والسرقات الشرعية وغير الشرعية، وهو الفن الحديث الذي اتقنه السياسيون واصدقاؤهم بعض التجار فى علم النهب والسلب ، وخلق موارد الرزق وافتتاح كل يوم اميركا جديدة فى كل مرفق من مرافق هذه الدولة .

وليس مستغربا ان نعرف ان معظم الرجال الذين مشوا الى الامام فى هذه الدولة قبل الاستقلال وبعده، ليس فقط لم يتركوا بابا للاثراء الا وطرقوه ووسيلة للغنى الا واستعملوها واستفادوا منها ، بل ايضا فتحوا حقول استثمارات جديدة مدهشة امامهم فى دوائر الدولة بطريقة نابغة جدا تستوجب اعجابا واحناء رؤوسنا تقديرا !

وهناك شخصيات بلغت القمة بطريقة مدهشة وايضا بغفلات من الزمن ، وجعلت الناس يعتبرونها بارزة قوية مجردة نزيهة مخلصة ، ليس لها عيوب ولا متاجرات فى نفوذها وزعامتها ، ولكن اتيح لنا ولغيرنا من اهل الفهم مرارا ان نسبر غور هذه الشخصيات وندرسها ونطاردها .

وكنا ننتهي دوما بعد ذلك فنظفر بالنتيجة التالية القائلة ان السياسيين الذين لم يتاجروا مباشرة بنفوذهم السياسي ، والذين صبغوا انفسهم بلون نراه نزيها جذابا ـ تاجروا هم ايضا بنفوذهم الى الحد الاقصى ، ولكن بطرق غير مباشرة !

ولم تكن الصبغة النزيهة التي اصطبغوا بها سوى قشرة رقيقة خارجية ، عند ما نحاول فى سياق هذا الحديث ازالتها ، لايبقى تحتها شيء من الفضائل التي توهمها الناس فى هؤلاء الحرامية « الجنتلمان » !

فهي فئة وجيهة كبيرة فى السياسة ، لم تأخذ صفقات ولم تعرف من

الخزينة ، ولم تتاجر بالنقد النادر ، ولكنها هي ايضا اثرت واغتنت من وراء السراي والمقام الوجيه الذي كان لها

ولا نتكلم هنا عن حبيب ابو شهلا مطلقا فهو مثلا فى كل عبقريته فى القانون ، ومع كل ما لمكتبه للمحاماة من منزلة ، هل يمكننا ان نقول — كما يفعل الاذلاء — انه لولا رئاسة المجلس التي انتزعها بقوة عارضته من المرشحين الكبار اليها — وهي رئاسة جعلتها التقاليد قبل ذلك للشيعة — لما صار وكيل« التابلاين » ولما سلمته الشركة مقاليدها وسياستها المحلية ولما جعلته مستشارها المدني والاجتماعي فى هذه البلاد ، ولما عملت برأيه وحرمت الكثيرين من الوطنيين النواب والصحافيين والزعماء فى لبنان من القيام بدعاية لها مرفوقة بالدولارات ، ولما كان مكتب ابو شهلا بعد الاستقلال وبعد ان استوى فى كل القصور ، يحتكر ثلاثة ارباع قضايا الشركات ، فى الوقت الذي فيه محامون كثيرون لا يجدون حتى قضية خاسرة يتوكلون عنها ؟

فهل المعنى فى ذلك ايضا ان ابا شهلا استغل نفوذه السياسي ،ولكن بطريقة ليست فضاحة ولا غشاشة ، وجمع ثروة من وراء ذلك ؟

وهل يمكننا ان نقول انها ثروات مشتبه بها ، ثروات اولئك السياسيين الكبار من فرعون لسلام لشيحا للجنة جباية ضريبة الحرب، الذين لهم هذه الاراضي الواسعة بمئات الوف الامتار على طريق خلده وعلى طريق الاوزاعي وفى اعالي الحازمية وغيرها ؟

وهل كان لنفوذهم السياسي وكلمتهم الكبرى فى الحكومة فضل فى جعل اراضيهم اغلى اراضي بالجمهورية ، وبعد ان كان متر الارض على طريق خلده او طريق الاوزاعي يسوى ربع ونصف ليرة ، صار بعشرين وثلاثين ليرة ؟

وبعد ان كان متر الارض فى اعالي الحازمية بليرة تضاعف عشر مرات وخمس عشرة مرة ؟

كل هذا كيف جرى ؟

فلو انهم لم يكونوا من زعماء السراي واسيادها ، هل كانت السراي تفتح فى اراضيهم جميع هذه البولفارات الوسيعة الفسيحة ، التي لا عداد لها والتي درزت صحاريهم الرملية درزا ؟

وهل كانت السراي تفتح بولفار خلده حيث فتحته ـ وحيث كان من اللازم ـ كما هي الحال فى باقي بلدان العالم الواقعة على البحر ان يكون البولفار كورنيشا يحازي الشاطىء راسا حتى يصل لمطار خلده، مما كان يجعله انفع واجمل ، حيث يمر بأراض لا قيمة لها ولا ثمن .

هكذا يعملون فى نيويورك ، وهكذا فى الاسكندرية وهكذا فى بريتون واستمبول !

ولكن كيف تصبح اراضي الزعماء على طريق خلده عشرة وعشرين مرة اغلى مما كانت ، اذا لم يجعلوا الدولة تفتح لهم بولفار المطار العظيم يتوسط بجلال وجمال منتصف اراضيهم ؟

طبعا ، ما استبقنا هذا البحث الذي سيأتي شرحه فى سياق هذه المذكرات الا لاننا تحدثنا عن الفساد فى ايام المفوضين السامين ، ولان المناسبة جعلتنا نتكلم عن الاثراء السياسي ، واردنا بوقائع معروفة من الجميع ، القول ان الاثراء السياسي لم يقتصر على الذين يتهمهم الناس علنا ويقولون انهم هم الذين اخذوا الصفقات والقطع النادر والتعهدات المشتبه بها ، وتاجروا علنا بالنفوذ ، بل ان الاثراء السياسي ايضا كان كذلك الامر وبحيل وتدبيرات وسيعة جدا بالطرق غير المباشرة التي ذكرنا .

فهناك اصحاب ثروات كبرى جمعها السياسيون من وراء نفوذهم السياسي على النحو الذي ذكرنا دون ان يلبسوا لباس الفساد والمتاجرات والاستثمارات التي لبسها المليونيون الذين تاجروا علنا بذلك النفوذ ومنهم عدا النواب والزعماء العدد الاوفر من التجار المليارديين المعروفين .

واذا توجب فى المستقبل على اصحاب الثراء السياسي ان يؤدوا حسابا للناس ، فهل يمكننا أن نحاسب الذين اغتنوا من وراء نفوذهم بالدولة بالطريقة غير المباشرة التي ذكرنا ، فى حين ان بعضهم اغتنى اكثر بكثير من جميع الذين عقدوا الصفقات المفضوحة واخذوا ملايين النقد النادر ، ومدوا ايديهم للخزينة وسيطروا على اموال اليانصيب الوطني وبلدية بيروت ، يوم استلمت الدولة صلاحيات الاقتصاد والتموين والاشغال وغيرها .

فانما قد يمكننا ان نقول ايضا ان السياسيين اللبنانيين فى ايام الانتداب كانوا يعملون ما عملوه فى ايام الاستقلال ، لو كانت يدهم طائلة

ولو كانت المصـــالح الحكومية التي يمكن الاثراء من ورائها بين ايـــدي اللبنانيـــين .

ومع ذلك فالفرنسيون في المفوضية ، حيث كانت المصالح المشتركة مربوطة ، عملوا اللازم ، وسبقونا كثيرا في هذا المضمار ، ولم ننس بعـــد اولئك الموظفين الفرنسيين الكبار الذين حملوا لفرنسا ثروات عظيمة جدا صبها بعضهم ذهبا في صينيات وصحون واواني سفره ومقاعد وغيرها .

كل هذا سياتي بحثه عندما نصل لعهد الاستقلال ،ولكننا الان لا نزال نتكلم عن ذكرياتنا عن زمن الانتداب .

- ٣٥ -

كلنا بالهوى سوى : « الحرامية الجنتلمان »

نعود بالقارىء الان لرئاسة اده بعد ان تمددت ، وتألفت الوزارة الائتلافية الاخيرة (فى تشرين الاول ١٩٣٨) ، برئاسة الاستاذ عبدالله اليافى الدكتور فى الحقوق ، والذي طلع على السياسة يومئذ ببهاء وعزة لم يعرفهما بعد ذلك فى رئاسته للوزارات الاخرى التى جاءت بعد رئاسته الاولى . وقد كان فى وزارته الاولى لم يسترسل بعد لحزبيته ولا لسلطان الشارع والقبضيات ، اذ كانت تحيطبه يومئذ شعبية اسلامية راقيــة متعلمة ، تستبشر فيه الخير والعزة المسلمين فى دولة مفروضة عليهم من المنتدبين ، وهم يتمنون على الاقل ان يكون لهم فيها سلطان وقوة . ولكن هل يمكننا القول ان كثيرين من رؤوساء الوزارات المسلمين جعلوا ابناء دينهم يعترفون لهم انهم جعلوا الاسلام يحكم بالبلد ، او بالاحرى يكون له فى الحكم الشان الذي لغيره من الطوائف الكبيرة الاخرى ؟

اعتاد الناس ان يقولوا ان المسلمين ماشعروا انهم مشتركون فى الحكم بهذا البلد الا مع رياض الصلح .

ولكن يجب ان يعترفوا ان خيرالدين الاحدب ايضا حكم بالبلد . كما وان سامي الصلح حكم وسيحكم ايضا ، دون ان يقول المسلمــون عنه كما قالوا عن غيره من رؤوساء الوزارات، انه سكرتير لرئيس الجمهورية المارونية ، وايضا عبدالله اليافى فى وزارته الاولى حكم ، انما على طريقته إذ كان حكمه لينا ولطيفا ليس فيه جلبة وضجات .

وكان المسلمون عندما استلم اليافى الحكم لم ينسوا العز الــذي اقتطعه لنفســه خير الدين الاحدب عندما وصل الى ان يتفرد فى الحكــم بالبلاد ، واضعا ــ بامر لمفوض السامي طبعا ــ رئاسة الجمهورية فى بيتها.

وكان المسلمون ، بعد ان انتابت خير الدين تلك الايام الهائجــة التي اضاع فيها ــ من وراء عاطفة غرامية جنونية ــ المكانة التي كان قد

عملها لنفسه عند المنتدبين ، والمكانة التي كان يعملها لطائفته في السراي والبلد ...

... كان المسلمون يأملون باليافي ، السياسي الفتى الشاب يوم ذاك ، المثقف المتنور المعتز بنفسه ، ان يعيد للطائفة في رئاسة الوزارة ماكان لها عندما كان خيرالدين الاحدب في تلك الرئاسة .

ولا شك ان الاستاذ اليافي عمل وحقق الكثير من هذا الشيءولكن بطريقة كتومة ، لم يقتنع بها كثيرا اهل الشارع وزعماء الاحياء .

فانما أظهر حالا انه مرن لدرجة الوداعة ، ونزيه مجرد ومسالم هادىء لدرجة الاستضعاف .

وكان الفرنسيون الذين اكتشفوه قبل الجميع كرجل سياسي ، يأملون منه كثيرا ويؤكدون ان سياسته ستكون متناسقة متجانسة مع سياستهم ، ومع رغبات المسلمين ايضا ، فكانوا مطمئنين اليه ، ويقولون انهم سيجدون فيه الزعيم المسلم الذي سيرفع على البسطة الراية اللبنانية .

ذلك انه رغم مرور خمس عشر سنة على الحكم الوطني تحت الانتداب ، لم تكن البسطة - حي الوجاهات وزعامات الشباب الاسلامية في العاصمة اللبنانية - قد رفعت الراية اللبنانية ، ذات الارزة وسط علم فرنسا، مرة واحدة حتى ذلك الوقت ، رغم جميع المساعي التي قامت ورغم سلطان الشيخ محمد الجسر في البداية ، ورغم دكتاتورية خير الدين الاحدب في السراي بعد ذلك ، فهل يوفق اليافي الى هذا العمل ؟

لقد كان المفوض السامي واثقا من ذلك ، انما انتظر الناس كثيرا وهم ينظرون من بعيد الى مرتفعات البسطة ، كيما يشاهدوا الراية اللبنانية تخفق فوق معالمها !

ولم يكن في أعمال اليافي ووزارته الائتلافية الجديدة شيء واقعي صريح ، يدل على انه يعمل سياسة الانتداب ، ولكن على قدر ما اظهره الفرنسيون من مناصرة مباشرة له ، وعلى قدر ماامتدحوا من تجانس سياسته مع سياستهم ، كل هذا جعل الاوساط الوطنية الاسلامية تعتبر

ان اليافي لا يمكنه ان يكسب الراي العام ، طالما الفرنسيون يصورونه كما كانوا يفعلون: صديقا وعاملا لهم.

كما وانه في حكمه المسالم الساكن ، وفي محاولته الحياد عن الحزبية والطائفية ، لم يحقق ما كان ابناء طائفته يريدونه من ان يرفع كلمة المسلمين في السراي، ويجعلهم يتحكمون فيها كما فعلوا في عهد الاحدب ، ولا يكون رئيس وزارتهم عاملا للفرنسيين ، كما كان دي مارتيل يقول عن رؤساء الوزارات والجمهورية بأيامه!

ومشت وزارة اليافي بهدوء وسكينة ، مما يتفق مع طبيعته ورزانته ، ولكن مما لا يتفق مع الدستوريين ، خصوم الرئيس اده ، الذين كان دابهم الاول خلق المشاغب والمشاكل في السراي . وكذلك مما كان لا يوافق اللبنانيين باجمعهم الذين عندما لا تكون هناك سياسة مشاكل وروايات في الدولة ، يضجرون ويتذمرون .

فانما اليافي في وزاراته باجمعها، كان دوما للوقت الذي تكون فيه الدولة مرتاحة ليس عندها مشاكل كبيرة،ولا مشاغبات مهتاجة،ولا صفقات عظيمة من وراء التلاعب بالملايين .

وانما اليافي متخصص لرئاسة الحكومات عندما تريد السراي ان يكون البحر هادئا والجو صافيا ، والسياسة في هدنة .

ولكن عندما تستيقظ المشاغب وتهب العاصفة كان هو يأخذ المبادرة حالا ويعتزل الحكم . فطبيعة هذا الرجل ليست طبيعة كفاح ولا مغامرات بل هي طبيعة رجل يعرف اين يجب ان يضع قدمه ، فلا يعرضها لان تزل به . وهذا ما جعل بعضهم يعتبره حكيما وسياسيا متروياً اكثر من اللازم.

التوراة باليمين وغصن الزيتون باليسار !

كان المفوض السامي المسيو غبرييل بيو قد خلف الكونت دي مارتل في نهاية ١٩٣٨ .

وكما يكون البحر بعد الليلة الصاخبة الهائجة الجامحة هادئا ساكنا هكذا صار البلد بعد ان وصل المسيو غبرييل بيو الى بيروت .

جاء يزيل ذلك الحكم الفضاح الصاخب المستهتر ، الذي كان رافق عهد دي مارتل باجمعه .

وكما اخرج دي مارتل قصر الصنوبر ، عندما خلف المسيو بونسو عن هدوئه وكرامته ، وشق رداء جلاله وسكوته وعمله دارة متهتكة مستهترة مبعثرة — هكذا ارجع المسيو غبرييل بيو حالا بعد وصوله لقصر الصنوبر ، الجلال والهيبة المفروضين فيه ، واحاطه بحجاب من السكون مضفيا عليه حلة من الرصانة والرزانة .

وصل المسيو غبريل بيو يحمل باليمنى الكتاب المقدس ، ويحمل باليسرى غصن زيتون .

لا يقدم على شيء ، حتى ولا على الطعام ، قبل ان يقرأ زبورا من زبور داود ، ولا ينام قبل ان يطلب لنفسه والعالم ليلة سلام وراحة !

فهو « بروتستنتي » متقشف زاهد ، يرى الاشياء من وراء التوراة واحترام الدين والنفس . وقد جاء الى بلاد تعيش في فوضى ، لا تحترم شيئا ، وتستبيح كل شيء .

جاء هذا الرجل يعيش بخوف الله وخوف ضميره ، بين قوم لا يخافون شيئا ، وبين زمرة من السياسيين الافاكين المتلاعبين الذين بامكانهم ان يجعلوه يفقد عقله ، قبل ان يعطي حكمه باي شيء كان .

وهذا ما جعل عهد بيو عهدا مترددا ، عهد درس واستقصاء ، ليس فيه اقدام ولا تجديد ، مما كان يوافق فقط سياسة اليافي الساكنة الهادئة ايضا ، ولا يوافق باقي السياسيين الذين يريدونها دوما حامية صاخبة .

وعلى هذه القاعدة راينا المسيو بيو بعد وصوله ولمسه الحالة القلقة المضطربة في كل مكان ، وبعد اجتماعه بالاستاذ اميل اده الاجتماعات الكافية ، وتثبته من انه لا يمكنه — وهو المفوض السامي الهادىء البارد الساكت — التعامل والتعاون بصراحة مع هذا الجبل من النار ، هذا الرئيس الذي لا يهدأ ، والغني جدا في التصورات والتخيلات والمبتدعات ، والذي من طبيعته الحركة الدائمة والكلمة المتتابعة التي لا تتعب .

وهكذا اخذ المسيو بيو يبتعد ايضا عن اده .

فانما اجتماعاتهما كانت اجتماعات الضدين :

الهدوء والتردد وبطء الفكر والكلمة الساكنة المقلة وسياسة الانتظار وعدم فتح الابواب عند بيو .

والنشاط الغريب ، والفكر المتسارع السباق ، والكلمة الفنية المزخرفة ، المترادفة المجددة الظريفة ، اكثر الاحيان ، وروح الاقدام والجرأة والمغامرة عند اميل اده .

فكيف يمكن التفاهم والتعاون ؟

ولهذا السبب راينا المسيو بيو ، بدلا من ان يقلع عن سياسة دي مارتل فيما يختص بالاستاذ اده ، كما كان منتظرا من رجل هو عكس دي مارتل تماما وبكل شيء ، فيعيد لرئيس الجمهورية اللبنانية الكثير من صلاحياته ويخرجه من عزلته في بيته ، وياتي به الى السراي ، زاد في ابعاده وشجعه ايضا على الزيادة في الاعتزال !

وقد اثبت بيو في المذكرات التي نشرها مؤخرا اشياء كثيرة عن الاستاذ اده في رئاسته للجمهورية اللبنانية ، مما ليس فيها قصيدة تمداح بذلك اللبناني الكبير ، ومما اشتممنا فيه روحا عدائية من المفوض السامي التقي البار نحو رئيس الجمهورية العابث الصاخب .

وفي مذكرات المسيو بيو اقوال وامور كثيرة تثبت بالاحرى تنشيطه

وتشجيعه للرجل الرابع وللدستوريين انصاره فى خصومتهم للاستاذ اميل اده .

وكان كل شيء فى جهاز الدولة لا يجد عند المسيو بيو تحبيذا ولا تشجيعا . وكان يعتبر ان الاستقرار الذي تتطلبه كل دولة فى ادارتها ومصالحها لا وجود له فى الجمهورية بلبنان ، فانما لم يكن هناك شيء ثابت معروف فى الوزارات او فى النيابات يجعل ذلك الشيء يدوم اذا هزته العاصفة مهما كانت خفيفة .

وكان بيو يؤكد بهذا الصدد ان عدم الاستقرار فى مرافق واوضاع الدولة باجمعها متأت من عدم استقرار السياسيين على مبادىء عملية معلومة ، وعلى قواعد وطنية صادقة .

ولم يكن يجد من اساس متين للاحزاب وللافراد يمكنه إذا استندوا عليه ان لا ينهار .

انما المسيو بيو على كل حال ، ومع ايمانه بعدم الاستقرار عند الجانبين السياسيين الاكبرين : جماعة اده ، وجماعة بشاره الخوري ، انما كان يجد عند بشاره الخوري وصحبه برنامجا حزبيا محددا معينا ، قد يكون ارسخ من النزعات الحزبية المختلفة ، التي عند الاديين .

وكان بطبيعة تربيته واخلاقه يحب ويفضل الرجال الجديين الرصينين على غيرهم .

ولم يكن بروتستنتيا متقشفا متصوفا عن عبث ، اذ ان البروتستنت المتقشفين المتصوفين يشبهون الاجاويد الدروز ، يانفون من كل خفة وكل قول مرح هزلي ، وكل عمل لا تكتنفه الاداب والحشمة والكلام الرصين والفكر الصافى المرتاح .

وهكذا كان من الطبيعي ان لا يضع بيو الرئيس اده ذا النفس الثائرة على طول، وخير الدين الاحدب الذي اضاعته اهواؤه العاطفية ولا الميكيافيل اللبناني الاستاذ حبيب ابو شهلا ، فى صدر الواجهة .

وكان ابو شهلا منذ اعتناقه السياسة قد اقتطعه لنفسه فى قصر الصنوبر عند بونسو ودي مارتل قبل المسيو بيو وعند المفوضين السامين الذين جاؤوا بعدهما .

وكان ان المسيو غبريل بيو تجانس طبعا مع عبدالله اليافى

ومع وزارته ، وتجانس بالاحرى مع الوزير الاستاذ حميد فرنجيه . وقد توافقت رصانة هذا الاخير وحياته السياسية الجدية المستقيمة مع رصانة المفوض السامي الجديد واسلوبه السياسي الواقعي .

وكان المعروف عن حميد فرنجية انه رجل عنيد مستقل بنفسه ، هو وحده بين الزعماء السياسيين في هذه البلاد لم يتنازل ، ولا مرة ، عن شخصيته السياسية يعيرها او يجعلها ملكا لغيره ، او للمفوضين السامين مثلا قبل الاستقلال ، او لرئاسة الجمهورية بعد الاستقلال . كان دوما – ولم يزل – يعتبر نفسه دولة لوحده تتعاون مع الدولة اللبنانية لمجد لبنان فقط وليس لخدمة رجال في السراي ، يساعده في ذلك شعبية كبرى في منطقته بالشمال ، تركها له والده ، وعرف كيف يحافظ عليها وتساعده خصوصا بلدته زغرتا البطاشة في شدة باسها ، وفي رجوليتها وفي مغامراتها ، التي جعلتها الحصن الماروني الاقوى ، تشرف على الساحل الاسلامي غير هيابة ولا خائفة ، لها عند الطرابلسيين الاشداء والاقوياء دوما حساب وتقدير ، تخطب ودهم ويخطبون ودها ، تصادقهم ويصادقونها ، على طريقة مصادقة القوي للاقوياء ، والاقوياء للقوي !

وهكذا كان حميد فرنجيه قويا بنفسه ، تساعده بذلك وقبل كل شيء زغرتا الحربجية الواقفة دوما تحت السلاح ، مما يجعل ايضا لكلمته مكانة عالية ومسموعة .

وجاء يومئذ في اخر عهد دي مارتل للوزارة الائتلافية ، يشترك فيها عن الدستوريين ، ولكا ليس فقط ليصبح حليفا او عدوا لرئيس الجمهورية الاستاذ اميل اده كما كان فعل الوزراء الدستوريون الذين جاؤوا قبله ، بل ليكون مستقلا عن الجانبين متحررا من هذا الجانب ومن ذلك الجانب ، لا يريد ان يعرف غير الخدمة المجردة كما يفهمها هو في عناده وتشبثه بارائه .

وهذا ما اعجب بالاكثر المسيو بيو فيه ومما قربه للمفوضية السامية الجديدة كثيرا ، ومما جعل المفوض السامي في كل مرة تكون هناك مشكلة عويصة يستشيره بها ويسمع كلمته فيها .

وكان من الطبيعي ايضا ان يجد الرجل الرابع عند المسيو بيو حظوة ومكانة خاصة ، طالما ان الاستاذ اميل اده لم يجدها عند جنابه .

فانما كان مفروضا ايضا ان يكون المفوض السامي ، مهما كان متعاليا

ومتحايدا ؛ كما كان المسيو غبرييل بيو ـ فانما كان مفروضا ان يكون كما هم جميع السياسيين بالبلد : او مع الاستاذ اميل اده او مع الاستاذ بشاره الخوري .

ولكن الى اي حد كان يمكن للدستوريين التعاون في حكومة الائتلاف الاخيرة مع الاديين ؟

طبعا الى الوقت الذي يكونون قد اخذوا فيه هدنة لانفسهم . وهذا كان يصادفهم بعض الاحيان ، مع كل ما كان عندهم من نشاط واحقاد على الاستاذ اده ورئاسته ، ومع عدم اغتفارهم له تمديد تلك الرئاسة ـ وهكذا بالرغم عن الائتلافات العديدة التي جرت .

وكانوا يظهرون بعض الاحيان سيئي النية ودجالين ومشاغبين، ولكنهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت ولا مرة سذجا وبسيطين !

لذلك اغتنموا مناسبة ما عرفوه من حذر وتباعد عند المفوض السامي الجديد عن الاستاذ اده ـ وهم دوما اثبتوا مقدرة في اغتنام المناسبات ـ واخذوا يتآمرون عن جديد على التمديد، ويعملون عند المفوض السامي لالغائه

وتجاه الحملة التي قامت بهذا المعنى ، جمع الاستاذ اده نواب حزب الاتحاديين الذي يراسه حبيب ابو شهلا بقوة وجبروت وتفشير ، وخرق هؤلاء الائتلاف، وجعلوا بقاء الوزيرين الدستوريين في الحكومة صعبا جدا ، مما اسقط وزارة الباقي الائتلافية (في ايلول ١٩٣٩) ، ومما جعله يؤلف وزارة حزبية ـ ادية ، يكون ابو شهلا من اركانها الاولين .

ولم يكن ، لا المفوض السامي ولا الاستاذ الباقي ، ينظران في روحهما المسالمة وحبهما للنظام والوئام نظرة اطمئنان لهذه الوزارة الحزبية التي لا بد للدستوريين ان يخاصموها بعناد اشد واكثر عنفا ويخلقوا لها المشاكل والصعوبات ، لا سيما ولم يعد هناك اي مانع عند الدستوريين ـ طالما انهم خرجوا من السراي ـ ان يعلنوا ما كانوا تدبروه من تآمر على الرئاسة الممددة التي جعلوها هدفا لجميع حملاتهم ومعارضاتهم ، يطلبون ويستهدفون الغائها وارسال صاحبها الى بيته .

وهكذا استقبلت الوزارة الحزبية الجديدة من جهة اعلان الدستوريين علنا وصراحة الحرب عليها ، ومن جهة ثانية ثورة الكتائب اللبنانية على الاوضاع وسياسة الحكومة وطغيان الشركات في البلاد .

- ٣٧ -

مالك صاحب الا بعد قتال

وكانت الكتائب اللبنانية في ذلك الوقت في ابهى ايامها ، وكانت قد خرجت من عصيانها على الدولة واضرابها على شركة الكهرباء ظافرة ووجدت عند الانعزاليين اللبنانيين وعند الفرنسيين تعاونا وتحبيذا ، اعتبارا انها مؤسسة لبنانية محضة ، تغالط وتخالف طلاب الوحدة ، طلاب الاتصال بسوريا الان ، وبعد ذلك بالحلف العربي في المستقبل .

وكانت الكتائب قد تشكلت سنة ١٩٣٧ على اثر تنظيم قوي للنجادة تحت شارة الاسلام والعروبة ، فكان كما هي العادة هنا ، انه اصبح من الواجب قيام منظمة اخرى تحت شارة لبنان والمارونية ، لا سيما والنجادة كانت لا تخفي انها تعتبر التسوية اللبنانية التي فرضها الفرنسيون تسوية موقتة وتريد ان تصبح جميع السواحل التي انضمت الى جبل لبنان عند اعلان لبنان الكبير ، والتي اكثريتها اسلامية جزءا من سوريا ، ومن الامبراطورية العربية بعد ذلك . فانما امل الامبراطورية العربية لم يكن قد ضعف في ذلك الوقت بالضعف الذي هو فيه اليوم .

وهكذا على قدر ما كانت النجادة عربية ، على قدر ما جعلت الكتائب نفسها انعزالية .

ومنذ ذلك الحين الى اليوم ، مشى لبنان الجديد كثيرا الى الامام ، وتطورت الحال مع الكتائب حتى وصلت الى ان ترمي اليوم الكثير من ثوبها الطائفي الذي كانت تلبسه في ذلك الحين ، وانقلبت اخيرا حزبا سياسيا قوميا بعد أن اصبح المسلمون لبنانيين بلبنان ، باعجوبة ذلك الاستقلال وتقديرا له ، وكذلك بعد التسوية اللبنانية الدولية المعنوية التي نشعر باجمعنا بها ، ونعرف ان وراء لبنان قوات دولية ايضا غير قوات اهله تحافظ على كيانه ، وتريده كما هو الان .

قلنا ، واستقبلت الوزارة اللبنانية الحزبية الجديدة اعلان الدستوريين

جديدا الحرب عليها بقوة وشدة ، وقامت الكتائب بحركات استفزازية ضد الشركات وجشعها ، واخصها شركة الترامواي ، وضد الحكومة والمفوضية اللتين تشجعان ايضا هذه الشركة ، مما خلق تكاتفا غير مقصود بين الكتائب والدستوريين .

واراد الاستاذ حبيب ابو شهلا وزير الداخلية فى الحكومة الحزبية الجديدة ، ورئيس حزب الاتحاديين ، الاكثرية بالمجلس ، ان يثبت جراته وقوته ، فطارد الكتائب اثناء تظاهرات عدائية كانت تقوم بها ، وتعاونت القوات اللبنانية مع مديرية الامن العام الفرنسي ، وفرقة سينغالية من الجيش ، واشتبك الفريقان اشتباكا قويا فى وسط محلة الجميزة ، اقلق راحة المسيو بيو المسالم الهادىء ، فخرج عن اعتكافه وكان ذلك فى يوم احد وهو اعتكاف كان يقضيه فى الصلاة ، مكرسا كل يومه لعائلته ، واخذ يصلح الامر بيده ، مما جعل حركة الكتائب تهدأ وتسكن ، بعد ان كادت تنقلب الى اصطدامات طائفية خطرة .

- ٣٨ -

بيو يريد تنصيب ملك او امير على لبنان

ومن جراء حركات الكتائب قامت بعد ذلك فوضى طائفية وقومية فى بيروت وطرابلس وبعض المناطق ، تعذر على الحكومة ، معالجتها ، مما جعل المفوض السامي يعطي المستشارين الفرنسيين صلاحيات كبيرة جدا بالغوا فى تطبيقها ، خصوصا فى منطقة الجنوب .

وكان المفوض السامي اصلا واساسا يعتبر - خصوصا بعد ان درس الاوضاع فى لبنان - ان النظام القائم ليس النظام الذي يتطلبه هذا البلد والذي يوافقه .

وكان فى خلواته مرارا عديدة مع السياسيين الذين كان يتصل بهم ، يدلي اليهم برأيه بنظام ملكي يقوم بلبنان ، يرتاح اليه الاهلون ، ويخلق لهذه الدولة استقرارا ترتكز عليه نهائيا .

كان المسيو بيو - كما ذكره فى مذكراته - يقول ان التجارب خلال هذا النظام الجمهوري الذي فرضته فرنسا على اللبنانيين يجب ان تكون علمت هؤلاء ان النظام النيابي يجعل بلادهم دوما فى فوضى سياسية ، مما يزعزع اركانه واوضاعه ، وقد عاش جبل لبنان فى عهد المتصرفين سبعين سنة فى نظام قريب من النظام الملكي ، وكانت جميع الدول تحسده عليه ، فلماذا لا يعود لذلك النظام ؟

لماذا لا يرجع لمثل تلك الاوضاع ، فيقوم فيه مجلس ادارة له صلاحيات استشارية تشريعية كما كان الحال فى لبنان القديم ويكون المجلس طويل الامد ، قليل العدد ، ويكون على راس الدولة ما نسميه اميرا او ملكا ، بدلا ممن كنا نسميه متصرفا ؟

ويقترح المسيو بيو ان يعلن لبنان نفسه امارة أو مملكة على هذا الاساس ، ويأتي بامير ، يجب ان يكون على الارجح من الامراء الاسوجيين ينادي به اميرا او ملكا ، يرث ابناؤه العرش من بعده !

وكان يقول ان الامير او الملك يجب ان يكون مسيحيا ليبقى لبنـــان لابسا الحلة الطائفية التي جعلته يستقل وينفصل عن باقي المنـــــاطق المجاورة الاخرى .

كما وانه يجب ان يكون الامير بروتستنتيا ، ليس لان المسيو بيـــو مقترح هذا النظام بروتستنتي ، بل لان الملك او الامير البروتستنتي هنا يستطيع ان يوفق بين الطوائف الكبرى بالبلاد ، فلا يكون من واحدة منهامما لا يمكن ان يجعله الحاكم المنصف العادل ، ومما يجعل طائفته تتطلب منه اكثر مما لها ، وهو لا يستطيع دوما مخالفتها !

- ٣٩ -

الجنوب الذى كنا لا نعرفه كثيرا

قلنا ، ضاعف المفوض السامي صلاحيات المستشارين واخصهم مستشار الجنوب ، وكان يومذاك الكونت بتشكوف : رجل حازم قوي مخيف من اصل روسي . — حفيد الكاتب المشهور ليون تولتسوي ، يجب ان يكون قد لجأ الى فرنسا عن صغر ، وتطوع فى جيشها ، وصار من ضباطها البارزين .

وكنا نعرف عن الجنوب فى جبل عامل آشياء قليلة جدا ، اهمها مكارم النائب يوسف بك الزين ، وولائمه واستقبالاته المفوض السامي من وقت لاخر ، تلك الولائم والاستقبالات السخية جدا والتي كانت تجمع الوف الناس .

وكنا نعرف ان يوسف بك الزين يزرع التبغ ويربح مئات الالوف منه ويتحدى آل الاسعد وآل الفضل وآل العبدالله وآل عسيران بنفوذه وبماله

وكنا نعرف علي نصرت بك الاسعد ، احد افراد تلك العائلة الزعيمة الكبرى ، وذلك عندما جاء متصرفا لجبل لبنان ، وكان رجلا طيبا مهزارا ، يحب الحياة والجاه ، ولا يحب الطائفية . وهو الذي انتهر صديقه حاكم « بيبلوس » فى ذلك الزمان ، الشيخ وديع جبيش الذي كان قد اشتهر بظرافته وضخامة جسمه وكبر بطنه ولطافة حديثه — قلنا انتهره علي نصرت بك عندما جاءت مناسبة اظهر فيها الشيخ وديع جبيش قصدا ، ولاثارة غضب المتصرف ، نزعة مارونية طائفية ، فقال له علي نصرت بك بكلامه الخليط من التركي والعربي ، كما يجري بعض الاحيان مع سامي بك الصلح — قال له : يا شيخ وديع افندي طائفية يوق جانم ، واذا كنت تتكلم بالطائفية فاني اعزلك !

ولما كان الشيخ وديع جبيش يحب وظيفته اكثر من اللازم ، وكان يجد فيها اولا القوة التي يريد ، والمتاجرات التي لا يمكنه ان يستغني عنها

ليعيش كشيخ من آل جبيش ، وليس كعتال على الميناء . ولما كان يحب الوظيفة جدا ، قال لعلي نصرت بك متمشيا على رأيه :

ـ افت افندم ، طائفية يوق ، متصرف حضرتلري !

وكنا نعرف من الجنوب النائب المحترم السيد نجيب عسيران الذي كان مشهورا عندنا بثروته الذهبية وبدماثة اخلاقه وبصداقته الدائمة للفرنسيين ، وهي صداقة كان يشجبها ابن اخيه كثيرا ، الفتى الالمعي الناشيء ، العنيد في وطنيته العربية عادل بك عسيران .

وغير ذلك لا شيء ... غير نواب من الجنوب كانوا يأتون ويذهبون ولا نسمع عن عبقريتهم كثيرا !

ولم يكن احمد بك الاسعد قد ظهر في العالم السياسي بالطريقة المنظورة التي ظهر فيها .

لقد كنا نراه من حين لاخر في سراي البرج يرافق والده عبد اللطيف بك الاسعد ، ساكتا محتشما ، ولكن خافض الراس ، ورافع الشاربين ، يترك لوالده كل الكلام ، ويقف الى جانب موافقا محبذا .

وكان الجنوب الشيعي حتى ذلك الحين ، يعيش في كنف السني البيروتي والصيداوي ، بمثابة النسيب الفقير الواجب حمايته ، ولم تكن الاسر الجنوبية الشيعية الكبيرة قد استوطنت بيروت بعد ، حيث كانت ارستقراطي الاسلام تسيطر وتتزعم ، ولم تكن في ذلك الوقت هجرة اهالي الجنوب الفقراء لبيروت ، تشابه هجرة اهالي الجبال الفقراء لاميركا .

ولم يكن هؤلاء المهاجرون من الجنوب لبيروت جشعين طماعين فانهم اكتفوا دوما بان اتخذوا لهم بالمدينة مهنا متواضعة تتفق مع الجهل الشديد والفقر المدقع ، اللذين كانا يسيطران عليهم . وعلى هذا كانوا يكتفون بالشيء اليسير ، ويقبلون ارستقراطية السنيين عليهم قبولهم لما كتب الله لهم .

ولم يكن زعماؤهم حتى ذلك الوقت قد اقتطعوا لانفسهم مكانة قوية في هذه الدولة ، جعلتهم ـ كما جرى الامر بعد ذلك ـ يدخلون في حياة البلاد العامة بشركة واقعية فعالة .

ولم يكن جبل عامل بنظر السلطات يمثل الشيعة في السراي والمجلس

والمفوضية، بل كانت تمثلهم بالاحرى بعلبك بابراهيم حيدر ، والهرمل بصبري حماده ، الذين كانا يقولان ويتكلمان عن الشيعة فى جميع الاقطار اللبنانية ، اذ لم يكن لجبل عامل فى بيروت زعماء معروفون اقوياء ، تشركهم المفوضية والحكومة فى مسؤوليات الحكم والسياسة !

وكان منصب الشيعة فى الوزارة ينتقل اكثر الاحيان ، حتى ذلك الوقت ، بين ابراهيم حيدر وبين صبري حماده ، اذا لم يكن السيد احمد الحسيني سبقهما اليه . وكان اكثر الاحيان يشغل ذلك المنصب نظرا لنسبه الشريف ونظرا لتأييد بكركي له فى كل وقت ، معتبرة اياه ابنها المحبوب مما جعله قويا يستقيل من الوزارة عندما يريد ، عاملا لنفسه دعاية كبيرة وجدها الناس جميلة جدا فى استقالته الاولى ، اذ انه كان اول سياسي لبناني يترك الوزارة من تلقاء نفسه ولا يستقتل لاجلها .

وكان ابراهيم حيدر عميد عائلته الكبرى القوية ببعلبك صاحب نفوذ وقوة بالدولة يتمتع دوما بصداقة المفوضين السامين ورعايتهم . وكان صبري حماده حفيد محمد سعيد باشا حماده ، زعيم العشائر فى الهرمل قد انشق على اخوانه انجال الباشا ، وزاحمهم على تمثيل العائلة الحمادية فى الدولة ، ونجح فى ذلك .

ولم يكن اتى الوقت بعد الذي وصل فيه صبري حماده لان يقتسم مع احمد بك حصة الاسد التي صارت الشيعة بعد ذلك عندما ظهر فجاة على المسرح الرجل الرابع الذي لم يكن منتظرا .

ظهر احمد الاسعد يواكبه حشد عظيم من اهل جبل عامل ، الذين كانوا قد صادقوه وتطوعوا لخدمته بعد ان اكتسب صداقتهم وتأييدهم فى اختلاطه بهم ، وتقربه منهم وتنظيم صفوفهم ، والقيام بالخدمات المستطاعة لهم . وما هي شهور حتى بدا جبل عامل يحتل بيروت وتضاعفت هجرته كثيرا للمدينة منذ ذلك الوقت وتتابعت حتى اصبحنا الان نجد فى كل ثلاثة من سكان المدينة شيعيا واحدا والثاني جبليا والثالث بيروتيا قديما .

ووجد الفرنسيون عند احتلالهم البلاد جبل عامل متمردا عليهم وقد بايع فيصل فى الشام بالملك ، ونظم شبابه ثورة دامية وعصابات يؤيدها العلماء واشتهر فى قيادتها ادهم وصادق ، وشن عليهما الفرنسيون حربا ضروس ، وقاسوا الامرين حتى سيطروا اخيرا عليها ورفعوا رايتهم على جبل عامل .

كان الشيعيون فى الجنوب يطيعون دوما زعماءهم . وكان آل الاسعد يمثلهم المرحوم كامل بك الاسعد فى الطيبة فمد الفرنسيون يدهم اليه ، ومدها هو اليهم،واوعز الى ابناء الجنوب بالسكوت فسكتوا وسكنوا ، وارضى الفرنسيين بتلك المآدب الفخمة التي كان يقيمها فى الطيبة وعدلون لممثلي فرنسا ، ويجمع فيها عشرات الالوف من ابناء الجنوب يحملون البيارق ويدقون الطبل ، ويهتفون لفرنسا حسب اوامر البيك !

ولما مات كامل بك آلت الزعامة الى اخيه عبد اللطيف بك الاسعد ، فتبناه الفرنسيون حالا وساعدوه ، ولكنه كان غير مستعد لتحمل الاعباء الشعبية الثقيلة ، ومنها متاعب مالية كثيرة ، وعادات خاصة به، مما اضعف كثيرا سلطان آل الاسعد على الشيعة ، فضعف تأييد الفرنسيين لهم ، وراحوا يبحثون عن سند جديد ووجدوه فى يوسف بك الزين .

وكان الفرنسيون قد اعتمدوا فى صيدا المرحوم نجيب بك عسيران لانه رجل ادمي ، لا يخالف لهم رايهم . واعتمدوا فى النبطية آل الفضل للسبب نفسه . ولكن لا عسيران ولا الفضل كانا يملكان النفوذ الشعبي على جبل عامل ، الذي احتاج اليه الفرنسيون ، لكي يسيطروا عليه بثمن رخيص وباهون سبب .

وكان آل الزين منذ القديم يتقدمون لمزاحمة آل الاسعد ، ولمع منهم يوسف بك الزين ، فسارع الفرنسيون امام ضعف آل الاسعد الى تقويته واطلقوا يده فى الجنوب عدة سنوات . والمدهش انه لما قوي يوسف بك الزين ، اصبح عبداللطيف بك الاسعد وطنيا استقلاليا ، وراح يطالب بالوحدة السورية .

ولما اشتد ساعد يوسف بك الزين اكثر من اللازم ، تخلى عنه الفرنسيون وعادوا يشدون ازر سواه فى الجنوب .

وفى جميع الحالات كان نفوذ زعماء الجنوب محصورا فى الجنوب ، وكان الشرط الذي وضعه الفرنسيون عليهم مقابل مناصرتهم لهم ، ان يسلموا زمام امورهم فى بيروت للمفوضية ، فينفذون اوامرها على العمياء . وهذا ما كان نواب الجنوب يفعلونه دون صعوبة شديدة !

تلك كانت حالة الجنوب فى عهد الانتداب . وفى وسط هذه الاوضاع

كان شخصان يبرزان : عادل بك عسيران ، واحمد بك الاسعد . كان الاول قد بدأ منذ سنة ١٩٣٥ ينظم حوله كتلة من الشباب تقول بكل ما يزعج فرنسا ويؤذيها ، بينما كان الثاني قد بدأ يرث امجاد عمه كامل بك (الذي تزوج كريمته) ويحاول ان ينهض بالعبء الثقيل الذي خلفه له والده عبد اللطيف ، ولكن بدون نجاح صاعق ولا ذكاء مدهش ، وانما مع أخلاق رضية سلسلة ، الى ان مد الفرنسيون يدهم اليه ، ودفعوه الى الامام .

كانت السياسة تقول دوما : « الباب الخاص ، كثيرا ما يقلبه حادث مفاجيء الى باب عام » .

وعندما غضب المستشار الفرنساوي فى صيدا ، الكبتن بتشكوف ، سنة ١٩٣٦ ، على يوسف بك الزين ، النائب الذي كان اول من دشن الانتخابات فى لبنان باكياس من الذهب ـ عندما غضب المستشار على يوسف بك الزين ، وذلك لما اخذه من سيطرة فى منطقته ، ولما اعطاه الاستاذ اده صديقه يومئذ من سلطان ، ولما اخذ يظهره من تمرد بوجه ذاك المستشار نفسه ، اخذ هذا الاخير يفتش عن الرجل الذي يمكنه ان يضع يوسف بك الزين على الرف .

وعثر علي احمد بك الاسعد ، سليل بيت كبير ورجل جريء مقدام ، فانزله لميدان السايسة ، تحيط به هالة باهرة من اضواء عمه كامل بك الاسعد .

ودخل احمد الاسعد المعترك السياسي ، من ورائه المستشار القوي النافذ ، والدكتاتور فى الجنوب يفرض على الناس مرشحه الجديد .

كما وان هذا المرشح الجديد ـ عرف ايضا ـ ودون ان يكون ذلك منتظرا ـ ان يستفيد من المناسبة ومن مكانة عائلته فى البلاد وان يفرض نفسه بجراة وشجاعة كاملتين .

وهكذا شاهدناه ذات صباح يدخل بيروت ، كما كان دخلها الامير مجيد ارسلان قبله ، دخول الفاتح الطماع ، تحيط به جمهرة من اهل السيف والخنجر تأتمر بامره وتقول قوله وتعمل ما يريد .

ومشى احمد الاسعد بخطوات سريعة نحو المعالي ، تؤيده المفوضية ورئاسة الجمهورية ، وقد اعتنى بسياسته الوصولية حالا منذ هبط

للعاصمة ، بالانتساب اليهما ، وباظهار تأييده لهما والتعاون معهما تعاونا وعد ان لا يكون فيه شيء من التقلب والتردد .

وفي هذا الوقت ذاته ، كانت هجرة ابناء جبل عامل الى بيروت — بعد افريقيا — قد اخذت تشتد ، وتكاثر عددهم في العاصمة ، وهكذا اخذ جبل عامل الشيعي يأخذ في العاصمة المكانة التي كانت بعلبك والهرمل الشيعيتين قد احتلتهما حتى ذلك الحين .

واخذ نجم زعماء الشيعيين الجنوبيين يتألق ببيروت . وكان كاظم الخليل قد اثبت وجوده ونفوذه ايضا في كثير من الظروف وفي نشاطه السياسي وزعامته في صور ونيابته الجديدة .

وكان رشيد بيضون قد بدأ يلعب الدور التقدمي الذي اراد به تحرير الشيعة من الجهل ومن الاستعباد والابعاد وهو دور رفع به الى مستوى كبار المصلحين في هذا الشرق .

وكان من وراء هذا الطغيان الشيعي على المدينة وفي السراي ، ان استقل الشيعة عن السنة سياسيا واخذوا منذ ذلك الحين يؤلفون قوة كبرى تمكنوا من ورائها حتى الان ان يعملوا كيانا لانفسهم .

ولا شك ان القوة الشيعية هي التي كان لها الفضل الاعم في تركيز الكيان اللبناني بعد جلاء الفرنسيين ، وهو كيان كان الفرنسيون — مخافة عليه — يفرضونه فرضا على المسلمين من الطائفتين ، الذين يؤلفون تقريبا نصف اهالي هذه البلاد ، والذين كانوا اذا ما سكتوا عن قيام لبنان ، فهم لم يعترفوا ولا مرة انه نهاية المطاف والوطن الاخير لهم .

وهنا يجب ان نعترف للاستاذ اميل اده بانه كان البادىء في هذه السياسة الشيعية اللبنانية التي جمعت حوله في المجلس النيابي الزعماء الشيعيين من الجنوب وبعلبك باجمعهم ، ما عدا صبري بك حماده الدستوري . وساعده الفرنسيون في استجلاب الشيعة ، اعتبار منهم ان السنيين لا يمكن اكتسابهم فعلا وواقعيا لقضية لبنانية محضة منفصلة عن الداخل .

وهكذا كان الاستاذ اميل اده ، ولكن الشيخ بشاره ، والحق ، كان الناهي ، وشكلت سياسته الشعبية الضمانة المحلية الرئيسية للكيان اللبناني الحالي .

- ٤٠ -

بيوت من زجاج تتراشق بالحجارة

وفى اثناء ذلك (سنة ١٩٣٩) سافر رئيس الجمهـورية اميل اده لباريس مستشفيا ـ على ما قيل يومئذ ـ ولكن بالحقيقة مستدركا الخطر الذي أخذ يتزايد على تمديد رئاسته ، من وراء حملات الدستوريين عليه وعليها ،بعد ان اعلنوا أن رئيسهم ، يرافقه الاستاذ سليم تقلا ، على موعد مع وزير الخارجية الفرنسية بباريس .

وكان السفر لباريس فى ايام الانتداب مثل السفر لاستنبول قبله .

فكما كان الباب العالي مرجعنا الاخير نشكو اليه امورنا وظلامتنا سابقا اصبحنا بعد الانتداب نشكو للوزارة الفرنسية الخارجية التي كان يرجع امر المفوضية السامية لها .

وقيل يومئذ ان المسيو بيو الساكن الهادىء ـ ولكن مثل الميـــاه الراكدة ـ هو الذي شجع زعيم الدستوريين للذهاب لباريس .

وعندما عرف الاستاذ اده بالشيء شد الرحال وسبق خصمه الـى عاصمة الفرنسيين .

وقيل يومئذ ان الشيخ بشاره الخوري استطاع أن يستحصل من البطريرك الماروني ، الذي كان قد عاد لمحبة فرنسا ، عودة الابن الشاطر بعد ذلك الخروج الذي خرجه على الفرنسيين فى مهرجـــان بكـــركي السوري اللبناني ـ استطاع الشيخ بشاره أن يستحصل من البطريرك على كتاب لوزارة الخارجية ، يؤيد فيه باسم بكركي ـ صديقـــة الفرنسيين الدائمة ـ شكوى الدستوريين ، ويطلب الغاء التمديد للرئاسة .

وانتقلت هكذا المشادة السياسية وفروعها بين الرجلين الكبيرين من بيروت لباريس ، حيث اخذت الاندية السياسية والجرائد الفرنسية جانب هذا او جانب ذاك من السياسيين اللبنانيين الكبيرين .

واخذ انصار الفريقين فى بيروت يتراهنان على الجوادين السباقين وايهما سيكون الفائز فى هذا السباق ، الذي يثيرانه فى عاصمة الانتداب ، تساهم فى هذا الرهان ، بطريقة صاخبة متحدية الجريدتان الفرنسيتان ببيروت «الاوريان» و«اللاجور» الاولى الناطقة بلسان الاستاذ اده ، والثانية الناطقة بلسان الشيخ بشارة اخورى .

واخذ الناس يتطلعون الى الافق البعيد ليروا ايا من الفارسين سياتي من وراء البحار حاملا الراية .

تماما مثلما جاء فى الاساطير عن الاختين الشريفتين الانكليزيتين حنة ومارتا دي لانكشاير وكانتا قد وقعتا فى غرام فارس جميل ذهب للحرب، فاخذتا تنتظرانه الايام والليالي على شرفة قصرهما ، على ان يكون زوجا للتي تشاهده قبل اختها آتيا من بعيد .

وقيل يومئذ ان معية الاستاذ اميل اده حملت مبلغا كبيرا من المال للقيام بالدعاية اللازمة هناك ، وكانت الرحلة من بيروت لباريس فى سكة حديد الشرق ، وكانت سيدة ظريفة فى نادي بيروت تقول فى ذلك المساء وهي تذكر المشاق التي قد يكون المسافرون الكبار يعانونها فى هذه السفرة بالسكة الحديد ـ كانت تقول :

ـ يجب ان نتخيل الوزيرين ورجال الحاشية فى عربة القطار يتقاسمون المال ولا يتقاتلون .

هذا اذا كانوا حكماء .

فانما الذى يركب الحمار ، لايحب ان يسال عن شكوى وتذمر ومسبات الذي يقود الحمار !

وبالمناسبة ناخذ شيئا بهذا المعنى عن تقرير رفعته مصلحة الاستعلامات بالمفوضية فى اواخر عهد اميل اده عن مشادة حصلت بين بعض كبار النواب الاديين يومئذ .

وفى هذا التقرير صورة بشعة جدا عن المتاجرات والاستثمارات والفساد ايضا فى ذلك المجلس .

هل نسمي النواب الذين كانت المشادة قائمة بينهما ؟

كان المسيو بيو يومئذ قد اوقف الدستور فى سوريا وطلب من الاتاسي استقالته .

وطبعا ، شاع فى لبنان بعد ذلك ـ وعن حق ـ ان ما جرى فى دمشق لا بد ان يجري فى لبنان .

وقد كان هناك فى الجو ما يؤكد قرب وقوع هذا الحدث الحزين جداً على النواب والحكام فى بيروت .

ولا عجب فى ذلك ، فليس حديث الفساد واقتسام اموال الدولة والاستثمارات المشبوهة والمتاجرات بالنفوذ السياسي والحكومي محصورا فقط بالعهد الاخير ، عهد بشاره الخوري الذي يسميه اليوم ـ وحتي اكثر الذين استفادوا منه ـ بالعهد البائد او عهد الرجعيين ـ بل هو حديث قديم جدا ، قد يرجع الى عهد الامير بشير والتنوخيين .

وما قاله الاديون بعد ذلك فى عهد بشاره الخوري ، كذلك كان الدستوريون يقولونه عن عهد اميل اده .

ولم يفلت واحد من التهمة بالفساد والاستغلال فالذين هم خارج السراى يحاربون دوما الذين بالسراى .

والذين داخل السراى يجربون دوما تسويد صحيفة الذين هم بخارجها .

وكان النواب ـ على اثر شائعة حل مجلسهم قريبا ـ قد اخذوا يترددون يوميا على المجلس والسراي متسائلين اي متى النهاية .

ومن حديث لحديث كانوا دوما يصلون للجدال والتناقش واخيرا للقتال فيتهم كل منهم الاخر بالعاطل والفاسد مما كان يدعو المفوضية لزيادة الازدراء بالمجلس والتفكير بوجوب سرعة حله ، اعتبارا انه فى الازمة الدولية القائمة ، وفى اتخاذ بيروت مركزا لقيادة جيوش الحلفاء بالشرق من الواجب التخلص من مجلس نيابي فوضوي ضائع ، قد يخلق للمفوضية وللعسكريين مشاكل كثيرة .

وذات يوم سمع مؤلف هذا الكتاب المساجلة البشعة التالية بين نواب كانوا فى اروقة المجلس ، يتجادلون بعضهم مع بعض ، ويقولون

الاشياء القبيحة التي سجلناها بالقلم والدفتر .

كان روكز ابو ناضر المتكلم اولا مهاجما خليل ابو جوده :

ـ انت وقفت على سلم السراي واخذت تقبض وتساوم على الوظائف والتعيين فى البلديات !

فرد خليل ابو جوده قائلا :

ـ وانت اتفقت مع شركة مياه المنبوخ ، واخذت حصتك من الثمانية ملايين فرنك التي امرت الحكومة وبعض النواب فى اعطائها اياها !

وقال محمد العبود مخاطبا الشيخ فريد الخازن :

ـ انت الذي لك حصة فى زراعة الحشيش فى عكار وبلاد بعلبك وقد اكتشف الفرنسيون امرك !

وقال للشيخ يوسف الخازن :

ـ وانت الذي قبلت المال من البنك السوري عند تجديد اتفاقيته ولما كان هذا البنك فرنساويا فلا شك ان مديره اعطى المفوضية قائمة باسماء جميع النواب الذين قبضوا ثمن سكوت مقابل تصديقهم الاتفاقية مما يجعلنا بنظر الفرنسيين نوابا السلب والنهب .

وقال يوسف الزين :

ـ انت الذي طلبت من شركة البترول مالا لتسعى لها فى التصديق على امتيازها ، فذهبت الشركة وقالت للفرنسيين متاسفة : « اود من كل قلبي ان اعطي الخزينة اللبنانية ما تطلبه ، ولكنني لا اعرف اذا كنت مضطرة ان اعطي نواب لبنان ما يطلبونه » . وبعد هذا اعطت الشركة للمفوضية اسماء النواب الذين كانوا يساومونها على المال ، مقابل الموافقة على مشروعها . فقالت المفوضية للشركة : « الافضل تاجيل البحث بضعة اشهر ، اذ حينذاك لا تجد الشركة امامها نوابا يزاحمون الخزينة ... »

ويتابع اهل جهنم عتابهم وشجارهم فيقول الشيخ فريد للخباز :

ـ وانت الذي جعلت المجلس مغارة للصوص ... انت علي بابا .

وعملت من جريدة الاوريان مكتب توظيف وسمسرات .

ويقول غيره وهو يتخاصم مع روكز بك :

ـ وانت الذيما تركت بلدية في منطقتك الا ووضعت عليها جزية . . وانت الذي بعت وظائف المخاتير والنياشين باسعار معينة !

وقال الشيخ فريد لنائب معروف من بيروت :

ـ وانت الذي اعطيت الشواطىء لمجرم بدون بدل وانشا فيها حماماته المعروفة . في حين ان البحر وشاطئه ملك للحكومة ، وليس لاحد غيرها ان يضع يده عليهما !

وقال نائب غيره : « وانت الذي تحمي البانسيونات والملاهي الفاسقة والعاب القمار ، مقابل رسم تأخذه منها ، كما كان يفعل آل كابوني في اميركا !

***

وهكذا لا نجد فرقا ولا كلمة جديدة بين ما يقوله الناس عن عهد بشاره الخوري ونوابه ، وبين ما كان نواب اده يقولونه عن انفسهم ، وما كان يقوله المعارضون عنهم وعن حكومتهم .

انما حينذاك ، لم يكن بالامكان ان يقوم انقلاب بالسيف والقوة والاضرابات . لان الفرنسيين كانوا هنا .

فهم لو لم يكونوا هنا ، وكان البلد مستقلا كما كان بعد ١٩٤٣ ، ولو لم يكن المعارضون يومئذ يخافون السنغاليين ، لكانوا عملوا تماما ما عمله بعدهم المعارضون امس ، عندما قاموا بالانقلاب على بشاره الخوري اذ في عهده كان السنغاليون قد ضبوا حرابهم وتركوا هذه البلاد فلم نعد نخافهم ونخشى سواد وجوههم !

والاسباب نفسها التي كانت تجعل انقلاب ١٩٥٢ ضرورة وطنية هي ذات الاسباب التي كانت ايضا في ذلك الزمن تدعو للنقمة والثورة على الدولة ، كما ان ابو قاحة السياسية لم تكن قد وصلت يومئذ الى ما وصلت اليه في هذا الوقت الذي نحن فيه ، وهي وقاحة جعلت ايضا الكثيرين من الذين كانوا العاملين الرئيسيين بالفساد والرشوة والمتاجرات يفخرون على غيرهم وبكل جراة بتجردهم ، ويعدون انفسهم في هذا

العهد الجديد المصاحين والمطهرين ، فى حين انهم قليلون جدا السياسيون اللبنانيون الذين يمكنهم أن يفخروا عن حق ، وليس عن كذب ورياء ، بتجردهم ونظافتهم !

نعم ، نريد ان نقول ونؤكد ان الفساد والفوضى والسلب ـ هذا كله كان من شأن العهد السابق ،ولكن ليس جميع الذين قالوا عنه هــكذا هم باجمعهم ايضا غير حرامية وسارقين، وكثيرون منهم لا يمكن أن تكـون ذاكرتهم خانتهم لدرجة ينسون من ورائها اليوم ما فعلوه بالامس ، فان لم يكن هناك غير الاموال الكثيرة التي يتمتعون بها الان مع ظواهر التجـرد والنزاهة التي يستمتعون بها، فهذا كاف لان يذكروا فى كل ساعة انهـم هم كانوا ايضا سلابين نهابين !

- ٤١ -

فى قصر الصنوبر بعد نصف الليل

كان لا بد للفرنسيين الذين اخذوا يستعدون لقيادة جيوش الشرق فى حالة نشوب الحرب القريبة جدا ، ان تكون يدهم طليقة فى كل شيء .

وكان المسيو بيو آخر من كان يجب ان يكون مفوضا ساميا فى ذلك الوقت الحرج ، وهذا لما كان عليه من روح مسالمة ، ومن ضعف فى الادارة وهو فى تقشفه البروتستنتي يقضي العمر فى التفتيش عن راحة ضميره والرجل الذي يعيش على هذا الطراز يتعب كثيرا وينتهي بالهزال ولا يكون من الرجال الذين يضربون بقبضتهم على الطاولة ويقولون : نحن نريد !

وليست مساعي رئيس الدستوريين ورفيقه سليم تقلا بباريس هي التي منعت المفوضية السامية ان تقرر بطريقة مفاجاة غير منتظرة ، تعطيل الدستور بلبنان ، وترسل نواب المجلس الى بيوتهم متذرعة بان الحالة العسكرية بالبلاد توجب الحكم المباشر عن طريق السراي اللبنانية .

وكثيرون من اصدقاء الاستاذ اده ، ارتاحوا واغتبطوا ضمنا يومئذ بذهاب المجلس بهذه الحجة ، وعلى هذه الصورة وعن طريق الضرورة العسكرية ، فلا يعتز بشاره الخوري عليهم ، ويقول انه هو الذي ظفر بهم ، وانه كان السبب من وراء رحلته لباريس ، فى ارسالهم الى بيوتهم .

فانما ــ كما قلنا اعلاه ــ كان طبيعيا بعد ذهاب الاتاسي والمجلس بالشام ، ان يكون هكذا بلبنان ، فاذا لم يذهب اميل اده فيذهب على الاقل نوابه ووزراؤه .

ولكن على كل حال ، يجب القول ان تعطيل الحياة النيابية وتشليح اده اكثر ما تبقى له من صلاحيات ، جعلا ولا شك بشاره الخوري وصحبه يتنفسون ويرتاحون ، مع ان تعطيل الدستور هكذا مخالفة لمبادئهم وارائهم بوجه رئيسي . ولكن قيل يومئذ انهم كانوا قد اتصلوا عن

طريق الاستاذ كميل شمعون ـ بالانكليز ـ الذين ضمنوا لهم المستقبل القريب الذي فيه يأخذ بنان جميع حرياته.

وكان على الانكليز يومئذ ان يلعبوا دورا رئيسيا فى مقدرات هذه البلاد ، اذ ان تحالفهم مع الفرنسيين واشتراكهم فعلا فى جيش الشرق يجعلان لهم كلمة عالية يضا فى امور بلدان المشرق التي يسيطر عليها حلفاؤهم الفرنسيون .

وهكذا هذه المرة ، بعد حل مجلس الائتلاف وقيام حكومة دارية ، ليس اميل اده رئيس دولتها الا بالاسم ـ اخذ الناس يقولون ان نجم بشاره الخوري بدا يطل ، وان راسماله لسياسي آخذ يتضاعف .

فانما ، اذا كان الاستاذ اده صديق للفرنسيين يتكل عليهم وياخذونه تحت رعايتهم ، فالشيخ بشاره وصحبه كان مفروضا منهم ان يكونوا اصدقاء الانكليز المفضلين ، دون ن يكونوا ايضا معدودين اعداء الفرنسيين

وحالا ، ما كادت الحرب تقوم ، حتى استلم الانكليز مبدئيا مصلحة الدعاية فى بلادنا ، واخذوا يقومون بالبروبغندا القوية للازمة للحلفاء عامة ولهم بوجه خاص ، متكلين فى تاييدهم على معظم السياسيين الوطنيين « الناسيوناليست » الذين اخذوا يتسارعون لخطب ود انكلترا ، مما جعل قنصلية لمستر هوارد تزدحم بهم ازدحاما غريبا .

ولا نعرف على اي دليل استند الناس يومذاك عندما اخذوا يؤكدون ان كميل شمعون فى صداقته مع الانكليز استطاع ان يأخذ عهدا منهم فى مساعدة هذه البلاد على الاستقلال ، مما لم يكن قد اطلع عليه غير العدد القليل من السياسيين .

وكان يومئذ كميل شمعون وبشاره لخوري لا يزالان متضامنين تماما ،شريكين على السراء والضراء ، فى السياسة والحزبية وفى التعاون السياسي والعقائدي .

وكان من الطبيعي فى بداية الحرب الجديدة ، بعد ذهاب الاتاسي والكتلة الوطنية من الاحكام فى الشام ، ان يعين الفرنسيون الشيخ تاج الدين رئيسا بدمشق ، وقد كان رجلهم الاقرب يسانده قائد لفرق الجركسية القومندان كوله المشهور .

وكان هذا الاخير قد اقام نفسه كفيلا امام المفوضية السامية لتاج الدين بعد ان اظهرت المفوضية قلة ثقتها بهذا الاخير .

وكان السياسيون السوريون واخصهم رجال الكتلة الوطنية ، فى ذلك الوقت ، وفى ابان الانتصارات الالمانية المتوالية ، قد اخذوا يديرون بوجوههم نحو برلين ، اكثر مما يديرونها نحو باريس ولندن .

وهذا ما كان يدعو للاشتباه بهم ، وما جعل الفرنسيين يبعدونهم من السراي والحكم ، ويجعلونهم يقبعون ببيوتهم ، يقطعون نفسا وينتظرون اياما افضل ، ينتظرون مفاجئات تلك الحرب واثر انتصارات هتلر فى سياسة الحلفاء فى الشرق .

ولم يكن فى سوريا من رجال السياسة غير الشيخ تاج وحده لا يؤمن بانتصار المانيا ، وكان من طبيعته النشيطة انه عندما يستلم الحكم ، يستأسد ، وعندما يستأسد يضرب بقسوة وقوة .

وانتهز الفرصة ، واخذ يلاحق بعض كبار الوطنيين ، واصطفى بينهم بالاكثر خصمه العنيد الاكبر رجل الدولة السوري المعروف ، جميل مردم بك واقسم على العمل لخراب بيته .

وكان ذلك سهلا وقريب الوقوع ، ولم يستدرك المسيو بيو الامر فقد كان الشيخ تاج الدين قد استصدر حجزا على مزرعة جميل مردم بك الوسيعة الجميلة ، القائمة كالعروس فى ظاهر دمشق ، وذلك مقابل دين الحكومة عليه ، وطرح الشيخ تاج المزرعة للبيع على ان تجري مزايدة علنية عليها بعد ايام قليلة جدا .

وتوسل جميل مردم بجميع وسائله الخاصة لانقاذ مزرعته من الضياع ولكنه لم يستطع ، اذ ان الشيخ تاج كان قد سد عليه جميع الابواب ، وكان ايضا قد جعله وجعل جماعة الكتلة الوطنية ، وفى مقدمتهم شكري القوتلي موضوع شبهة تجاه الحلفاء ، ناسبا اليهم الاتصال بالعدو وتأييد النازيين .

سد الشيخ تاج الابواب على جميل مردم ، ما عدا باب المفوض السامي .

ولكن كيف يأتي جميل مردم للمسيو بيو طالبا متوسطا المفوض السامي ، وهو ورفاقه الزعماء الوطنيون اصبحوا اولا تحت المراقبة

بطريقة نوعا ما كتومة ، ولكن غير خافية عليهم ، وكانوا ثانيا قد اعلنـــوا سياستهم السلبية وعدم تعاونهم مع الفرنسيين .

ولكن كان لجميل مردم بك ببيروت صديق آمين وفي ، هو محرر هذه الاسطر .

وكان فى المفوضية لهذا لصديق صديق افرنسي له نفوذ وسلطان ، اسمه شامبار مدير قلم المطبوعات والاذاعة ووكيل الفرفـــة اسياسية ، وصديق المفوض السامي الخاص .

وهكذا ، وعن طريق المسيو شامبار ، جاء صاحب هذه المذكـــرات وجميل مردم بك ذات ليلة مظلمة فى ساعة غير محترمة عند الناس الذين يناموں فى الاوقات العادية ــ الى قصر الصنوبر ، حيث جرى لجميـــل مردم بك مع المفوض السامي حديث طويل ، يجب ان يكون المسيو بيـو قد ارتاح اليه جداً ، وانس فى صاحبه رجل نبالة وشرف ، لان الحديـث الطويل الهام انتهى اخيرا برفع الحجز حالا عن مزرعة جميل مردم وبدفع المتوجب عليه للخزينة السورية عن طريق المفوضية السامية ، مع تعهـد قدمه جميل مردم للمفوض السامي بان يقف هو ورجال الكتلة على الحياد تجاه تاج الدين وحكومته ، وبالتعاون مع الحلفاء وتسهيل امورهم بالبلاد ومحاربة الطابور الخامس الالماني الذي كان يوميا يزداد عدداً وقوة بين السوريين ، وكن جميل مردم وصحبه متهمين بانهم من زعمائه !

- ٤٢ -

لبنان فى المعرض الاستعمارى الفرنسى

كانت سياسة بشارة الخوري منذ البداية تقوم على ان البلاد اللبنانية ، مهما كانت لها صفة نصرانية فهي بلاد اسلامية ايضا ، وعدد المسلمين فيها يوازي تقريبا عدد النصارى .

وهكذا ، يجب ان يكون للمسلمين حساب كبير . وعلى الزعيم السياسي المسيحي الفهيم ان يذكر هذه الحقيقة لنفسه بعض الاحيان ، ويذكر المسلمين بها كي يكونوا اصدقاءه وانصاره .

وكان ولا شك امضى سلاح عند بشاره الخوري يحارب فيه اده ، هو معرفته هذه الحقيقة واقراره لها بالمناسبات الملائمة .

وفى سنة ١٩٣٧ اعتزم السفر لاول مرة لباريس ، فى عهد دي مارتل كما اسلفنا . وكان البطريرك الماروني والاستاذ اميل اده رئيس الجمهورية قد سبقاه الى هناك ، كل منهما على حده دون سابق ميعاد .

وكان من الضروري ان يكون بشاره الخوري هناك ليرد الغوائل عن نفسه ، اعتبارا منه ان الاستاذ اميل اده لن يترك فرصة فى فرنسا الا وينتهزها للنيل منه .

وفى اليوم الذي قرر فيه الرحيل ، عندما نزل الى الميناء ليستقل الباخرة ، وقد رافقه عدد كبير من الانصار والزعماء ، لاحظ الملاحظون عددا كبيرا من ساسة وقبضايات ووجهاء مسلمين جاؤوا ايضا يودعون — مما لم يسبق ان جرى سابقا قبله بمثل المظاهرة العلنية ، اذ ان السياسيين المسلمين ، وفى مقدمتهم الوجيه الزعيم الكبير عمر بك بيهم ورياض الصلح وعمر الداعوق وسليم الطياره وابناء سليم سلام وغيرهم كانوا بالاحرى يبتعدون — وهم راضون — عن المشادة القائمة بين السياسيين اللبنانيين المارونيين اميل اده والشيخ بشاره الخوري ، وينظرون الى

تقاتلهما وتحاربهما بارتياح ، على قاعدة « فخار يكسر بعضه » . ولقد كان فى دوام هذه الحرب الحزبية المارونية مصلحة للمسلمين . ومع انهم لم يعملوا شيئا لزيادة الشقاق بين الرجلين الكبيرين . فلا نستطيع القول انهم لم يكونوا مبسوطين من الامر ، مغتبطين كثيرا عندما يرونهما ينشقان ويتخاصمان ، مما يقلل من قوتهما ويزيد من قوة الزعماء المسلمين ، وهي قوة كان المسلمون فى ذلك الوقت بحاجة كبيرة لها ، كيما يستطيعوا اقامة توازن بينهم وبين المسيحيين ، فى الوقت الذي كان فيه الانتداب يقف بطريقة غير مباشرة مع اصدقاء فرنسا التقليديين .

وفى هذا الجو ، رتأى بشاره الخوري ان يظهر تكاتفه مع هذه العناصر الاسلامية ويخطب ودها ، وكانت قد اخذت للمرة الاولى تتظاهر له وتؤيده ، ومن جراء ذلك احتشدت جماهير غفيرة اكثرها مسلمة ، على الميناء مودعة له ، فالقى عليها ذلك التصريح المشهور ، وهو التصريح الاول من نوعه يتلفظ به ماروني كبير مسؤول سياسيا وحزبيا ، ببلد يحتلها الفرنسيون اصدقاء الموارنة التاريخيون ، قال :

« جاء الوقت لان يتعاون لبنان مع البلدان العربية تعاونا وثيقا والى اقصى حد ، وان يعتبر هذه البلدان العربية شقيقات وشريكات له ، يتضامن معها فى مقاومة الاستعمار فى الجهاد للتحرر والاستقلال » .

وجاء جواب هذا الكلام من باريس حالا بلسان الرئيس اده ، محاولا دحضه مظهرا استغرابه وعجبه اذ لم يكن منتظرا ان يصدر مثل ذلك الكلام عن سياسي لبناني كبير ، ينتسب الى طائفة تعتبر نفسها صديقة فرنسا الامينة فى الشرق وهي مرتبطة معها بميثاق تقليدي قديم لذلك احدث التصريح ضجة كبرى فى الاندية السياسية الفرنسية ، كما وان القول بالتعاون مع العرب والاشتراك معهم فى الكفاح ضد المستعمرين ، كان تجاه المنتدبين يشكل — انتدابيا — خيانة معنوية ، تستحق الملاحقة وابعاد قائلها ، فضلا عما يحدثه قول كهذا فى الاديرة ضد الرهبان من ضجة واستنكار .

قلنا جاء الجواب حالا من باريس ، عندما وقف الرئيس اده فى المعرض الاستعماري الذي كانت المدنية الكبرى قد اقامته يومئذ ، وأكد فى حديثه عن اللبنانيين انهم من سلالة الشعوب القديمة المنقرضة التي اعطت للعالم خلال عشرين جيل المدنية والعلم . وجاء فى ذلك الخطاب

يقول بطريقة غير مباشرة وبمغامز حاذقة ان لا شيء يجمع بين اللبنانيين وبين العرب ، من الجهة المنصرية والقومية فاللبنانيون فينيقيون دوما .

وعنى الاستاذ اده بكلامه هذا السلالة الفينيقية التي ملكت شواطيء البحر المتوسط الشرقي وشمال افريقيا ، وكانت حصنا حصينا وقف دون اختراق الجهل وبداوية الصحراء حصون المدنية الضخمة التي كانت تلك الفينيقية قد اقامتها .

ولم تكن اول مرة يعتبر فيها الاستاذ اده اللبنانيين بعيدين عن العرب والعروبة ، انما كانت اول مرة يقول ذلك بخطاب رسمي وكان ذلك فى المعرض الاستعماري بباريس الذي عاب الكثيرون اشتراك لبنان به، وقيام جناح لبناني فيه، فانما هو معرض للمستعمرات الفرنسية مثل السنغال والمدغسكر والكونغو والهند الصينية، فلم يكن للبنان ان يشيد جناحا فيه ايضا ، اذ بذلك يعترف كذلك الامر انه مستعمرة فرنسية، لا بلادا تحت الوصاية الموقتة . وكان تشييد لافرنسيين لهذا الجناح اللبناني فى معرض المستعمرات ، دليلا على ان لبنان بنظرهم لا يفرق عن باقي مستعمراتهم .

وكان امام باب كل جناح من اجنحة هذه المستعمرات عبيد يرتدون بزات المستعمرة التي يمثلونها .

ووجدت ادارة ذلك المعرض الفهيمة ان تضع على باب الجناح اللبناني عبدين اكثر سوادا من باقي العبيد ، يمثلان الجنس اللبناني فى ذلك المعرض ، ويلبسان الملابس الجبلية .

وكان البطريرك عريضة قد سافر يومئذ لروما ، وقيل ان صديقنا القديم الاستاذ معتوق هو الذي دعاه بباريس على ضيافته. وكان هذا الاخير قد استوطن عاصمة الفرنسيين فى ذلك الوقت .

ونزل البطريرك فى لوكندة جورج الخامس بجناح خاص كبير ، كان معتوق ـ « راسبوتين » بكركي ـ قد اعده لغبطته ، واحاطه بحاشية كبيرة من رجال الصحافة العالمية ، تنشر عن غبطته اخبارا كثيرة مدهشة وعجيبة، كان معتوق هو الذي ينصها ويختلقها وفيها مبالغات كثيرة ، ولكنها باجمعها تكبير للمقام البطريركي .

حتى انه صور البطريرك بانه ملك لبنان غير المتوج ، وزعيم البلاد الروحي والزمني ، مما يجعل رئاسة الجمهورية مرتبطة فيه ، تتعاون معه وتعمل بمشيئته !

وكانت وزارة الخارجية الفرنسية قد تعمدت احاطة البطريرك باكبر مجالي التعظيم والتمجيد ، مما فاق ما احاطت به الرئيس اده .

وكان ذلك مجالا لخصوم هذا الاخير، للتاكيد بأن وزارة الخارجية الفرنسية ارادت بذلك الحط من مكانة اده وامره بوصفه رئيس الجمهورية اللبنانية كيما لا يطمع بها وكيما تظهر نفسها منفصلة عنه، مما ازعج ذلك الرئيس كثيرا، ومما جعله يخرج عن هدوئه ورضاه، ويذهب للوزارة الخارجية يحتج اخيرا على تسمية لبنان مستعمرة افرنسية لا بلادا مستقلة، واقامة جناح له فى معرض استعماري يجاور جناح الكونغو والغوبان ومدغسكر وبلدان الزنوج الفرنسية المختلفة .

ونشرت الصحف الفرنسية بمناسبة زيارة البطريرك قائلة انه اذا كان جبل المونتينفرو (الجبل الاسود) قد تحرر من حكامه التقليديين المطاربين، فان لبنان لم يفعل ذلك، ومـا يزال تحت سيطرة الاكليروس ، يحكمون فيه كما يريدون، فهو جمهورية مدنيا، مبدئيا ولكنه عمليا مملكة يجلس على عرشها البطريرك الماروني، ويضع رئاسة الجمهورية تحت وصايته !

هكذا على الاقل ما جاء تقريبا فى جرائد اليمين ، مثل الفيفارو والاكسيون فرانسيز وباري سوار .

وقد تكون هذه الكتابات عن البطريرك نزيل باريس هي التي دعت الاندية الفرنسية الشعبية الكبرى و لاوساط السياسية الدولية لان تدعو البطريرك وتحتفي به احتفاء عظيما ، طغى كثيرا ـ كما قلنا أعلاه ـ على الاحتفاء بالرئيس اده ، مما اتخذه خصومه مناسبة للتحامل عليه ، يؤاخذونه لانه لم يعرف كيف يقيم لنفسه المكانة العالية التي يجب ان يقيمها رئيس بلاد ينزل ضيفا على بلاد اجنبية ولو كانت منتدبة على بلاده.

***

تطورت الحالة الداخلية فى لبنان من جراء الحرب ، فعطل الفرنسيون المجلس كما ذكرنا، وارسلوا وزراء الرئيس اميل اده الى بيوتهم ، واستلم

المستشارون الفرنسيون الاحكام من وراء ستار المديرين اللبنانيين ، وانقلبت الجمهورية اللبنانية راسا على عقب ، وعين المفوض السامي عبد الله بيهم سكرتيرا عاما ورئيسا لمجلس المديرين ، يقوم مقام مجلس الوزارة ويحكم مباشرة ، راجعا بأموره ليس لرئيس الجمهورية ، بل للمندوب الفرنساوي .

الفرنساوي . وعبد الله بيهم وجيه كبير المسلمين في بيروت معروف بصداقته للفرنسيين واخصهم الجنرال ويغاند الذي كان دوما يعمل لدى المفوضية السامية لاستدعائه للحكم، حيث كان عبد الله بيهم يظهر حيادا طائفيا كاملا ويشتغل بهدوء وسكينة

- ٤٣ -

دولة الجنرالية

وكانت كل اعمال المسيو بيو تقول يوميا لاميل اده بوجوب الاستقالة.

وكان الفرنسيون قد حاولوا أولا تعيين حاكم فرنساوي للبنان من قواد الجيش ، ولكن هذه الفكرة التي كانوا قد اعلنوها هنا وهناك لجس النبض عند الاهلين ، لم تصادف غير الشجب ، فاضطروا لتعيين عبد الله بيهم سكرتيرا عاما ، على ان يرجع بكل اموره للمندوب الفرنساوي فى الحكومة اللبنانية ، وعلى ان يبقى أميل اده رئيسا الجمهورية بطريقة تشبه بالاحرى رئاسة الشرف ، لا الرئاسة الفعلية .

وكان المندوب الفرنساوي الجديد لدى الحكومة البنانية ، الجنرال ارلابوس صعب المراس عنيفا ، يعتبر ان السياسة يجب ان تكون منتظمة وصريحة مثل العسكرية ، مما جعل تفاهمه مع السكرتير العام ومجلس المديرين صعبا جدا .

ولكن اين لاحد يومئذ ـ والحكم حكم عسكري بالفعل ، والجيوش الفرنسية تتدفق يوميا على هذه البلاد ، وكل شيء اصبح بيد القواد ـ ولكن اين لاحد يومئذ أن يعترض او يبدي رايا سواء اكان من الادبيين او الدستوريين او سواهم ؟

ولكن لماذا نأتي على مثل هذا الحديث ؟

نفعل ذلك جوابا على الذين اخذوا على الاستاذ اميل اده انه بقي فى الرئاسة يوم قلب الفرنسيون الجمهورية اللبنانية الى حكم انتدابي مباشر .

ولكن اده اصر على البقاء ورفض الاستقالة ، بحجة انه يجب ان يبقى لهذه الدولة اللبنانية رمز محلي ببقاء الرئاسة اللبنانية ، وهي معنويا فوق الجميع .

وفعل الاستاذ اده ذلك بالرغم من ان قرارات المفوضية السامية باجمعها كانت تقول صريحا ، وبطرق متنوعة ، ان رئاسة الجمهورية اصبحت من كل الجوانب دخيلة على السراي ، لا محل لها فيها .

وحبس الرجل الكبير نفسه ببيته ، وكان يقول للذين يظهرون اعجابهم أو شجبهم لموقفه :

ـ اليس فى بقائي تحديا للمفوضية ، ودليلا على أنني اقوى منها ، فهي تنتظر استقالتي ولا تجسر على ان تقيلني ؟

وكان الجيش قد استلم كل شيء تقريبا ، وكان الجنرال ويغان قد استلم القيادة العامة واصبحت المفوضية تابعة له .

وفى اول ايلول ١٩٣٩ استلمت السلطة العسكرية البوليس والجندرمة ، واستلم المستشارون الوزارات .

وفى ٦ ايلول استلمت المفوضية حق التشريع ، وأصبحت كل مرافق لدولة تابعة لها ، وهي تابعة للقيادة العسكرية ..

- ٤٤ -

الرجل الذى عرف الحقيقة قبل غيره

ما العمل ، اذا كان بشاره الخوري فى حزيران ١٩٤٠ ، فى الساعة التي احتل فيها الالمان فرنسا ، قد عرف ان الانتداب ووجود فرنسا فى الشرق انتهيا ، وان ابواب الاستقلال الكامل الناجز لهذه البلاد قد تفتحت على مصراعيها ؟

ما العمل ، اذا كان هو قد عرف ذلك ، واذا كان اميل اده لم يعرفه ، او بالحري تجاهله بسبب حبه لفرنسا وايمانه بها ؟

هنا كان مفرق الطريقين !

والواقع ان ما عرفه بشاره الخوري ، هو ما كان يعرفه جميع الناس ايضا، اذ لم يكن صعبا وغير معقول ان لا يعرف الانسان ان احتلال الالمان لفرنسا وعقدها هدنة مع هتلر، انما هو دعوة لها لضب حقائبها فى بلاد المشرق ، ووضع نهاية لانتدابها ووجودها فى سورية ولبنان ..

وكثيرون يتساءلون حتى الان : ترى لو ان الاستاذ اميل ادرك هذا الشيء الذي ادركه بشاره الخوري ومشى فى طريق الاستقلال الذي مشى عليها بشاره الخوري ، وافترض مثل غيره بان نهاية فرنسا اصبحت محتومة فى هذا المشرق ، هل كان قبل رئاسة الثلاثة عشر يوما ؟ او بالحري ، هل لم يكن هو بدلا من بشاره الخوري رئيسا ؟

***

قلنا سابقا ، وقف النشاط السياسي المحلي فى كل مكان ، وانتقل النشاط الى راديو الشرق الذي كان يشرف عليه الفرنسيون ويديره ذلك الداهية الفهيم الالمعي المسيو شامبار ، كما انتقل النشاط ايضا للقنصلية الانكليزية ببيروت ، بيت الحليفة بريطانيا العظمى ، التي أخذت لنفسها صلاحيات سياسية كثيرة فى بلاد المشرق ، كان من الطبيعي ان تاخذها حالا

عندما اخذت لندن تسيطر على القيادة العسكرية العليا للحلفاء فى الشرق ، فاصبح من البديهي ان تلعب القنصلية البريطانية دورا كبيرا فى هذه البلاد ، وتتدخل بأمور داخلية سياسية كثيرة اعتبارا منها ان فى سوريا ولبنان طابورا خامسا لالمانيا ، من الاهلين يجب وضع حد لنشاطه .

وعلى هذا كان على الكتلة الدستورية ان تتردد على القنصلية البريطانية ، وتتجانس معها ومع ارائها ومقاصدها ، اعتبارا أنه قد يكون جاء الوقت لانكلترا لان تلعب دورها المباشر فى سوريا ولبنان ، وهما البلدان اللذان ارغمتهم السياسة قسرا على تركهما للفرنساويين سنة ١٩١٩

والواقع ان انكلترا لم تغتفر ابدا ذلك الاخفاق الذي أصابها لاول مرة فى المشرق ، عندما جلت جيوشها عن سوريا ولبنان ، تاركة البلدين للفرنسيين يتحكمون بهما . فهي قبل ذلك ما رفعت مرة رايتها على بلاد فى المشرق الا ورسخت اقدامها فيها ، وظلت مسيطرة عليها ابدا . واذا كانت بعض الاحيان جلت عن بلاد ما ، فانها كانت دوما تترك لها شيئا من الحقوق على تلك البلاد . ولكنها هذه المرة لم تكن مثل كل المرات ، واضطرت سنة ١٩١٩ ان تترك لبنان وسوريا تماما دون ان يبقى لها اثر ما فيهما وذلك بعد ان كانت قد دخلتهما دخول الظافر ورفعت رايتها على مباني الحكومات ، حتى ان الجنرال ويلسن لاسترالي الذي كان دخل البقاع على راس جيوشه ، ورفع الراية البريطانية على سراي زحلة بحفلة رسمية كان قد اعلن أمام الجماهير المحتشدة التي جاءت لهذا الاحتفال بقوله : « ان هذه الراية تبقى حيث ترتفع ، ولا تنزل ابدا ! »

ومع ذلك ، بعد اسابيع قليلة من ذلك ، نزلت الراية البريطانية وارتفعت مكانها الراية الفرنساوية فى كل مكان .

وهذا الشيء لم يغب طوال الثلاثة وثلاثين سنة ، التي مضت عن بال كل انكليزي فى هذا العالم .

وكان الانكليز الذين عرفناهم بعد استتباب الامر لفرنسا فى هذه البلاد يقولون لنا دوما ان الوضع غير طبيعي ، وان الانتداب الفرنسي فى سوريا ولبنان مثل رقعة مستعارة ، خاطتها الايام فى الثوب الانكليزي ثوب « جون بول » الذي ترتديه جميع هذه البلدان فى الشرق العربي .

قلنا ، كان من الطبيعي ان يستظل الدستوريون حالا الراية الانكليزية

وان يرتموا بأحضان مارون بك عرب ، الملحق في القنصلية ، الفهيم والخبير الذي كان ولا يزال يخيل لجميع الناس انه النيافة الرمادية ، المسموع الكلمة والراي في القنصلية البريطانية سابقا ، ثم في السفارة البريطانية اليوم وذلك على قدر ما الانكليز يستمعون لراي غيرهم ، مهما كان امينا وفيا وصادقا معهم ، كما نفترض ذلك طبعا في مواطننا المذكور ، الذي أصبح ذات صباح من تشرين ا لثاني ۹۱۳۹ كابيتانا في جيش صاحب الجلالة ، كما اصبح قنصله العام المستر هوارد جنرالا ، وكما أصبح المستشار السياسي المستر فرلونغ كولونولا ، اذ ان الهيئات الديلوماسية البريطانية انقلبت حالا عند اعلان الحرب ، وعلى الاخص في هذا الشرق الاوسط الى هيئات عسكرية ديلوماسية برتب عالية اخذتها لنفسها .

- ٤٥ -

الطابور الخامس في بيروت الحسناء

كانت اخبار الانتصارات الالمانية التي بدات ترد على هذه البلاد تزيد من الحماس عند المسلمين لهتلر ولجيوشه ، مما كان يعرفه الانكليز تماما ويقلقون له ، دون ان يتخذوا اية اجراءات حاسمة ، لا عن طريقهم ولا عن طريق الفرنسيين لايقاف هذا التيار ، وذلك خوفا من اثارة خاطر الالمان عليهم .

على انهم حصروا جميع جهودهم فى تنظيم دعايتهم الكبرى المعروفة فى هذه البلاد ، وكانوا قد دعوا رياض الصلح ليشترك فيها مقابل كل ما يريد ويطلب ، معتبرين ان من الواجب اكتساب اكبر عدد من الزعماء المسلمين ، وافتراضا منهم ان رياض الصلح يملك من الميزات والقوة ما يجعل الكثيرين من ابناء طائفته يخرجون على النازية وينضمون للانكليز .

وكان يونس البحري فى راديو برلين يعرف بطريقة عجيبة كل ما يجري عندنا حالا . وكان يتناول الموضوع فى اذاعاته المسائية يوميا ويفضح كل الامور .

ومن راديو برلين ، عرفنا ان الجنرال هورد القنصل العام البريطاني كان يجتمع سرا الى بشاره الخوري ، ثم الى رياض الصلح ، ومن بعدهما الى عمر الداعوق وسامي الصلح وغيرهم من كبار السياسيين واخصهم المسلمين منهم .

ولكن هل اتفق رياض الصلح مع القنصل الانكليزي العام ؟

وهل اتفق الزعماء المسلمون معه ؟

يجب القول انه لم تظهر بعد ذلك دلائل مطلقا على اتفاقات كهذه ! مع ان يونس البحري كان يؤكد الشيء فى اذاعاته . ولكننا لم نكن نعرف الحقيقة بكاملها ، خصوصا عن رياض الصلح الذي كان الاتفاق معه له

وزن وقيمة ، بوصفه حامل لواء العروبة الاكبر يومئذ . ولكن رياض الصلح كان لايتكلم ، ولا الانكليزي كان يؤكـــد .

ومضت سنوات بعد ذلك ، وذهب الفرنسيون ، وظل جميع اهل السياسة يؤكدون ان رياض الصلح كانت له دوما صلات مع دولة كبرى . ولكن ما من احد استطاع مرة واحدة ان يعين تلك الدولة فهذا كان يقول المانيا ، وذاك انكلترا ، واخر يقول ايضا فرنسا .

هل كان رياض الصلح قديرا لدرجة انه استطاع اخفاء لامر ، او انه كان حرا طليقا ـ كما عرفناه ـ ولم يتعامل ولا مرة مع اية دولة كانت؟ او انه على افتراض ثالث ، قد يكون استطاع بنباهته ن يتعاون مـــع جميع الدول فى آن واحد ؟

ولكن ، مما لاشك فيه ان لدستوريين اتفقوا سنة ١٩٣٩ مع الانكليز وفى مقدمة هؤلاء الشيخ بشاره الخوري اعتبارا منهم ان دور الانكليـز فى السيطرة على سياسة الشرق الادنى بكامله قد يكون قد اتى ، وهـــم فى تحالفهم مع الفرنسيين وقيادتهم العليا فى مصر و شتراكهم بجيـــش الشرق سيكون لهم كلمة فاصلة فى السياسة الداخلية بالبلدان التي تحت سلطة الحلفاء العسكرية ، واعتبار من جانب اخر أن الفرنسيـــين سيداومون ، ولا شك ، على مساندة الادبين ، وذلك لانهم يعتبرون ـ كما كانوا يقولون فى كل مكان ـ ان الادبين هم بالاساس حزب فرنسا فى لبنان،

وايضا كان من الطبيعي ان يطرق خصوم الادبين ـ زبائن فرنســا ـ باب لانكليز ، عندما راوا باب سوريا ولبنان قد اصبح مفتوحا امـــام الجيوش الانكليزيـــة !

ولم يذهب أحد للاميركان ، لان اميركا لم تكن يومئذ قد اخـــذت تسيطر على هذا الشرق ، وتاخذ المكانة السياسية والسيطرة الاقتصادية المرمـــوقـــة .التي اخذتها بعد ذلك .

وكن ، كان هناك لمسلمون ايضا ، بعددهم الاكبر والاقوى يرابطون فى وسط الطريق . فهم ليسوا أنكليز ولا افرنسيين !

هم انصار خصـــوم الانكليز والفرنسيين، هم اذن الطابور الخامس الذي لم يتحمل هتلر الاتعاب لكثيرة فى خلقه وتكوينه . هو طابور خامس

يسمع كل مساء يونس البحري يعد باسم « الفوهرر » في اذاعات برلين بالاستقلال الكامل للعرب ، وبتحرير الاسلام من سيطرة الغرب ، وباعادة امجاد العرب الى ماكانت عليه ، وباقامة امبراطورية عربية تبدأ من شمالي افريقيا وتنتهي على حدود الاناضول وفي تخوم بلاد فارس .

ولكن ، ماذا كان يمكن للدستور بين ان ينفعوا انكلترا والمجهود الحربي في بلاد اصبحت سياسيا مجموعة عربية كبرى معادية للحلفاء ، تفوق على الاربعين مليونا ليس بينها غير بضع مئات الالوف من النصارى فقط موالين للحلفاء ؟

وكان من الطبيعي ان يكون النصارى مع الحلفاء ، ليس فقط لتقاليدهم المعهودة: البعض منهم مع فرنسا والبعض الاخر مع انكلترا، بل ايضا تبعا للخطة التي لا تتبدل ولا تتغير في هذه البلاد ،والتي تجعل المسلم ياخذ دوليا وسياسيا طريقا غير طريق المسيحي ، والمسيحي غير طريق المسلم .

وهكذا راينا يومئذ في بداية هذه الحرب مهمة القنصلية الانكليزية صعبة جدا ، خصوصا صعبة على صديقنا مارون عرب ، وهو يحاول ان ياخذ له مكانا عند هؤلاء الاربعين مليون مسلم من انصار هتلر ، ساعيا الى تحويل ميلهم من المانيا الى انكلترا .

واستعمل البريطانيون المال والحيلة والدعاوة الكبيرة والحاذقة جدا ، حتى انهم اصدروا مجلة عربية عن طريق جريدة « الاوريان » اسموها « المراحل » تعمل لهم بروبغندا بمكة والرياض . وكنا قد استلفتنا يومئذ انتباه القنصل الانكليزي العام للامر ، فذهل واكد انه لم يكن عالما بما جرى، وقال تلك الكلمة الطريفة المشهورة : « اننا بنشر الدعاية عند المسلمين عن طريق المراحل التي توزعها القنصلية البريطانية بالالوف في البلاد العربية ، نكون كمن يجرب بيع الخنازير في بلاد الاسلام ! »

وقبض يومئذ بعض الزعماء المحليون من الانكليز — ايضا — المال الكثير ، وتظاهروا بانهم تاثروا بدعاوتهم ، ولكنهم ظلوا ضمنا يعطفون على هتلر .

ونذكر ان القنصلية البريطانية دعتنا حينذاك ، عندما اصبحت مرجعا سياسيا كبيرا ، لها نفوذ المفوضية الفرنسية واكثر – دعتنا لالقاء محاضرة في «راديو الشرق »، نثبت فيها ان بريطانيا اعظمى صديقة العرب ، وانها هي التي قادت نهضتهم في الحرب الكونية الاولى ومشت بهم نحو النصر ، وفصلت بلادهم عن السلطنة التركية ، واقامت لملوكهم عروشا وابتدعت لهم الممالك !

واجابنا يونس البحري من راديو برلين في اليوم الثاني باننا نكذب ونلفق ونقول غير الحقيقة ، ونخون العرب والعروبة ، وتساءل حضرته في الراديو كم يجب أن تكون القنصلية البريطانية دفعت لنا يومئذ ، وأسمى محاضرتنا « محاضرة المائة ليرة الكليزية » ، مفترضا أن القنصلية دفعت لنا هذا المبلغ .

وبالمناسبة يجب علينا القول انه كان مخطئا من جهة ، ومصيبا من جهة ثانية .

كانت المفوضية حقا قد دفعت لنا اجرة تنقلات من بيتنا لدار الاذاعة ولكن صديقنا يونس كان مخطئا عندما افترض مقدار القيمة ، وتصور ان القنصلية البريطانية عندها كل هذا الكرم !

فانما لا الجنرال هوارد القنصل العام ، ولا مستشاره مارون عرب، كانا ولا مرة بهذه اليد المبسوطة الكبيرة ، لا معنا ولا مع غيرنا ، حتى ان الكثيرين من السياسيين المحليين كانوا يتساءلون بين بعضهم البعض ، عندما كانوا يثبتون بالمناسبة ان انكلترا ليست بذاك الكرم في دعاوتها – وهو كرم كانت الاساطير تحدثنا عنه – كان كثيرون من السياسيين يتساءلون اذا كانت انكلترا يمكنها ان تربح الحرب مع هذا التقتير الذي كانت قد اخذت تظهره في كل مناسبة .

قلنا ، وانتقل النشاط السياسي الى القنصلية الانكليزية التي اخذت منذ ذلك الحين تدبر امورها في هذه البلاد ، كأن الفرنسيين حتما سيتركونها ، وكأنما هي التي ستخلفهم عندنا .

***

كان رياض الصلح قد اخذ يخرج من « القاعة الصهيونية » التي

اصطفاها خلوة له ، حيث كان حتى ذلك الوقت يجتمع دوما ويوميا بالصحافيين والسياسيين القائلين قوله والمناصرين له يتبادلون الاراء والاخبار ، ويضعون خطط المستقبل والمؤامرات والتدابير اللازمة .

وكانت القاعة التي اسماها رياض الصلح «القاعة الصهيونية» مقصورة من الخشب، خفية،تقوم في داخل مخازن التاجر المعروف الغيور صديق رياض الصلح المخلص ، السيد يوسف اصدي .

وكانت « لقاعة الصهيونية » قد اشتهرت في ذلك الحين بشيئين رئيسيين :

اولا ــ رجال الامن العام ورجال المعلومات الفرنسية الذين يحيطون بها دوما متبعين اخبارها .

وثانيا ــ الشائعات والدعايات والاخبار التي كانت تخرج منها وتملأ البلد في كل يوم، وهي تحمل طابع «القاعة الصهيونية» على قفاها!

وكانت قد دعيت « القاعة الصهيونية» بالنسبة للقاعة الصهيونية التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس ، والتي كان المسيح يختلي فيها .

وكما كان الانكليز يعتبرون منذ مونيخ ــ عندما اشتموا رائحة الحرب القريبة ــ ان نهاية فرنسا في هذه البلاد قد جاءت ، مع ان الالمان لم يكونوا قد اعلنوا القتال بعد ، فان رياض الصلح كان ايضا يقول مثل هذا القول منذ ذلك الحين ، ودون ان يدري لربما ما كان الانكليز يقولونه.

وهكذا العقول الكبيرة كانت تتلاقى وعلى اساس اعتقاد رياض الصلح بقرب نهاية فرنسا في هذه البلاد ، اخذ حضرته يشتغل ايضا منذ بداية هذه الحرب ، وبعدما رآه من تدخل الانكليز السياسي في معظم امورنا السياسية ، اخذ يشتغل بعنف في السياسة على اساس نهاية الانتداب غير المنتظرة .

وكان يأمل ان البلدان العربية التي فرقتها وجزئتها الحرب الكونية الاولى قد توحدها الحرب الكونية الثانية .

ولكن رياض الصلح لم يكن يقول ، كما كان كل مسلم غيره يقول .

ان الالمان هم الذين سيعملون هذا الشيء ، مع كل ما كان الالمان يؤكدونه ويعاهدون العرب عليه .

نعم ، كان يؤكد ان الوحدة الاستقلالية للعرب اصبحت ممكنة ، ولكنه لم يكن يعين الدولة الكبرى التي ستحققها . انما عندما ذهب للندن بعد ثورة لبنان ٩٤٣ عضوا في لجنة الجلاء ، ذكر في حديثه مع وكيل وزارة الخارجية البريطانية انه هو ايضا كان يعرف ان عهد فرنسا في بلاد الشرق قد قارب الانتهاء ، وكان يعرف ان انكلترا هي التي ستتولى تسوية قضية الاستقلال في سوريا ولبنان ، وذلك على ظهر الفرنسيين وبعد اجبارهم على الجلاء عن البلدين . واثبت قوله برسائل كان يتبادلها في صيف ١٩٣٩ مع صديق له من كبار رجال البرلمان الانكليزي .

وكانت « القاعة الصهيونية » توزع على البلاد بطرق غير مباشرة ، ولكن بارعة يديرها رياض الصلح نفسه ، كلمة المرور اليومية ، التي يجب على الوطنيين ، طلاب الاستقلال ، السير عليها ...

وكان الفرنسيون يشعرون ان هناك قوات غير منظورة ، ولكن منتظمة تعمل عملها ، واتجهت انظار المفوضية وشبهاتها نحو بشاره الخوري ورياض الصلح ، فجعلتهما تحت المراقبة الدائمة ، مما كنا قد عرفناه حالا واسرعنا ننبه رياض الصلح عنه .

واخذ يومئذ هدنة بضعة اسابيع اختفى فيها عن العيان وعن « القاعة الصهيونية » العزيزة عليه جدا واوقف كل نشاط سياسي مما جعل الفرنسيين لا يتصدون له ، بعد أن كانوا مزمعين على اعتقاله .

وكان ولا شك جو من الارهاب والتردد يسود في الاسابيع الاولى لبداية الحرب ، مما كان طبيعيا جدا . وكان السياسيون يتلمسون طريقهم ولا يعرفون أين يجدونها . لاسيما والسلطات الفرنسية كانت استلمت كل شيء في السرايات واصبحت المرجع الوحيد للناس .

وهنا كان على رياض الصلح ان يعمل عمله بقوة وبحكمة ، متدبرا مستقبله السياسي وهنا كان عليه ان ينتقي حالا بين الحزبين الاكبرين بالبلاد ، واي منهما يجب ان يحالف !

وكان من الطبيعي ان تتجه افكاره نحو الشيخ بشاره الخوري وصحبه

اعتبار ان الكتلة الدستورية هي التي لم تستنكر في لبنان التعاون الكامل مع العرب ، والتكاتف والتضامن والوقوف معهم في وجه الاجنبي .

وكان اميل اده حتى ذلك الوقت لم يقل في هـــذا الصدد اكثر من ان لبنان مستعد ان يتعامل مع البلدان العربية كتعاونه مع باقي البلدان الصديقة ، ولم يكن قال ولا مرة أن لبنان يتعاون مع البلدان العربية ضد الاجنبـــي ...

هذا ـ كما قلنا ـ كان من الواجب أن يتعاون رياض الصلح مـــع بشـــارة الخوري في نهضته السياسية الجديدة ، وفي مبادرته للاشتغال بالسياسة اللبنانية ، بعـــد ان كان يشتغل دوما في ميدان السياســـة العربية جمعاء بطريقة شاملة .

ولكنه لم يفعل ، ولم يكن يظن ان الوقت كان قد جاء للاتفاق مع بشاره الخوري ، حتى انه لم يكن سجل على نفسه مرة واحدة في السابق تعاونا ولا اختلاطا سياسيا ببشارة الخوري ، بل بالاحرى ـ ومع عدائه الظاهر للفرنسيين ـ كان أقرب للاستاذ أميل اده منه لبشارة الخوري !

ولكن ... عندما قامت الحرب ...

وعندما أخذ يقول ـ كسياسي بصير فهيم ـ ان هذه الحرب أيضا ستضع لبنان والبلدان العربية في كفة القدر عن جديد ، واية حـــرب خسرها الحلفاء او ربحوها ، لا بد من اعادة النظر فيها عند نهايتها من جديد في مصير هذه البلدان العربية وانظمتها واوضاعها ، عند ذلك كان مـــن الطبيعي ايضا ان يفتش رياض الصلح عن زعمـــاء سياسيين يشتركون معـــه بالراي .

وكان راي اده يخالف رايه تماما ، وهو الراي القائل ان فرنســـا في سوريا ولبنان خالدة الى الابد ، لا يتغير معها شيء ولا يتبدل معهـــا شيء ، رغم احتلال الالمان لبلادها . وهو لم يكن يشك مطلقا ان انتصار فرنسا في النهاية مضمون ، لذلك كان يقول انه لا يجب التفتيش والتكهن عن احداث جديدة تساعد على زوال النظام الانتدابي القائم ...

وطبعا ، عند هذا التفاوت في الراي والفكر بين اده ورياض الصلح ، كان من البديهي ان يتقارب هذا الاخير مع بشارة الخوري . ولكنـــه

تقارب اصطدام بين الرجلين الكبيرين بعقبات كثيرة ، اهمها النفور الذي كان حتى ذلك الحين يستولي على اهالي المدن الساحلية المضمومة جديدا لجبل لبنان من ابناء هذا الجبل ايا كانوا ولكن هذا النفور انقلب عند الاستقلال الى تعاون كبير لم يسجل تاريخ الجمهورية اللبنانية اشد واوفى واقوى منه ، خصوصا فى السنوات الاربع الاولى للاستقلال ،وقبل ان يبدأ كل من هذين السياسيين الكبيرين يجرب دهاءه فى رفيقه ، مما سنرى تفاصيله الرائعة الشيقة والتعسة معا فى احاديثنا المقبلة ، ومما كان ولا شك ضربة المعول الاساسية والاولى فى صرح رئاسة بشارة الخوري بعد الاستقلال ...

***

وكما قلنا سابقا ، ساد التردد والحيرة عند رجال السياسة فى لبنان اثناء الاسابيع الاولى للحرب مما جعلهم اخيرا ، وقد اضطرتهم الظروف لاعتزال السياسة قدر الامكان ، ياخذون هدنة لانفسهم ، خوفا من الوقوع فى زلل ، وبدافع جبن طبيعي ، قضى عليهم ان يتريثوا لينما يجدون طريق السلامة يمشون عليها .

انما بقي نشاط تلك الجماعة التي لم تتعب ولم تكل فى التسابق والتزاحم للتقرب من السلطات الفرنسية ، التي اخذت ايضا تتغير وتتبدل فى السراي الكبير من جنرال قائد عام لجنرال قائد عام، واكثرهم شهرة الجنرال ويفان الذي كان قد اضاع كثيرا من نشاطه وحسن بصيرته لتقدمه فى السن .

وفى هذه الحالة ، وقد استلم الفرنسيون كل شيء تقريبا ، لم نعد نرى فى سراي البرج سياسيا وطنيا واحدا !

اذ ان السياسيين باجمعهم انتقلوا الى حيث انتقلت السلطة الحقيقية مباشرة فى سراي المفوضية،مما جعل اروقتها تضيق بهم ، وتضيق بوجه خاص برجال الاعمال الذين اخذوا ينتشرون يوميا فيها ، يسعون ويعللون النفس بالصفقات والتعهدات والمتاجرات التي كانت قد اخذت تتكاثر فى دوائر المفوضية الاقتصادية،تلك الدوائر التي كانت تستأثر بجميع موارد ومرافق هذه الجمهورية .

وكانت الحرب قد جعلت دوائر الاقتصاد والاعاشة فى المفوضية

مرتعا جذابا فتانا للسمسرات ولعقد الصفقات ، وبيع وشراء رخص الاستيراد والتصدير ، فكان من الطبيعي أن يحوم حولها غربان المتاجرات من رجال الاعمال وأهل السياسة الاستغلاليين ، يحاولون الكسب والنهب بأساليب أثبتوا منذ الساعة الاولى انها ماهرة حاذقة ، فكانت هكذا نوعا من قيام مدرسة المستقبل التي اتقنت علم الكسب والنهب ، والتي اخذ عنها المتاجرون النهابون دروسا كبيرة ، نفعتهم كثيرا في عهد الاستقلال ، وجعلتهم من أمهر لصوص السرايات في العالم .

هذا الفن بلغ كثيرا من الاتقان في الدوائر الاقتصادية في المفوضية في ايام المسيو ركلو ، الرجل الفهيم الذكي ، الذي استطاع ان ينقذ القليل من كثير ، من الخيرات التي كانت تتدفق على تلك المصلحة . . .

وكان من الطبيعي ان نرى في وزارة الاقتصاد والاعاشة عندما استلمنا بعد الاستقلال مصلحتها من الفرنسيين ، ورفعناها الى وزارة ، نفس الحرامية الكبار ، والمجوعين المخيفين ولصوص السرايات ، اولئك الذين تلقنوا في مدرسة الدوائر الاقتصادية الفرنسية تلك الدروس القيمة ، تساعدهم على نجاح عملياتهم المشبوهة الجديدة ، فيلبسونها بمهارة لباسا نزيها جميلا ، يجعل الناس يعتبرونها اعمالا وطنية جليلة !

كل هذا سيأتي شرحه في هذه المذكرات عندما نصل الى بناية الدعبول بعد الاستقلال ، وعندما يصطف امامنا في هذا الكتاب اسماء اللصوص الكبار من سارقين عاديين مبتذلين ، ومن حرامية « جنتلمان » من الذين يديرون اليوم قفاهم للدولة الجديدة ، ولا يساوون عن التهديدات والتهم التي يسمعونها من هنا وهناك ، واتي تطالب بملاحقة جميع الذين استعملوا نفوذ الدولة للاثراء . فهم مرتاحون فوق هذه الثروات التي جمعوها ، يجلسون عليها ، ويعتبرون عن حق انها حصن حصين يقيهم كل عدوان ، ويرددون في كل صباح ومساء القول المأثور : « المال مهما كان قذرا يجعل صاحبه نظيفا وقريبا » .

على هذا ماذا يهمهم اذا قيل عنهم كل شيء سيىء ورذيل ، طالما أن صناديقهم ملأى وبيوتهم عامرة ؟

فأي متى لم يغسل المال العار ؟ وأي متى لم ينقذ صاحبه من جميع السيئات والمفاسد وحتى الاثام ؟ ورب بنات مستهترات جعلهن المال عذارى !

- ٤٦ -

« البكاء على باريس »

وصلنا فى سياق حديثنا الى بداية الحرب ، وهو وقت كان الكثيرون منا يسمونه «غرفة الانتظار للاستقلال» او مرحلة ما قبل الاستقلال .

واذا ما استعرضنا هنا حوادث ذلك الوقت ، نجد ان لا فضل على الاستقلال لاحد من الذين ادعوا انهم عملوا الاستقلال . فقد كان عندنا استقلاليون ، ولكن لم يكن عندنا مجاهدون عاملون للاستقلال . وحتى ولو كانوا عاملين مجاهدين ، لما كان بالحقيقة يطلع بيدهم شيء ، فانما الاستقلال كحسناء مستعبدة صاحبها سيد سلطان قوي ، لا يمكن انقاذها منه الا برجل اقوى منه !

لهذا يمكننا دون ان نخطىء اقول بان هتلر هو الذي عمل الاستقلال عندنا ، وذلك عندما احتل باريس ، وجاءت اخبار هذا الاحتلال الينا بطرق شتى وبلهجات مختلفة وبتهج الكثيرون ، وكادت البسطة تزين وتقيم المهرجانات . وقامت المناحة ايضا فى كثير من القرى والدساكر فى جبل لبنان ، وطبعا ليس عند المسلمين ، ولا عند التجار الذين يريدونها دوما حربا عنيفة يستثمرونها .

هكذا بكى الباكون ، وانتحب الناحبون على الام الحنون ، واخذت تتحقق مبدئيا نظرية بشارة الخوري ورياض الصلح ، القائلة منذ اليوم الاول لبداية القتال، ان هذه الحرب مهما كانت نتاؤجها، لا بد انهاستجعل العالم الدولي يعيد النظر فى كيان البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي .

وادرك السياسيون والنبهاء الفاهمون من اللبنانيين والسوريين — بالرغم عن محاولة الفرنسيين هنا المكابرة ، والظهور بالسؤدد والجبروت — ان الفرنسيين لن يستطيعوا البقاء اسيادا فى بلدان الشرق ، وقد احتل الالمان بلادهم .

ادرك الناس جميعا هذه الحقيقة ، ما عدا الاستاذ اميل اده ، وبعض

انصاره الذين وحدهم لم يسمعوا ــ او أنهم عملوا أنفسهم انهم لم يسمعوا ــ عندما اجتاح هتلر فرنسا، أجراس الحزن تدق فيها آذنة بنهاية الانتداب في سوريا ولبنان وقائلة ان فرنسا لا يمكنها بعد هذا ان تبقى في بلدان الشرق .

وعلى هذا الاساس ، وجد بشاره الخوري ورياض الصلح ورفاقهما جليا الميدان مفتوحا لمعركة الاستقلال ، التي كانوا حتى ذلك الوقت يخوضونها من وراء الستار ، متسلحين بمعارضات واسلحة معنوية ، ومناورات سياسية محلية ، مما لم يكن يشكل اية قوة ، طالما السنغاليون كانوا هنا في الثكنات وكانت الفوضية في السراي !

فلما شاهد الرجلان الكبيران الميدان مفتوحا امامهما فولجاه . وكان احتلال الالمان لباريس فاتحة صفحة الامجاد الوطنية العظيمة التي وصلا اليها بعد ذلك ، والتي رافقت رياض الصلح الى قبره ، ثم انتزعها جماعة الانقلاب الاخير من بشارة الخوري ، وهو حي :

والان كيما نكون صريحين وجريئين ، يجب ان نتساءل ونقول :

ــ لو بقي رياض الصلح حيا ، هل كان جماعة الانقلاب استطاعوا ان ينزعوا عنه الرداء الارجواني للامجاد الوطنية ، كما انتزعوا ذلك الرداء عن بشاره الخوري ؟ وقد كان الرجلان الكبيران حتى قبل مصرع رياض الصلح بأيام فقط يديران هذه الدولة ويحملان مسؤولياتها ، ويعملان سياستها واعمالها، ولم يكن باقي السياسيين فيها سوى جلاسا في القاطرة الثانية ، وهما في صدر القاطرة الاولى ؟

ويمكننا ان نتساءل ايضا :

ــ هل لو بقي رياض الصلح حيا، فهل كان يترك لاي انقلاب يقع بجرف بشاره الخوري كما فعل ؟ الم لكن نسمعه دوما يقول حتى في اخر ايامه بعد ان ترك الحكم وخاصم رئيس الجمهورية ، الم نكن نسمعه يقول عنه على طريقة قول المسيح عن المجدلية :

ــ هذا الرجل الكبير خدم كثيرا فيجب ان نغفر له كثيرا ؟..

لهذا نعود ونتسأل: لو كان رياض الصلح بقي حيا ، هل كان استطاع هؤلاء ان ينزعوا ذلك الرداء عنه ، وعن بشاره الخوري ايضا ؟

ثم : هل كان المعارضون اشركوا فى تهاماتهم الفظيعة رياض الصلح ايضا ، وهو الذي كان دوما فى الحكم ـ وهو الحكم الذي يسميه اليوم الانقلابيون « الحكم البائد الطاغي » يحمل مسؤولياته ومسؤوليات الرئاسة باجمعها بحرارة وشجاعة نادرين ؟

كل هذه اسئلة كبيرة جدا ، جوابها عندنا فى سياق هذه التذكارات التي ستستوعب كل شيء ، والتي ستثبت ايضا ان الحركة الانقلابية ضد بشاره الخوري كان موعدها الاول فى صيف ١٩٤٩، يوم اجتماع المعارضين الثوروي العنيف بصوفر تحت قيادة الوطني الكبير المغفور له عبد الحميد كرامه . ولكن رياض الصلح كان لا يزال يومذاك حيا وفى سؤدده وقوته وكان خصوصا يرفض مجاراة المعارضين فى هجومهم وحملاتهم على رئاسة الجمهورية ، لانه كان يعتبر دوما ان التجاوزات التي قامت فى الدولة هي نتيجة طبيعية تاتي مع كل استقلال جديد فى اية بلاد كانت .

لهذا ، كان مثلنا ومثل الكثيرين غيرنا ، يعتبر ان بشارة الخوري سيخلد فى الرئاسة مع ان الخلود لله وحده .

***

وكان من الطبيعي بعد دخول الالمان الباريس ان يعتبر الناس ان النتيجة الواقعية لذلك هي قرب فقدان فرنسا انتدابها اولا فى سوريا ولبنان ، واضعاف سيطرتها المطلقة ثانيا فى امبراطوريتها الاستعمارية مما ولا شك يتفق حالا مع فكرة السياسة العربية الواسعة الشاملة المتحمسة فى بيروت ؛

واخذ رياض الصلح مع بعض المغالين بالعروبة من اصحابه ، يقودون هذه السياسة ، يساعدهم ويشجعهم بوجه اولي التعاون الذي اخذوا يلاقونه عند الانكليز ، والتعاون الذي اخذ يبديه ممثلو الدول العربية ببيروت ، واخصهم ممثل العراق تحسين قدري ، الذي كان يقوم لبلاده بدعاية وسيعة الصداقة التي تريدها للبنان . وكان من اكبر ظواهرها ونتائجها وقوف العراقيين فى كل المناسبات ، وعلى الاخص فى المفاوضات العسكرية والدولية مع الحلفاء ، بجانب اللبنانيين واستقلالهم .

وكانت ولا شك هنا الفرصة الاولية الواقعية التي انتهزها بشاره الخوري ، ليفرض نفسه زعيما سياسيا وقائدا واقعيا للتعاون اللبناني

العربي مما كان له شان كبير عند العرب والمستعمرين اذ ان صفة بشاره الخوري كزعيم ماروني كبير ، يماشي ويريد تعاون لبنان مع العرب ، قد اكسبت القضية قوة كبيرة عند الدول التي كانت الدعاية الفرنسية قد جعلتها تتصور ان لبنان اولا ماروني ، يجب ان يكون ذ طابع افرنسي ، اذ ليس من ماروني كبير يريده عربيا ، حتى ولا متعاونا مع العرب !

واخذت تقوم ظاهرات هنا وهناك فى الاندية السياسية وحول القنصليات العربية ، يظهر فيها مولد قضية جديدة رئيسية فى لبنان ، هي قضية عروبته التي كان رياض الصلح بوجه اولي يحمل رسالتها ثم جاء فى ذلك الوقت بشاره الخوري يشاركه فى حملها .

وكان على الاستاذ ده فى هذه الحالة ان يقف فى وجه هذه اليقظة العربية الجديدة ، وياخذ اكثر واكثر جانب الفرنسيين ، طالما انه ظل يعتبرهم — رغم انكسارهم الحربي بفرنسا — القوة الوحيدة التي تنقذ لبنان مما كان يسميه «طغيان البلدان العربية» . وهذا الشيء كان هاجسه الاوحد ، يقلق مضجعه .

على أن وجود الفرنسيين بالبلاد — بنظر المنطقيين من الناس — كان قد اصبح وجودا موقتا جدا ، خصوصا والفرنسيون هنا ، بعد ان كابروا بضعة اسابيع بعد دخول الالمان لباريس ، وتظاهروا بدوام السؤدد والجبروت ، استضعفوا اخيرا امام تشاؤم الاهلين ، يحاولون عبثا اخفاء وساوسهم وجهات ضعفهم ويأسهم ، مما شجع الناس فى البداية على اظهار استخفافهم بالانتداب ، فاضطر الفرنسيون رويدا رويدا ان يتبعوا سياسة لتقرب والتحبب من اهالي هذه البلاد — شان كل الضعفاء الذين يرون انفسهم فجاة اقوى من أسيادهم ، فيستأسدون عليهم ، ويجابهونهم وجها لوجه ، ويتحدونهم ، ويطالبونهم بالتخلي عن الامتيازات والصلاحيات التي لـــهم .

واخذ البادرة يومئذ سامي بك الصلح الزعيم السياسي المعروف .

اخذ المبادرة عندما طلع على باله — ذات مساء فى اجتماع سياسي بمنزل قنصل العراق العام — فاخذ يطالب بالمصالح المشتركة التي فى يد الافرنسيين ، ويدعو هؤلاء لتسليمنا السراي الكبير التي كانت يومئذ مركز المفوضية السامية ومقر اركان حرب جيش الشرق ، وهو يردد

كلمته المشهورة بلهجته التركية : سراي كبير لنا ، سراي كبير لنا !

وطبعا ، وقف الرجل الرابع ومعظم الدستوريين مع المطالبين باعادة جميع الصلاحيات المحلية للبنانيين وهي صلاحيات كان الفرنسيون قد استأثروا بها في مفوضيتهم السامية واشترك معهم بالمطالبة كبار « الناسونالست » المسلمين اللبنانيين واكثر عمال الانكليز ، ومنهم بعض اللبنانيين المارونيين الذين ينظرون الى بعيد في السياسة ، مما كان يجعلهم يؤمنون ان انكلترا في النهاية هي التي ستفوز !

ولكن ، اذا اميل اده ، في صراحته وطبيعته الجريئة التي لا يمكنها ان تخفي شيئا ، ظل كاشفا عن وجهه في سياسته وفي تعاونه الكامل المطلق مع الفرنسيين ، بالرغم من انهم كانوا حينذاك قد اخذوا منه كل شيء ، حتى رئاسته ، فان بشاره الخوري كان ـ كعادته في حالات مثل هذه ـ يضع قناعه التاريخي على وجهه ، غير تارك لاحد مجالا ليعرف خفاياه ، فلا يظهر منه شيء يخونه في مساعيه وتدبيراته الخطرة في سبيل نجاح سياسته الاستقلالية التحريرية ، وهكذا كان يحجب اعماله بستار كثيف عن اعين الفرنسيين وعمالهم وجواسيسهم .

وقيل يومئذ ان بشاره الخوري جبان ، عندما جاء وقت الجهاد ، وشاهده الناس يتوارى عن المسرح السياسي يتستر ويختفي ويلقي واجباته الوطنية من وراء الجدران وكان فعلا يفعل شيئا من ذلك عندما شعر ان هناك بعض الخطر عليه .

ولكن الملاحظين النبهاء لاقوياء ، كانوا يعرفون ما يعرفونه ، ولهذا نتكلم نحن اليوم ، ويتكلم اليوم خصوصا مارون عرب المستشار الشرقي للسفارة الانكليزية ، ويقول للناس اية مفاوضات ومخابرات كانت تجري في الخفاء بين بشارة الخوري ، القابع في بيته ، الخائف المضطرب ، كما كان عداؤه يزعمون ، وبين الحلفاء ، وعلى اي اساس وطني حركان يشتغل مع رفاقه ، وفي راسهم كميل شمعون طبعا ، الذي كان صلة الوصل الافضل والاقوى بين « الناسيونالست » اللبنانيين وبين البريطانيين . وكان هؤلاء قد تعهدوا يومئذ انهم هم الذين سيحققون لنا الاستقلال .

العرب في لبنان

قلنا أخذت الدعاوة العربية تتسع عندنا ، وتأخذ مكانتها المرموقة وتقوم بظاهرات كبيرة تزايد من قوتها ، وفيها الاستقبالات الكبرى في قنصليات مصر والسعودية ، وعلى الاخص في المفوضية العراقية براس بيروت، والعيد الرائع العظيم الذي اقامه رياض الصلح في بيته سنة ١٩٤٠ لذكرى مولد ملك العراق ، وصادف ذلك ابان حركة وثورة رشيد عالي الكيلاني في بغداد وقد وجد رياض الصلح بذلك العيد المناسبة لقيام تظاهرات كبرى ضد الفرنسيين تأييدا لمعرب وتقربا منهم ، وكان الكثيرون من الساسة المارونيين مثل اميل لحود وغيره قد جاؤوا من جبلهم يشتركون بتلك الحفلة العربية السياسية القحة ويطيرون للملوك ورؤساء العرب امنياتهم لاعلاء شان العروبة ، ولاستعداد لبنان للتعاون والاشتراك في سياسة عربية استقلالية قومية واحدة مما كان معدودا في ذلك الوقت خيانة عظمى ضد لبنان وضد الفرنسيين .

وكانت هناتدبيرات ومشاهدات وطنية عربية متنوعة جعلت طبعا جماعة الانعزاليين الاديين يظهرون قلقهم وخوفهم على لبنانيتهم وانعزاليتهم من وراء هذه التظاهرات العربية في لبنان ، التي لم يكن احد يجسر على القيام بمثلها عندما كان الالمان لا يزالون ببرلين ، وعندما كانت فرنسا حرة طليقة ودولة عظمى !.

وقد كانت اذاعة برلين في مناسبة مثل هذه الظاهرات تذكي هذه الدعاية العربية الكبرى بلبنان ، وتزيد في حماسها ، خصوصا ، عندما كانت تذكر وعودا قاطعة لهتلر باقامة حلف عربي عظيم ، يكون لبنان دولة مستقلة ، ولكن من اركانه !

وكانت هذه الوعود من الاسباب العديدة التي لا يرتاح لها كثيرا جماعة الانتهازيين اللبنانيين . وكانت تزيد في قلق الانعزاليين ، لا سيما ووعود هتلر كانت تجد تقديرا كبيرا عند الناس، مما هو طبيعي في الوقت الذي كان فيه هتلر ينتقل من انتصار الى انتصار .

- ٤٨ -

زراعة الصوف فى لبنان

وكان بديهيا فى سوريا ولبنان ، بعد احتلال الالمان لفرنسا ، ان يحسب الناس حساب الاحداث المنتظرة ، والتي اصبح من المحتم ان تقع : ولكن بانتظار ذلك كان بعض السياسيين اللبنانيين لا يزالـــون يعملون فى السراي لخدمة الانتداب ولتاييده ، مما كان يجعل لهم خطـوة جديدة عند الفرنسيين الذين كانوا يومئذ بحاجة كبيرة لكل تاييد ياتيهم من الاهلين ، مهما كان صغيرا ، حتى انهم كانوا يطلبونه من اي كـــان ، ووصلوا لان يعملوا مهرجانا طويلا عريضا للامير خليل ابي اللمع بمناسبة تصريح نشرته جريدة صغيرة تافهة ، قال فيه ان لبنان يبقى مع فرنســا فى السراء والضراء ، ولن ينفصل عنها ابدا !

قلنا ، عمل الافرنسيون مهرجانا للامير خليل يومئذ فى حين انهم قبل ذلك ، عندما كانوا فى سؤددهم وجبروتهم ، كانوا يهزاون منه ومن كل تصريح يقوله ، وهو الرجل الطيب النبيل ، ولكن الساذج جدا فـي السياسة ، انما المحب كثيرا للمعالي لدرجـــة جعلته يطالب اميـل اده باشراكه فى حكومة جديدة كانت تتالف ، وكان يهدده بقوله الذي ذهب بعد ذلك محطا للكلام عند الهازئين من الناس — اما بشارة ، اما وزارة !

يعني او يعطيه وزارة ، او يمشي مع خصمه !

نعم ، كان الامير خليل محبا للمعالي ولكن حسن السريرة جدا ، ومن بيت مجيد كان امراؤه دوما حكاما فى المتن . وكان غالبا ما تسبقه سذاجته فيقول اشياء مضحكة نوعا ، بالغ فيها خصومه الدستوريـــون ، وفى راسهم الشيخ فريد الخازن ، حتى جعلوها لا تصدق — كقولهم مثلا من انه وقف ذات يوم امام فلاحيه فى مزرعته بجوار الجوز ، يقول لهم : لمـــاذا لا تزرعون الصوف ايضـــا ؟

وكان فى ذلك الوقت ، بين المتعصبين الصميمين للفرنسيين ، الشيخ

توفيق عواد ، يقف بجانبهم متحزبا عنيفا . وكان حضرته وعن عقيدة — من القلائل ، بعد الاستاذ اده ، الذين ظلوا حتى الاخير امناء للفرنسيين اوفياء لهم ، اذ ان اكثر اصدقاء الفرنسيين غيرهم كانوا قد ادارو لهم ظهورهم ، واخذوا يشمتون بهم ويفتشون عن اسياد غيرهم لهم !

... تماما كما نرى اليوم اكثر الذين عاشوا تحت شمس الرئيس السابق بشاره الخوري ، هم الان الاكثر ابتعادا عنه من غيرهم ، واكثر تهجما عليه من خصومه ، يحاولون التقرب والاستظلال تحت رداء الرئيس الجديد .

وكان الشيخ توفيق عواد قد لعب دورا كبيرا في حياة خير الدين الاحدب السياسية ، ولعب دورا كبيرا ايضا في حياة البطريرك عريضة السياسية والمالية معا ، وهو الوحيد في هذا الشرق الذي استطاع بالحظوة التي كانت له عند غبطته ، ان يعمل مال الكنيسة مالا له ، وجعل مئات الوف البطريركية راسمالا لمتاجراته الخطرة ، التي انتهت نهاية افلاسية سيئة جدا !

امام هذه الاوضاع ، ترك اميل اده رئاسة الجمهورية في نيسان سنة ١٩٤١ .

وكان على الفرنسيين بعد ان ترك اده الرئاسة ان يجدوا خلفا له .. كيف واين ؟

طبعا لم يفتكروا مطلقا ببشاره الخوري .

وكيف يفعلون والرجل اصبح معروفا عندهم — كما كان شامبار يقوله لنا — بمثابة عين « الدوننغ ستريت رقم ١٠ » في لبنان .

ولم يكن بالامكان استدعاء الاستاذ اميل اده عن جديد ، بالرغم عن تصريحات الفرنسيين المتوالية التي كانت تقول في كل مناسبة ان اميل اده الصديق الوفي الامين والاقوى لفرنسا في هذه البلاد .

واخذوا يستعرضون اسماء غير هؤلاء من كبار السياسيين ، لعلهم ينتقون منهم الرجل الذي يمكنه ان يكون اولا للفرنسيين ، ثم يستطيع ان يرضي العدد الاكبر من الناس في وقت اصبح رضى الناس عنهم ضروريا جدا ، اذ انهم يحكمون عندنا بلادا غريبة ، بينما العدو يحكم بلادهم !

كما وانه كان من الواجب ايضا ان يكون الرجل الذي يفتشون عنه ليس له حزبية معروفة ، تجعل خصومه يخلقون له المشاكل والمشاغب اذ ان في ذلك الوضع الحرج الذي كانت فرنسا والبلاد اللبنانية فيه ، لا يجوز فتح المجال الحزبيات المحلية والمشاغبات السياسية تتصارع وتتذابح وتخلق الفوضى وتعبث بالامن .

لهذا كان الفرنسيون يترددون في الانتقاء . وقد افتكروا بكثيرين، وقلبوا الحكاية على وجوه عديدة ، حتى انهم افتكروا برئيس لا باس اذا كان لغير ماروني ...

افتكروا بسليم تقلا . ولكن سليم تقلا كان يد بشاره الخوري اليمنى، وكان من الصعب عليه ان يطلق حزبيته الدستورية . وكانوا يعتقدون انه مع كل تعهداته التي قدمها لهم، لن يخفي شيئا عن بشاره الخوري اذا صار رئيسا ، ويكون ضمنا مربوطا به يعمل سياسته.

وافتكروا بابي شهلا بعد ان استامنوا منه انه لن يكون لا لاده ولا لبشارة الخوري . وكان عطوفته قد اعطاهم كما هو معروف فيه ، جميع التعهدات والضمانات عن ذلك ، ويومئذ اقال بشاره الخوري عندما عرف بالمفاوضات القائمة بين الفرنسيين وبين حبيب ابو شهلا :

ــ قد يفعلون جيدا ، اذ ان الصديق حبيب هو الوحيد اليوم في حذاقته « الميكافالية » ، الذي يستطيع ان يوفق بين سياسة التمسك بالبقاء التي للفرنسيين ، وسياسة الجلاء التي تدفع انكلترا بالوطنيين اللبنانيين الى اتباعها .

ولكن رئاسة ابي شهلا لم تتم ايضا ، مع انها كان بامكانها ان تكون رئاسة جميلة ظريفة تعجب الناس،حتى انها اذا اخطات اغتفروا لها زلاتها ، كما يغتفر العشاق للحسناء زلاتها ايضا ، اذ يكون جمالها شفيعا لها !

وليس هناك من شيء يميز حبيب ابو شهلا عن المراة الحسناء سوى ذلك الفارق الطبيعي المعروف . واما من جميع الجهات الباقية فهو يشبهها تماما في اهوائه وحيله وتقلباته وتبديل قمصانه وجواربه ويفعل ذلك بنباهة وذكاء ، تجعل كل شيء يعمله ذا رداء جميل .

وقيل يومئذ بصدد التوجيه نحو رئاسة ابي شهلا ان البطريركية المارونية احتجت ، وان الاستاذ اميل اده صديق الفرنسيين الدائم ، وصديق ابي شهلا ايام الرئاسة ، ولم يكن يعتبر ان ارثوذكسيا فى البلاد من بعد الدباس ، يمكنه ان يبقى مع فرنسا الى النهاية ، لا سيما وابو شهلا كان قد اقترن — كما كان منتظرا منه ان يفعل كرجل سياسي بعيد البصر ، يرعي الظروف ويماشيها — بسياسة التعاون العربي الوسيع وهي السياسة التي نبغ حضرته فيها بعد ذلك فى ايام الاستقلال ، واصبح من قوادها الاولين .

قلنا ان الفرنسيين اكانوا تكلموا ايضا عن الامير خليل ابي اللمع ، ولكن حكاية زراعة الصوف المنسوبة اليه كانت من الاسباب العديدة والرئيسية لابعاده !

ولولا القليل ، لجاء الفرنسيون يومئذ فى حيرتهم بتوفيق عواد للرئاسة ، ولكن ايضا حكاية تلك المئات الالوف التي كان البطريرك يطالبه فيها ، بعد ان كان ابنه البار والوسيط الامين بينه وبين الفرنسيين . وقد كان هؤلاء يستخدمونه فى كل مرة يريدون من البطريرك شيئا ، مما كان توفيق عواد يقضيه لهم مهما كان صعبا وعسيرا !

ولكن جميع هذه الفضائح لم تمنع ان الشيخ توفيق عواد ان يأتي بعد ذلك فى عهد حاكمية ايوب ثابت الموقتة سكرتيرا للدولة ، يقوم بوظيفة وزير الخارجية ، حيث ذهب فى سياسته الودية مع فرنسا والعدائية مع غيرها ، امدا وسيعا ، جعل جميع دول الارض خصوما لنا !

وتوجهت الانظار لوقت ما الى الاستاذ العلامة المؤرخ المعروف جواد بولس الذي كان الفرنسيون يجدون فيه كل المزايا التي يطلبونها للرئاسة ، صداقته مع المفوضية ، مكانته المارونية القصية فى زغرتا ادبه الحليم فى اللغة الفرنسية ، عدم تحزبه المحلي ، ولكن كان هناك حميد بك افرنجيه عقبة كؤودة ، لا يرض بوجيه من زغرتا يتقدم عليه ، وكان الفرنسيون يخشون حميد افرنجيه ولا يريدون اغضابه ، بل يعملون دوما لاكتسابه .

***

واخيرا وصل المطاف فى تفتيش الفرنسيين عن رئيس جديد الى الاستاذ الفرد النقاش ...

وللحقيقة ، لم يكن في البلاد يومئذ مثل هذا الرجل الكبير بين الموارنة حياديا لا حزبية له ، والوحيد بين كبار رجالات هذه البلاد الذي انقذ نفسه خلال العشر سنوات التي كانت قد مضت حينئذ على حياته السياسية من الانحياز لاحدي الجبهتين ، اللتين كانتا قد شقتا البلاد الى شقين : جبهة اده وجبهة بشاره الخوري .

والنقاش قضى حياته في القضاء نزيها ابيض الصفحات ، وجاء الفرنسيون به للرئاسة في ايار ١٩٤١ ، صديقا لفرنسا ، ولكن غير مؤمن لدرجة ايمان الاستاذ اده في بقائها قوية وجبارة ، تستطيع ايضا أن تفرض الى النهاية انتدابها علينا ، وانها في هذه الحرب تبقى سالمة ، ليس بمستعمراتها وبيلاد الشرق المنتدبة عليها فقط ، بل ايضا ببلادها !

لهذا تسنم النقاش الرئاسة من هنا ، واخذ يعمل سياسة لبنانية محضة حالا ، بمعزل عن كل نزعة سياسية اجنبية . وكان يفعل ذلك ، واضعا امام عينيه ان الفرنسيين لا يزالون في البلاد ، وانهم هم الذين عينوه للرئاسة . على هذا يجب عليه ان ايداري مصالحهم ، وان يحاول بكل الطرق لتوفيق بين مصالحهم وبين المصالح الوطنية ، وايضا بين بقائهم وبين ازدياد الروح الاستقلالية عند « الناسيونالت » اللبنانيين كل يوم اكثر من اليوم الذي قبله !

وكان الانشقاق العام القائم بفرنسا بين الفيشيين والديغوليين قد وصل لهذه البلاد، فانشق الفرنسيون هنا على انفسهم ... ايضا

وهكذا ، بعد ان كانت المفوضية السامية تهتم سياسيا بايجاد اصدقاء بين الاهلين ، وبرد غائلة « الناسيونالست» اللبنانيين لعرب عنها اخذت ايضا تهتم وبنوع خاص ، بعدم وصول الفرنسيين انفسهم هنا الى التشابك والتذابح !

وكان قد ظهر ديغول وجيوشه في صحراء ليبيا ، ومقره العام بلندن ، وعماله في فلسطين على الحدود اللبنانية .

وهذا ما جعل بالاحرى وبطريقة خاصة ، الرئيس الجديد الاستاذ نقاش يعمل في البلاد سياسة لبنانية ، تفترض ان عليها وصاية

فرنسية فقط ، لا فيشية ولا دي غولية ، مما كان في غاية الحكمة ومما جعله لا يتورط مع الفيشيين مطلقا عندما قامت الحرب بينهم وبين الحلفاء واخذ الاستاذ نقاش يعمل في البلاد سياسة لبنانية ، تفترض ان عليها وصاية الحلفاء باجمعهم . وكان موقفه جريئا جدا عندما اخذ الانكليز يضربون بيروت جوا وجنود فيشي فيها تقابلهم بالمثل برا ، فتقدم حضرته بمذكرته الشجاعة المعروفة ، التي لم يكن احد ينتظر ان تصدر عنه ، والتي غامر فيها بحياته، وتعرض من ورائها بحبل المشنقة وقد طالب في هذه المذكرة ان يعلن الفرنسيون بيروت مدينة مفتوحة وان لبنان لا شأن له بالحرب الواقعة في اراضيه ، وانه لا يأخذ جانب احد من الجانبين .

واخذ الناس عندما عرفوا بهذه المذكرة ينتظرون في كل دقيقة من الجنرال دنز القائد العام والمفوض السامي الشديد العنيد ، القبض على النقاش واحالته للمحاكم العسكرية الفرنسية ، او على الاقل فصله من الرئاسة واعتقاله .

ولكننا كنا مفشوشين كثيرا بحقيقة هذا الرجل، الجنرال دانز الذي كنا نحسبه ظالما غدارا ، فاذا به يثبت في هذه المناسبة نبالة واخلاص القائد الصادق ، الذي يحترم حريات وحقوق الغير ولو كان في ذلك الاعتداء على حقوقه كقائد عام وكحاكم مطلق في هذه البلاد .

وهو على هذا الاساس استكبر بالرئيس نقاش هذه الجراة ، وضرب باقوال مستشاريه السياسيين والعسكريين عرض الحائط . وقد كانوا اخذوا يطالبونه براس النقاش ، واكتفى فقط بان اظهر غضبه عليه وامتنع عن الجواب على المذكرة .

***

قلنا ، كان بشاره الخوري وصحبه يعرفون ، قبل ذلك بوقت طويل ما كان يتدبره الانكليز من مهاجمة سوريا ولبنان ، لهذا راينا هم يتوارون عن الميدان السياسي خلال الاسابيع العديدة التي سبقت هجوم الحلفاء على الجنوب اللبناني والحدود السورية في حزيران ١٩٤١ ، فجاز عند الملاحظين عندئذ الاعتبار ان هناك حلقة مفقودة في نشاط بشاره الخوري الخوري اثناء اعتزاله السياسي القصير الامد جدا وستر وجهه – الذي

كان قد غطاه بقناعه المعروف الظروف القاهرة وذلك اوقت ما .

وحالا عندما انتهت الحرب باحتلال الحلفاء البلاد ، كشف بشاره الخوري عن جبينه ، ورفع قناعه المذكور ونزل مع صحبه الى الميدان السياسى يساندهم فى ابداية ولكن بطريقة كتومة ــ الانكليز الى النهاية وعلى طول، والدي غوليون لوقت قصير ، اي الى اوقت الذي تباورت فيه سياسة بشاره الخورى وصحبه الاستقلالية اناجزة ومطالبتهم الصريحة باخراج فرنسا من هذه ابلاد .

- ٤٩ -

السياسة السعودية تظهر فى لبنان

لقد قاربنا من نهاية هذا الكتاب الاول ، ولم نخش ان يتعب الناس من قرائتنا ، اذ اننا نجيء على ذكر الاحداث والحوادث بطريقة مقتضبة ولطيفة وجذابة يجب ان تكون جعلتهم يستزيدوننا من مثل هذه المذكرات .

وقد حاولنا ان نضع فى هذا الحديث الكثير من ذكرياتنا السياسية الشجية الطريفة المستغربة عن ايام الانتداب منذ سنة ١٩١٨ ، الى اليوم الذي قصفت فيه طيارات الانكليز بقنابلها العاصمة اللبنانية ، معلنة باسم فرنسا الديغولية استقلال سوريا ولبنان ، وانتهاء الانتداب الفرنسي فيه مما جعلنا نقيم تظاهرات خطابية ومهرجانية بالاستقلال ، وللتحالف مع العراق الدولة العربية القوية التي هبت يومئذ بنوع خاص لمساعدة لبنان فى حركته التحريرية . وقد كانت بوادر نهضتنا الاستقلالية بدات تظهر بدون خوف ولا وجل متحدية بشجاعة الفرنسيين الحاكمين بالبلاد حكما عسكريا .

وطبعا وجدت السياسة السعودية التي كانت على تزاحم متتابع مع العراق ان تكون حاضرة ايضا ببيروت لئلا تنفرد السياسة العراقية فى النهضة التحريرية القائمة بلبنان ، والتي اخذت جميع الظواهر تقول بفوزها القريب جدا ، لا سيما وهي قد تخلق للعراق اتصالا سياسيا مع لبنان مما يخالف سياسة ابن السعود الاساسية ، التى اشتغلت دوما لمنع كل تقارب بين العراقيين والسوريين والاردنيين دون اتصالهم ووحدتهم ، وعلى الاخص اتصال ووحدة لبنان معهم .

واخذت السياسة السعودية تشتغل لكسب الزعماء ببيروت ، وذلك على منوال ما كانت العراق قد فعلته واكثر ، واخذ الامراء السعوديون لاول مرة ينزلون فى هذه البلاد ويحضرون مهرجاناتها السياسية ويظهرون من ضروب السخاء ، ما يكون يوما ثروة كبرى للبنان .

ولا شك انه كان من الطبيعي ، طالما ان خصوم الاستاذ اده كانوا قد اتخذوا القنصلية العراقية ببيروت محجة لهم وملتقى لوطنيتهم وحركتهم التحريرية ، ان تكون السياسة السعودية صائبة الفكر، عارفة للواقع لما بدات سياستها الجديدة بلبنان فى محاولتها جعل الاستاذ اده يكون من زبائنها الاولين ، مما قد يتنافى مع نزعته نوعا ما نحو الانتداب ، ولكن مما لا يتنافى مع مبادئه السياسية اللبنانية الانعزالية ، اذ ان السياسة السعودية بطبيعة الحال تريد لبنان مستقلا استقلالا تاما عن سوريا والبلدان العربية الاخرى ، مما يتوافق مع سياستها العربية العامة فى محاربة كل اتحاد يقوم على حدودها، ويستطيع به خصومها الهاشميون او السوريون التوسع والزيادة فى القوة .

وجدت مفاوضة السعوديين فى البداية مع الاستاذ اده ترحابا وطبعا ـ وكما كان منتظرا ، خابر حضرته الفرنسيين بمايعرضه السعوديون عليه واقر هؤلاء الراى، وقالوا للاستاذ اده بوجوب الذهاب فى تلك المفاوضات مع السعوديين الى اقصى حد ، ولا سيما وهم يزيدون فى شقة التفرقة بين السعوديين وبين الهاشميين ، مما كانت فرنسا تشتغل له وتريده دوما خوفا على انتدابها فى سوريا ولبنان من وحدة عربية عسكرية وسياسية متحدة !

ولكن كان بشاره الخوري وكان رياض الصلح بالمرصاد يستكشفان الخفايا ، ولا تفوتهما بادرة . وكان من المستحيل او من الصعب جدا محاولة اغتياب هذين الرجلين ، وجعل مسعى كهذا يخفى عليهما ، لذلك اسرع كل منهما لوحده ـ اذ ان كلا منهما كان حتى ذلك الوقت يشتغل لنفسه ومنفردا ، وربما دون ان يكون يعرف ما يعمله الاخر .

قلنا ، اسرع كل منهما الى قطع السبيل على السعوديين والى استلامهم قبل ان يصلوا مع الاستاذ اده الى اي اتفاق .

وطبعا ، كان ولا بد بشارة الخورى ورياض الصلح ان يتلاقيا اخيرا فى سياستهما المتجانسة ، وفى هذا التلاقي بدا التعاون السياسي الخارجي بينهما فى البداية ، الى ان جاء الوقت الذي قام فيه ذلك الكامل التعاون المحلي ، الذي جعلهما يحكمان فى هذا البلد مدة ست سنوات ونيف ، ذلك الحكم الذي كان يحطم كل من كان يقف بوجهه تحطيما كاملا .

وفى ذلك التلاقي بالسياستين ، صار رياض الصلح وبشاره الخوري وصحبهما سعوديين اكثر من عراقيين !

وظل اميل اده مع فرنسا وحده .

وظلت فرنسا هنا لاميل اده وحده !

اذ يجب اقول ان السياسة العربية ، سعودية كانت أو عراقية ، التي ظهرت فى البلاد عندئذ ، بعد ان صبح الانتداب هزيلا لدرجة لا يستطيع الوقوف بوجهها ، وبعد ان صار للقنصل العراقي أو السعودي او المصري دولة وسلطة ضمن هذه الجمهورية . نعم هذه السياسة العربية ازعجت الانعزاليين فى اوساطهم واديرتهم واخذوا ينظرون الى كل ماروني يشتغل بالقضية العربية نظرتهم الى رجل يخرج عليهم وينفصل عنهم ، مما ادى هكذا الى فتح هوة سحيقة بين الاديين والاديرة التي تساندهم طبعا ، وبين بشاره الخوري وجماعة الستوريين ، العاملين على مد جسر بين لبنان وبين العرب ــ انما ليكون جسرا فقط ، لا قواعد متينة له ، يمكن هدمه عند الحاجة بمجرد اي اصطدام !

- ٥٠ -

عندما تساوى السلاح بين البطلين

فى ذلك الوقت ، وقد خرج اده من الرئاسة ، وعاد الى الحياة العادية ، اعتبر الناس ان السلاح تساوى بينه وبين الشيخ بشاره الخوري ، فلم يعد اده يسيطر على السراي وموظفيها وجنودها ، ويستخدمهم بوجه خصمه .

ولكن الشيخ بشاره الخوري كان من جهة اخرى قد اخذ يزداد قوة وحصانة ، بقدر ما كان يزداد حزبه عددا ، وبقدر ما اخذ المليونيرون يزدادون ايضا حوله وهم الذين كانوا قد راهنوا عليه ، وربطوا مصيرهم بمصيره .

فانما هنا يجب ان ناتي للقراء بهذه الملاحظة الحقة الصادقة ونقول بصراحة ان عددا من كبار رجال المال والاعمال الذين كانوا يختلطون بالحياة العامة وهم مضطرون الى ذلك بسبب ارتباط اعمالهم نوعا ما بالحكومة وهم يطمعون فى مضاعفة ثرواتهم ، احاطوا ببشارة الخورى ، الشمس الطالعة احاطة السوار بالمعصم ، وجعلوه بمثابة فرس رهان ، يقامرون عليها متوخيين فوزها والربح الكثير من وراء نفوذها وقوتها .

وكان عدا عن بنك فرعون وشيحا ، جماعة الكتانيين والشقيريين والفتال وغيرهم ، قد كبروا جدا فى الاعمال ، وسيطروا عليها فى البلد ، وكانت مواثيق اخرى ايضا اجتماعية وعائلية وحزبية اخذت تربط بعضهم ببشاره الخوري ، مما خلق له هكذا قوة من رجال الاعمال والمال يمكن عن طريق تاييدها له ان توصله الى اشياء كثيرة جميلة وعالية .

وكان على الاخص الشيخ فؤاد الخوري قد سجل لنفسه صفحة كبيرة فى عالم الاشغال ، فصار من اقطابها الاولين . يشرف على اكبر محلات بيع مواد البناء فى البلاد واصبح ايضا مساهما محترما فى

شركة ترابة شكا .

وكان عدا عن محبته الاخوية ، معجبا جدا بشقيقه الشيخ بشارة الخوري ، يقدره قدره ، فكان من الطبيعي ان يضع تحت امرته كل الاموال التي يحتاجها لحياته السياسية وذلك بيد مبسوطة .

فانما عندما ظهر بشاره الخوري في الميدان السياسي لم يكن ينقصه غير السعة ، كيما تمتد سيطرته ويقوى شأنه ، اذ ان الله كان قد حباه بنباهة كبرى وقوة عارضة ممتازة وسعة اطلاع وحنكة ، وتراه بعد ذلك يجد يومذاك هؤلاء المليونيريين بجانبه ، قريبين جدا منه ، كما وانه من جانب اخر وجد وراء نفوذه السياسي الشركات والمصارف والبيوتات التجارية الكبرى المعروفة ، تتخذه وكيلا محاميا عنها ، ومنها بنوع خاص وكبير بنك مصر وسوريا ولبنان ، وشركة ترابة شيكا ، وهي شركة كان له ولشقيقه بطريقة معلومة اولية الفضل الاكبر في انقاذها من أيدي اليهود الذين كانوا قد وضعوا عليها « أوبسيون » ، اي نوعا من الافضلية لهم في شرائها ، وذلك عندما اراد البطريرك بيعها وقت اشتداد الازمة فيها ورزحت تحت اثقال الديون ، وكادت تعلن افلاسها .

ولكن كان في ذلك الزمان رجل اعمال اتصف بالبصيرة الوقادة والخبرة التجارية الكاملة ، والوطنية الوديعة الساكتة ، كان هناك درويش الحداد الذي اسرع لتدبير هيئة مالية سويسرية كبرى تخصصت باستثمار شركات الترابة في العالم ، واخذت صيتا عاليا في الاستقامة وجميل المعاملة فجاء بها درويش الحداد الى لبنان تشتري شركة شيكا عن طريق الشيخ بشاره الخوري كوكيل محام ، وعن طريق الشيخ فؤاد الخوري كاحد المساهمين بمحلات درويش الحداد .

وتكاتف الثلاثة الكبار وتضامنوا ، وظلوا على البطريركية يظهرون لها الاضرار التي تنزل بالبلاد اذا تنازلت عن شركة الترابة لليهود ، وجعلوا من جانب اخر الهيئة السويسرية تتقدم لغبطته بعروض موافقة جدا مما جعل البطريرك يترك اليهود ويبيع السويسريين !

وكانت يومذاك بداية حرب بشاره الخوري لليهود والصهيونية وهي السياسة التي تابعها بعد ذلك بكل ايمان وبشدة وعنف . وكان ايضا شراء شركة شكا السويسرية ، فاتحة ازدهار البناء في لبنان

لدرجة متناهية ، اذ لولا ترابة شكا لما كانت هذه النهضة الكبرى التى جعلت عدد البنايات والمساكن فى هذه البلاد يتضاعف . وكنا نريد ان نتكلم باسهاب عن هذه الشركة وذلك لانها كانت نقطة الانطلاق فى الحملات والتهجمات التى قامت على بشارة الخورى ، من جانب خصومه وقد جعلوها العلام الذى يرمونه بسهامهم مثيرين فضائح اكثرها كاذبة حول حماية مزعومة يفرضها بشاره الخوري على تلك الشركة ، مما كان ملفقا ومختلفا ومما كذبته الايام ، اذ انه لم يات وقت من الاوقات جعلت فيه الدولة استيراد الترابة الاجنبية ممنوعا او انها وضعت عليه رسوما جمركية كبيرة كيما لا يعود الناس يستوردونه وكيما يخلو الجو لترابة شكا تتحكم بالبلاد ، ويمكن بالمناسبة القول ان جميع الحملات التي قامت على الشركة كان المقصود منها بالاكثر النيل من بشاره الخوري اذ انها كانت نقطة حساسة فى حياته السياسية .

***

وقد اردنا هنا ان نثبت ان بشاره الخوري واخاه قد استطاعا عن طريق درويش الحداد ، الذي زوج حينذاك ابنته الكاملة الحشمة والشرف والوريثة الكبرى الى الشيخ فؤاد الخوري ـ اردنا ان نثبت بالوقائع التاريخية ، ان هؤلاء الثلاثة الكبار انقذوا شركة شكا من اليهود مما يجب ن يعرفه الناس ، ومما هو خدعة وطنية عظيمة كبرى ثم وضعوا الشركة بيد هيئة سويسرية ما راينا منها غير الحسن وجميل الاستعداد لخدمة البلد ، وقد تفردت هذه الشركة خصوصا بمعاملة عمالها بطريقة جعلت هؤلاء يضمنون لانفسهم السكن والغذاء والكساء على افضل سبيل ووجه .

***

ولكن لنعود الى ما كنا نريد قوله سابقا .

قلنا ان بشاره الخوري وجد نفسه قبل اشهر من بداية الحرب الاخيرة قد مشى شوطا بعيدا فى عالم السياسة ، يجعله ينظر الى رئاسة الجمهورية نظرة الرجل الذي سياتي دوره اليها قريبا .

وهذا الاعتداد بالنفس دفع به الى الامام كثيرا ، بعد ان خلق له جمهرة من اهل السياسة واهل الكمال والاعمال كقاعدة سياسية مادية

قوية جدا يرتكز عليها ، وقد كان بحاجة لها ويتمناها في وقت فتحت ابواب السياسة ذراعيها لاحتضانه ، ولما كان يدعوه لان يكرس عقله وقلبه لها ولكنه في الضائقة المالية التي كان يعانيها أولا لم يكن يستطيع ان يصرف جميع جهوده لذلك الهدف ، حتى جاء هؤلاء المضاربون المراهنون عليه ، فامن نوعا اخطار تلك الضائقة ، واخذ يخرج من الحذر الذي كان يساوره ، وحمل شجاعته بكلتي يديه ، ونادى : الى الحرب !

وكان بشاره الخوري قد مشى بعيدا في سياسته العربية على اساس ان يكون لبنان مستقلا ، ولكن متعاونا الى اقصى حد مع العرب ، مما لم يكن الفرنسيون واللبنانيون المتمشون على سياسة الانتداب يقولونه او يريدون استماعه .

وهذا القول لبشاره الخوري – ولربما كان نوعا من الاساليب السياسية التي اعتاد عليها لاكتساب الانصار – هو الذي جعل المسلمين تقريبا في كل مكان يحبذونه ويصبحون قريبين منه ، ويريدون تأييده .

وكان رياض الصلح يقول :

– «انا لست متعصبا ، ولكن اذا كان لنا ان نتحالف مع الموارنة ، فالتحالف مع بشاره الخوري فيه شيء من خدمة العروبة والاسلام .»

ومع ذلك لم يكن رياض الصلح قد تحالف حتى ذلك اليوم مع بشاره وليست فقط تظاهرات الشيخ بشاره الخوري للعروبة ، وقوله بالتعاون اللبناني العربي الواسع – ليس هذا فقط جعل المسلمين – يحبذونه ويريدون مماشاته ؛ بل ايضا كانت هناك ميزات استحبها المسلمون فيه وجعلته قريبا منهم .

كان بشاره الخوري يخطب ويتكلم العربية ببلاغة ممتازة ، ويستشهد بالشعر وباقوال كبار الكتاب ، ويحفظ آيات القرآن بفصاحة كبرى ، ولم يكن متفرنجا شأن الاستاذ ميل اده ، الذي كان كل شيء فيه وفي حديثه دوما يجعل الناس يعتبرونه باريسيا محضا !

هذه الاشياء لها وزن كبير عند المسلمين وقد جعلتهم معجبين بالشيخ بشاره الخوري ، يتاسفون علنا انه ليس مسلما ، ولم يكن خصمه يعرف العربي الا القليل جدا ، ولم يكن حافظا للايات الكريمة ولا للحديث

الشريف ، مما كان لحفظها ولترديدها عند بشاره الخوري شأن سياسي اسلامي كبير .

وهكذا اصبح بشاره الخوري بنظر الفرنسيين بعد ظهوره بمظهر الاستقلالي اللبناني العربي ، رجلا عاصيا متمردا على تقاليد الام الحنون.

***

قلنا ، كان رياض الصلح من النواحي الوطنية والعربية يقول ما يقوله بشاره الخوري تماما ، مما كان يجب ان يدعوه للتحالف معه ، وللابتعاد عن خصمه ، ومع ذلك لم يكن قد فعل لشيء حتى ذلك الحين بل كان بالاحرى صديق الاستاذ اده ،دون أن يشاركه بارائه السياسية الانعزالية .

وعندما سئل رياض الصلح بعد الجلاء ، عقيب ان تحالف ذلك التحالف القوي المتين مع بشاره الخوري ـ عندما سئل لماذا كان يتباعد عنه فى الوقت الذي كان فيه يشتغل بشاره الخوري للاستقلال وللتعاون مع العرب ، واجلاء الاجنبي ، وهي الاشياء التي كان رياض الصلح يجاهد لاجلها ، قال بظرفه المشهور ومجونه السياسي المفاجيء :

ـ كيف استطيع اقناع اده بأن ينحاز الى مبادئنا ، لو تظاهرت بالتعاون مع بشاره الخوري ، وكل منهما لا يقول قول الاخر ، مهما كان القول منصفا وعادلا ؟ واية طريق مشى عليها اده ولم يمش بشاره الخوري بطريق غيرها ؟ فهما يتعاكسان دوما فى كل الاشياء حتى انه لو كان بشاره الخوري مع الفرنسيين لكان اده ـ لربما ـ اخذ مكانه مع العرب .

فانما اده والخوري اختلفا على كل شيء واتفقا على شيء واحد : وهو اشتغال كل منهما لاقصاء وابعاد الاخر عن كرسي الرئاسة !

- ٥١ -

برافو كومندنتي

راينا فى تلك الايام ، بعد ان عقد الفرنسيون الهدنة مع دول المحور سلسلة لا عداد لها من كبار رجالات هذه البلاد اشجعان الصريحين فى المناسبة، يصطفون ساعات طويلة على مقاعد لوكندة « المتروبول » ببيروت ، وكانت قد استرجعت بعد انتصار الالمان وانحلال دولة الانتداب ـ اسمها ـ الالماني القديم : « دويتشرهوف » اي اللوكندة الجرمانية ، وهو اسم كانت هذه اللوكندة خلال الاربعين سنة الاخيرة تضعه على الرف فى المرات العديدة التي كان الالمان يفشلون فيها فى حروبهم او سياستهم ، ثم تعود تضعه فى الواجهة فى كل مرة كان الالمان يستظهرون فيها .

قلنا ، راينا ذوات البلاد يصطفون هناك بعد هدنة فرنسا مع هتلر والطليان ينتظر كل منهم دورة ليقابل السفير الالماني ، فون هنتش مبعوث هتلر السامي الى هذه البلاد يستقبلهم على باب قاعة الانتظار صديقنا القديم ، المرحوم الهر رولاند ايلندر الملقب بابي علي (وقد مات سنة ١٩٤٨) وكان اهالي بيروت والجبال يعرفونه قبل ذلك تاجراً المانيا وديعا لطيف المعشر ، حسن المعاملة ، قريب للاهلين لدرجة انه ازوج ابنتيه لمواطنين كريمين احدهما الصحفي المعروف الاستاذ عفيف الطيبي .

وكان محبوبا من الناس، وذلك من جراء تصادقه مع الاهلين ومعرفته لغة البلاد ، وتقربه لقضايات المسلمين الذين كان له بينهم اصدقاء عديدون. وهم الذين اطلقوا عليه لقب ابي علي تحببا وملاطفة .

وفجاة عندما وصل الالمان لباريس ، وعقدوا الهدنة يطبقونها فى كل امكان فيه جندي افرنسي ، وطبعا فى سوريا ولبنان ، ظهر ابو علي على المسرح كضابط اتصال بين السلطات الالمانية وذوات البلاد فى سوريا ولبنان وكحارس لراس السفير الالماني وقائد لحرسه الخاص العلني والسري .

واخذ ابو علي يحكم بامره ويستطيع لو شاء ان يرسل للحبس والمشنقة أيهم يريد من الرجال . ولكن صداقته مع الناس جعلته ينقذ الكثيرين من الحبس والاعتقال ممن كان الالمان يشتبهون بهم .

ولا نرى هنا موجبا أن نذكر اسماء ، ليس الناس العاديين، بل ايضا الابطال الوطنيين الذين كنا نراهم قد اخذوا يحيطون بابي علي بذلة وتصاغر طالبين وساطته ورضاه ، مكتفين بابتسامة منه خاطبين وده ، يسمعون لاحاديثه الفكهة باحترام واعتبار ، ولا سيما وقد كان بينهم بنوع خاص اولئك الذين كانوا قبل الهدنة ينادون بسقوط المانيا وهتلر.

كانت الحال هكذا مع ابي علي ، فكيف مع فون هنتش سفير هتلر الذي كان ابو علي يحرس راسه لا يدخل احد عليه الا بامره وبموافقته.

ولم يكن يتراكض الى فون هنتش فقط اصحاب الشجاعة اولئك الذين كنا نشاهدهم في وضح النهار يصطفون بلوكندة « دويتشر هوف » برعاية ومراقبة الهر ايلندر ، بل ايضا كنا نرى بعض كبار الزعماء اللبنانيين الذين كانوا يفضلون التستر ، لربما عن خوف وحذر ، حاسبين حساب المفاجآت التي قد تجيء - يأتون السفير الالماني في ظلام الليل ، يفاوضون ويؤيدون ويؤكدون ولائهم الفهرر ، واكثرهم مخلص بقوله وتاكيده ، وعلى الاخص المسلمون منهم .

وكان هناك ايضا زعماء وسياسيون ومطارين موارنة ممن عرفناهم قبل ذلك متشيعين متعصبين للانكليز والفرنسيين ، يذهبون للسفير الالماني يقيدون اسماءهم عنده في سجل الموالين للنازية وهتلر ، وقد كان فون هنتش المندوب فوق العادة ، جاء الى هذه البلاد بعد أن مهد له الطريق الممثل الالماني الاقتصادي الهر روزر ، الذي كانت برلين عينته بعد الهدنة قنصلا عاما لالمانيا عندنا .

وبعد مضي بضعة اسابيع على وصول فون هنتش الى هذه البلاد، اكمل الاتصال بالشخصيات العربية والهيئات السياسية الوطنية ، ورجال الدين المسلمين ، وكان على الاخص يتتبع بانتباه كبير اعمال المفوضية العراقية في هذه البلاد ، ومهمته الاساسية مراقبة اهواء العراق وانتقاضه على الانكليز ، وتدبير الثورة فيه على هؤلاء الاخيرين . وكان على فون هنتش مهمة كبرى في تدبير الثورة التي

قامت بعدذلك على الانكليز بالعراق فى ايام رشيد عالي الكيلاني .

وكانت هذه المهمة دقيقة جدا تدبرها فون هنتش ببراعة مدهشة وكان عليه ايضا القيام بمهمة تكذيب الدعاية التي اخذت تقوم بهـا ـ على مدى واسع ـ لجنة الهدنة الطليانية التي جاءت بيروت قبل ذلك وكانت قد وصلت الاخبار لبرلين ان تلك اللجنة الايطالية العسكرية التي كانت مهمتها الرسمية تطبيق شروط الهدنة فى جيش الشرقالفرنسي ونزلت فى لوكندة النورماندي ولكنها ما كادت تستقر هناك حتى فتحت أبوابها تستقبل الناس من محبذين ومتوددين وملاحظين، واخذيهبط عليها من جبل لبنان رهابين الاديرة والصوامع ويجيئها من اقرى السحيقة والقريبة العدد الاوفر من النصارى ، يتظاهرون لها ويؤيدونها باعتبار ان رومـا مركز الكثلكة وعاصمة المسيحية ، وباعتبار ان ايطاليا المنتصرة هي بعـد فرنسا صديقة وحامية النصارى فى الشرق !

وكانت دعاية موسوليني فى هذه البلاد قبل الحرب عملت الكثير واخذت مكانة مرموقة ، واصبح كثيرون هنا يتغنون بما كانوا يرونه من عزها ، وللمجالي القوية التي كانت تظهر فيها بقوة ايطاليا وجبروتهـا حتى ان عددا كبيرا من زبائن فرنسا اداروا وجوههم نحوها !

قلنا ، وصلت الاخبار الى برلين ان اللجنة الايطالية لتطبيق الهدنة تقوم عند الناس ـ وعلى الاخص عند الموارنة ورهابينهم ـ بدعوة كبرى لتحبيذ انتداب ايطالي بلبنان ، يخلف الانتداب الفرنسي ، تطبيقـا لشعار موسوليني المشهور ، وهو الشعار الذي كان قد وضعه قـاعـدة لسياسته الاستعمارية على ضفاف البحر المتوسط عامة ، والقائل : «البحر المتوسط لنا » .

واخـذ الدعاة يفدون على النورمندي ، وباجمعهم من المسيحيين، ولـم نلاحظ اننا شاهدنـا مسلما أو درزيا واحـدا دخـل تلـك اللوكندة يومئذ وقابل او اظهر رغبته بمقابلة القومسيون الطليانـي ، بل كنا نرى ان المسلمين والدروز يتحاشون حتى الدخول للنورمندي مع انه فندق عام يدخله جميع الناس !

واخذ السفير الالماني منذ ساعة وصوله وبعد ان فتح بابه علـى مصراعيه ، يدحض بطرق عديدة الدعاية الايطالية ، بعبارات صاخبة

يزدري فيها بتلك الدعاية ، دون ان يداري خاطر القومسيون الايطالـــي ولا عواطف الطليان !

واخذ يؤكد لجميع زائريه ان الفوهرر يريد استقلالا كاملا قاطعـا للدول العربية ، لا انتداب ولا حماية فيه ، وان الدعاية الايطالية ولو كانت اتية من هيئة رسمية حليفة لالمانيا فالفوهرر لا يقرها ولا يرضى بها .

وقيل يومئذ حول هذا اشياء كثيرة لها شانها وقد يكون من الواجب ذكرها ، مع الاستناد على وثائق مصلحة الاستخبارات الفرنسيـــة في صددهـــا .

قيل ان القومسيون الايطالي اتصل بالاستاذ اميل اده اتصـــالات عديدة ، واقترح عليه التعاون مع ايطاليا ، ففي حالة ذهاب فرنسا مـن البلاد تأخذ ايطاليا مكانها .

كنا نعرف هذه الاشياء من مكتب الاستعلامات الفرنسي ، الـــذي كان المسيو شامبار صديقنا الاكبر من اركانه ، وكثيرا ما كان يطلعنا على ما كان يصل اليه من اخبار هامة .

والمعلومات التي كانت عند ذلك المكتب بهذا الصدد تقول ايضا ان الاستاذ اميل اده قال للطليان انه في حالة ذهاب فرنسا من هذه البـلاد يريد لبنان مستقلا عن البلدان العربية ليس عليه انتداب ولا استعمار بل تكون له ضمانة دولية، بفضل ان تكون ضمانة ايطالية ، وليس المانية . فاهالي لبنان النصارى لا يقبلون بوجه من الوجوه اية حماية او نفـــوذ الماني في بلادهم .

وهنا نرجع الى التعاكس والتضادد بين الطائفتين الكبيرتين في البلاد فانما لو كان المسلمون اظهروا تعلقا وصداقة لايطاليا لاخذ النصـــارى مكانهم ولهتفوا في كل حين « هيل هتلر » .

وتقول تلك المعلومات كذلك الامر ، ان القومسيون الايطالي اتصـل بالواسطة مع بشاره الخوري ، وكان جواب هذا الاخير في دهائه السياسي ومعرفته التخلص من الموقف الحرجة قوله انه لا يمكنه ان يجيب على شيء في هذا المعنى، فهو مرتبط بحزب طويل عريض ، ولا يستطيع ان يتخـذ اي قرار الا بموافقة ذلك الحزب ، وليس بالامكان عرض مسالة مثـل

هذه علنا على هيئة اركان ذلك الحزب ، مما قد يتصل خبره بالالمان حتما فيغضبهم من جهة ، كما انه يغضب الفرنسيين من جهة ثانية ، وهم لا يزالون منتدبين وحكام البلاد ، وهذا مما يعرض رجال الحزب لاخطار كبيرة اقلها الارسال الى المعتقل .

لذلك هو سيعمل على جس نبض حزبه بطريقة كتومة ، وبعد ذلك يقول للقومسيون ما يكون الحزب قرره .

وكان السفير الالماني – تجاه القومسيون الايطالي صريحا كثيرا – اذ انه كان فى مقابلته لكبار الرجال فى هذه البلاد لا يتورع من تكذيب ادعاءات ودعاية القومسيون التي كانت تزعم ان البلاد تريد الحماية الايطالية . وكان فون هنتش يكذب هذا الزعم بطريقة قاسية ، مما جعل وجوده هنا يخفف كثيرا من نشاط الطليان ومن تردد الناس عليهم، وهذا ادى بحاشية القومسيون ، وفى راسها صديقنا الظريف السنيور بنتو القنصل ببيروت سابقا والملحق السياسي بالقومسيون، يساعده ايضا صديقنا المعروف الاستاذ الشيخ ادمون طوبيا الذي كان موضوع تقدير وثقة الطليان – قلنا وهذا جعل الحاشية تتجند لدعوة اصدقاء ايطاليا والالحاح على الناس بوجوب التردد على القومسيون ، كيما لا يقول الالمان انهم عندما يحضرون لا تبقى للطليان قيمة !

وكان قيل بهذا الصدد ان الطليان دفعوا كثيرا من المال هنا وهناك كيما يجعلوا الناس يتظاهرون لهم ، فيكذبون هكذا مزاعم فون هنتش . ولكن الدفع لم يكن صحيحا تماما ، ليس لان الطليان لم يكونوا مستعدين له، او ان ابائهم يجعلهم لا يعتمدون عليه بل لان موازنة القومسيون الهزيلة كانت وصلت الى اخر رمق عندما وصل السفير الالماني فلم تكن تسمح لهم بالتوسع والكرم وقد اتضح هذا الامر تماما عندما حاول صديقنا السنيور بنتو اقناع بعض الوجهاء بنادي بيروت بتأييد الدعاية الايطالية وكان يقول انه يستطيع مقابل ذلك منحهم صداقة ايطاليا الان ومساعدات مالية فيما بعد ، ولكن الناس فى هذه البلاد يلاحظون كثيرا فى متاجراتهم السياسية القول الواقعي المعروف الدارج القائل : « مال انبيض بالقبيض » .

واقسم لنا بنتو ذات مساء عندما كنا نعاتبه ونقول له ان المال وحده

يمكنه ان يساعد القومسيون فاكد انه لم يبق لدى ذلك المقومسيـــــون من الفلوس غير اجرة الطريق !

وكان رياض الصلح وسامي الصلح اللذان زارهما فون هنتش فى منزليهما حالا عند وصوله من اكثر المترددين عليه صراحة وجراة وذلـك عندما طلبا منه تسجيل العهود التي يقولها بلسان الفوهرر عن استقلال البلدان العربية فى مذكرة يحملانها لزعماء العرب ويعلنانها على الناس .

وقالت المعلومات الفرنسية الواصلة يومئذ للمسيو شامبـار ، ان السفير الالماني اكتفى بالجواب على هذا الطلب بقوله ان راديو برلين الذي يتكلم باسم الحكومة الالمانية يردد هذه العهود كل ليلة ، وهذا يجب ان يكفي ، كما وان الوعد الذي اذاعه للفوهرر فى تلك الاذاعة معلنا استقلال البلدان العربية يجب ان يحترمه العرب اكثر مما يفعلون .

وكان المسيو شامبار يقول ايضا ، ان السفـير الالماني عنـدما ودع رياض الصلح فى اليوم الذي اضطر فيه للعودة الى برلين قال له :

ـ يجب ان تعتزم اخيرا ونهائيا وتجلي موقفك ، فهـل انت معنا ام مع الانكليز ؟

وقيل ان رياض الصلح اجاب : انا نفسي لا اعرف هل انا مع الانكليز ام مع الالمان ، ولكنني من المؤكد ساكون مع الذين يحررون بـــلادي ، ويحترمون استقلالها ولو كانوا من اهل جهنم !

حاشية ـ امس فقط ، قبل صدور هذا الكتاب بايام فى بداية هذه السنة ١٩٥٢ مر السفير فون هنتش ببيروت آتيا من الشرق وذاهبا لبرلين ، ونزل ضيفا على صديقه الكبير زميلنا الاستاذ كامل مروه الذي قرأ له هـذا الفصل من كتابنا فقال له السفير عنا :

ـ هذا هو الرجل الوحيد الذي فهمني جيدا والذي عرف في ذلـك الحين المهمة السرية التي كنت قد جئت لاجلها الى هذه البلاد .

- ٥٢ -

الحاج غلبوم لايزال حيا

وطبعا ، كما هي التقاليد فى هذه البلاد ، عندما جاءت البعثتان لبيروت : الايطالية فى النورمندي ، والالمانية فى الدويتشرهوف ، كنا نرى السياسيين والزعماء النصارى جهاراً او سرا يتجهون نحو النورمندي ، ونرى بطبيعة الحال الزعماء والسياسيين المسلمين يتجهون للدويتشرهوف

وكما قلنا سابقا اذا كان بعض النصارى زار الدويتشرهوف فلم نر مسلما واحدا – يزور النورمندي !

ففي ذلك الوقت الحرج جدا ، كان من الواجب ايضا ان تلعب عندنا الطائفية دورها حتى فى الامور الدولية. وكان من الواجب ايضا ان يكون بين الطائفتين الكبيرتين ، ما كان بين بشاره الخوري واميل اده ، فان يرى الواحد منهما تماما عكس ما يراه الاخر !

وهنا لا يجب أن نتساءل كثيرا ماذا كان يومئذ موقف « الميكافييل » صديقنا حبيب ابو شهلا ، اذ اننا نذكر انه عند وصول البعثتين الى هذه البلاد استعاد ما كان يعرفه من اللغة الالمانية حالا واخذ يتحدث بها مع فون هنتش فى مقابلاته العديدة له .

كان ايضا يعرف «شوية» طلياني كما كان يقول ، ومع هذا كان يتردد بالاكثر على فون هنتش ، مع انه كان يشترك فى كل وليمة تقام على شرف الطليان !

وكان يقول لنا انه لا يفرق بين البعثتين اذ انه لا يريد ان يعمل للشقاق بين دولتي المحور العظيمتين !

وكانت المعلومات الفرنسية عند المسيو شامبار تقول ان الاستاذ ابو شهلا ، يزور الالمان ويختلط مع الطليان ، تنفيذا للخطة المرسومة ! واية خطة مرسومة ؟

فهل كان ابو شهلا منذ ذلك الزمان عاملا للحلفاء وعميلا لهم .

واما نحن شخصيا فلا شك اننا عملنا مثل غيرنا من اهل الفهم والظرافة ، ومن المؤمنين بانتصار الحلفاء النهائي مع كل ما كان يصيبهم في ذلك الوقت من انكسارات، وذهبنا مثل ابي شهلا نزور البعثتين ، اذ لماذا يجب ان تكون مع الواحدة وليس مع الاخرى ايضا ؟

ونذكر بالمناسبة اننا في مساء اليوم الذي زرنا فيه القومسيون الايطالي بطريقة علنية ، سألنا اهل نادي بيروت ، حيث كنا نقضي سهراتنا وكنا جئنا للنادي نتأبط ذراع صديقنا السنيور بنتو الذي كنا على ارتباط كبير معه ؟ قال لنا احد الاصدقاء الظرفاء :

ــ لا احد يعرف افضل منك ، فهل الطليان يدفعون ؟

وهكذا الروح التجارية في السياسة عندنا لا تغيب مطلقا .

ولم يكن يخطر على بال احد من اهالي هذه البلاد ان الطليان يقومون بدعاية لهم في لبنان الا وهناك اموال يدفعونها . وكان الناس في ايمانهم هذا غير ملامين ، اذ انهم كانوا قد اعتادوا على اموال الفرنسيين والانكليز كما وانهم كانوا لا يهابون الطليان مما جعلهم لا يؤمنون ان ايطاليا يمكن ان تعمل لها حزبا في هذه البلاد الا عن طريق المال .

قلنا اذ ان الناس كانوا قد اعتادوا على اموال الفرنسيين والانكليز عندما اخذ كل منهم يعمل دعاية لنفسه مرفوقة باكياس الذهب واقراطيس المالية .

فانما في هذه البلاد احترام المال واشتهاءه فطرة طبيعية

وكان من الادلة الاولية لمثل هذه الفطرة مداراة واحترام الثائرين على الفرنسيين في كل حركة وطنية قامت ضدهم وحتى في ثورة الاستقلال ــ للبنك ــ بنك سوريا ولبنان المؤسسة الفرنسية المالية ــ مع ان خصومها المعروفين كانوا يخلقون لها المتاعب ويروجون عن الشائعات المستغربة ومن شائعات تدخلها بالسياسة وتمويلها مرشحا معلوما لرئاسة الجمهورية ، في اخر عهد الانتداب ــ وكان قيل يومئذ انه حميد بك افرنجية ولكنه شيء ثبت كذبه بعد ذلك ،وقد كان البنك دوما يقف على حياد تام من امورنا السياسية مما كان يعرفه تماما زعماء ثورة الاستقلال سنة

١٩٤٣ ، فاستثنوا البنك عن كل حملاتهم على المؤسسات الفرنسية وعلى كل ما هو افرنسي .

وقد يكونون فعلوا ذلك خصوصا لمعرفتهم ان لولا البنك لما كانت هناك ضمانة للعملة اللبنانية،وبالطبع للعملة السورية ايضا .

ولكن لنرجع الى حديثنا السابق ..

وقال الناس تجاه دعاوة اللجنة الايطالية ان التاريخ يعيد نفسه ، وكما تزاحم الانكليز والفرنسيون فى اخر الحرب الاولى على هذه البلاد ودفع كل منهم الاموال لاكتساب الانصار ، هكذا يتزاحم الطليان والالمان هذه المرة . ولكن اعتقاد اكثرنا ، انه اذا كان الطليان — لربما يدفعون او يستطيعون عمليا الدفع — فالالمان عندهم من القوة والغطرسة واليد الحديدية والطابور الخامس ما يجعلهم يانفون عن دفع المال ، فضلا عن انهم دوما ما عرفوا ولا تعرفوا الى مثل هذه العادة .

وضحك اهل النادي كثيرا عندما قلنا لهم ، ان الطليان طبعا يريدون ان يدفعوا ولا يؤخرهم عن ذلك عدم وجود زبائن يقبضون ، بل قلة المال فقط .

والحق كانوا هكذا !

فالاخ موسوليني ارسل قومسيونه يعمل دعاية لحماية تفرضها ايطاليا على هذا المشرق المتاجر المستثمر المادي اندهري ، وظن انه يرض بها اهالي البلاد اعجابا به وبايطاليا !

وطبعا — كما قلنا — لم يصرف الالمان ماركا واحدا ، فانما الالمان كانوا مستعدين لفرض دعاوتهم فرضا وهي دعاوة كانت قد عملت عملها تماما ، واحتلت منذ زمن بعيد بنوع خاص ، وعن طريق غير طريق الخوف والرعبة ، مكانة كبرى عند المسلمين الذين لم ينسوا ولا مرة ان المانيا الملكية ، ثم القيصرية ، قبل المانيا الهتلرية بزمان وزمان كانت دوما تاخذ جانب الدولة العثمانية المسلمة فى حروب روسيا معها ، وظلت المانيا هكذا حتى ايامنا هذه ، كما وانها كانت دوما تاخذ جانب المسلمين فى قضاياهم الدولية ، وتعمل على اكتسابهم من جانبها .

وكان امبراطور المانيا الاخير ولهلم الثاني زار استنبول والكثير من

بلدان امبراطورية بني عثمان ، وبنوع خاص سوريا ولبنان ، وذهب من بيروت يحمل لقب الحاج غليوم ، وهو لقب أعطاه اياه اصدقاؤه قبضايات الميناء في ذلك الحين ، لما اظهره من صداقة للمسلمين وازيارته المساجد.

***

ولم تطل المزاحمة كثيرا بين لوكندة النورمندي وبين لوكندة الدويتشرهوف اذ ذات صباح في حزيران ١٩٤١ هرب ابو علي وسفيره والهر روزد وهرب القومسيون الايطالي مع كل قواده ، فقد كان الانكليز والديغوليون قد بداوا زحفهم على لبنان ، واخذ الجنرال دانز يحاول صدهم باسم حكومة فيشي ، الذي رأى من واجبه كقائد شريف أن لا يخون عهدها وان يحافظ على المهمة التي اناطتها به .

وما اسرع اعضاء البعثة الالمانية والقومسيون الايطالي بالرحيل نحو تركيا الا عندما كانت جيوش الحلفاء وصلت للدامور . واخذ كل من كان يظن نفسه مشبوها تجاه الحلفاء من اللبنانيين يهرب ايضا ، كما وان الاصدقاء المعروفين للمحور ، او الخصوم المعروفين للحلفاء ، اخذوا يتراكضون نحو الشمال ، وكان في مقدمتهم الامير عادل ارسلان ، وكنا قد قابلناه في مطعم العجمي ساعة رحيله ، وطلب منا ان تقنع ابن عمه الامير امين ارسلان بالبقاء ، فهو ليس عليه شيء يخشى منه . وعندما التقينا بالامير امين وهو يستعد مع نجله لركوب السيارة ، واخذنا نقنعه بالبقاء ، ونؤكد له بضمانات معروفة كثيرة كان الفرنسيون قد اعطونا اياها ، ان ليس هناك خطر ينتظره من دخول الانكليز والديغوليين للبلاد، قال حانقا غاضبا :

ـ وهل يكون ابن عمي عادل صديق الفوهرر اكثر مني ؟

- ٤٣ -

ايه انت يا بارود

وكان هجوم الحلفاء والديغوليين ، وكان هرب البعثتان الالمانية والايطالية ورحيل الخائفين من الزعماء الوطنيين الذين كانوا قد ترددوا على البعثتين ، واتصلوا بهما ، وقدم كل منهم التأييد والمناصرة والخدمات حسب اهوائه وميوله واعتقاده وتكهنه في اي من الاجانبين : الطلياني والالماني هو الذي سيكون سيد هذه البلاد .

قلنا هرب هؤلاء عند الهجوم ، واخذ الحلفاء يقصفون بيروت بطياراتهم بطريقة متواصلة ، والناس في قلق واضطراب يفتش كل منهم عن مارون عرب ، بالرغم من انهم كانوا يعرفون يومئذ ان الفرنسيين كانوا قد ابعدوه . قلنا واخذ الناس يفتشون عن مارون عرب ليحكي لهم مع الانكليز ليكفوا عن ضرب بيروت ، فانما حتى ذلك الحين ايضا كان الناس يعتقدون ان صديقنا مارون عرب يعمل ما يريد بالانكليز ، ليس فقط في قنصليتهم السابقة وسفارتهم اليوم ببيروت ، بل ايضا في قصر بوكنغهام ، وفي بناية الدوننغ ستريت بلندن رقم ١٠ !

قلنا ، كان مارون عرب بعيدا ، ولكن عينه كانت دوما ساهرة ناظرة عارفة تسجل للمستقبل كل حركة من حركات السياسيين والزعماء الوطنيين اينما كانوا ، في حياتهم العامة او في خلواتهم الخاصة .

وكان هناك غير عين مارون . وكان هناك العدد المستتر المتنكر من عمال « الانتلجنس سرفيس » الانكليزية الذين لا يعرفهم غير الله ، وغير اساتذتهم ، يراقبون وينظرون ويعرفون .

وقد ظهر بعد ذلك انه كان عندنا عمال للانتلجنس سرفيس بين عتالة الميناء وباعة الحمص وتجار الخشب ، وبين سماسرة الاشغال والاعمال كما كان هناك عمال لها من النواب ورجال الاعمال ، وحتى من الرهابين ، ومن تجار الحشيش ، والنساء الجميلات المخدرات ، وبنات الرقص والملاهي ، مما لم يكن احد يشتبه بهم ولا يخطر على باله ان هنا

الولد الذي يبيعك سيكارات مهربة ، وهذه الحسناء التي ترقص فيالليدو تعرض عليك محاسنها هما من جماعة مارون عرب ، أو بالاحرى من جماعة مصلحة الاستعلامات الانكليزية !

ولا شك ان كل واحد منا ، مع معرفته بما هي عليه مصلحة المعلومات الانكليزية من قوة ونشاط ، وما يمكنها ان تعرفه عن كل منا ، ما كان يريد ان يكون بجلد الزعماء الذين توددوا وترددوا كثيرا على البعثتين المعروفتين ، وذلك في الوقت الذي كانت جيوش الحلفاء قد تخطت الحدود السورية اللبنانية !

لهذا يجب القول ان الليالي التي قضاها هؤلاء الزعماء في اضطراب وخوف كانت قاسية عليهم جدا .

وذكروا لنا بعد ذلك عنها اشياء عديدة بعد ان اطمئنوا لانفسهم عندما لمسوا تسامحا غريبا عند الحلفاء بعد دخولهم البلاد . وقال لنا أولئك الحكايات الكثيرة عن لياليهم القلقة المضطربة وانها اخافتهم اكثر مما كانت تخيفهم قنابل الغارات الجوية ، التي ظلت عشرين يوما كاملة تقصف بيروت دون هوادة ولا هدنة .

ولا شك اننا نستطيع التساؤل عن هؤلاء الزعماء السياسيين ونقول :

– ايهم عندما جاءت البعثتان ، لم ينقلب من فرنساوي او انكليزي الى الماني أو الى ايطالي ؟

وايهم غير القليل جدا ، لم يتوسط الهر روزر او فون هنتش ، بل يكون توسط صديقنا بنتو ، سكرتير القومسيون الطلياني ، ليحظى بالمقابلة ويؤكد ولاءه واعجابه، وحتى ليقول امام الالمان او الطليان عن الحلفاء كل شيء ذميم وفظيع ، ويقدم للبعثتين معلوماته التي قد يكون منها ما هو خطر على الحلفاء ؟

وايضا اي بيت من البيوت الكبيرة التي كانت تقيم الولائم السخية اللاهية العابثة المتلونة، المتعددة لتسالي الغائصة في بحور الخمرة والحسان لجمال باشا ولانور ولعزمي ولعلي منيف من قبل ، ومن بعدهم للقواد والاسياد الانكليز الفرنسيين عند الاحتلال سنة ١٩١٨ ، والمفوضين السامين السامين والجنرالية والساسة في عهد الانتداب ، وايضا هذه البيوتات وهي نفسها تزاحمت لدعوة الطليان والالمان الذين جاؤوا يطبقون الهدنة في

هذه البلاد ، وذلك فى ولائم واعياد لها ذات السخاء والمكارم والملاهي والفخفخة والحسن والجمال !

فانما نحن من الشعوب التي يمر عليها الفاتحون مرتين وثلاثة مرات كل مئة سنة ، وتجعلنا شريعة المحافظة على الحياة نستقبل كل فاتح بالترحاب والتودد واحناء الراس ، مهما كان بغيضا علينا .

ولا نذهب الى ابعد من ابراهيم باشا المصري وغزوته للبنان وسوريا وبلاد الاناضول ، ثم الجزار الذي تحكم بجبل لبنان تحكما فرعونيا ، ومن بعده جمال باشا والاتراك فى الحرب الماضية ثم غورو وويغاند والانتداب ثم قول هنتش وبنتو فى عهد فيشي وبعد الاستقلال سبرس وكاترو وسواود الروسي السوفياتي .

فانما يجب ان تكون فرنسا وانكلترا واميركا حتى البرازيل والاكوادور، عرفت المكتسحين الفاتحين كما عرفهم لبنان يدخلونها عنوة ويتحكمون بها بالسيف والترس حتى لا تعود تستهجن عندما تعرف ان اللبنانيين اضطر وامثلا خلال هذه الاربعين سنة الاخيرة التي مرت عليهم ان ينقلبوا من اتراك الى فرنسيين — عن طريق الانتداب . ثم الى انكليز — عن طريق ثورة بشارون — ومن بعد ذلك لمدة قليلة الى مستقلين عن طريق الجلاء، والان — مبدئيا وعمليا معا ينقلبون الى اميركان اعتبارا عند كل لبناني ان اميركا بدات تاخذ مكان فرنسا وانكلترا وجميع دول الارض فى هذه البلاد ، وذلك فى ولائم واعياد لها ذات السخاء والمكارم والملاهي والخمرة اذ فى ذلك الوقت لم تكن الشيوعية اتخذت بيروت مقرا لقيادتها فى الشرق الاوسط ولم يكن سواود دمن بعده خلفه الحاضر قد وصل الى هنا واخذ يشتغل وهو صامت ساكت .

والبناني بطبيعة حاله لا يمكنه ان يؤمن نهائيا انه مستقل ، فانما هكذا علمته الاجيال التي عاش فيها دوما مستقلا ولكن تحت رحمة غيره ودوما تابعا وجزءا من غيره .

وعنده هذا الهاجس انه لا يمكنه ان يؤمن بالاستقلال حتى فى هذا الوقت الذي يفخر ويعتز فيه على جميع الشعوب العربية بانه وحده — مع السوري — على استقلال كامل لا احتلال اجنبي — حتى بالصورة الرمزية التي بالعراق والسعودية وغيرها .

- ٥٤ -

الاستقلال الذى لانؤمن به

اي متى كان الاستقلال فى لبنان ؟

هل فى ايار ١٩٤١ عندما رمت طائرات الحلفاء الانكليز والديغوليين على المدن والقرى بسوريا ولبنان منشور الجنرال كاترو المشهور الذي اعلن نهاية الانتداب الفرنسي فى البلدين وقيام استقلالهما حالا وبمجرد دخول الحلفاء ظافرين اليهما .

هل يكون بدا الاستقلال عند ذلك التاريخ ـ فى حين انه لم يتبدل علينا شيء بعد ذلك المنشور وبعد دخول الحلفاء وحتى خلال السنتين اللتين جاءتا بعد انكسار الفيشيين سوى أن المفوضية السامية للجمهورية الفرنسية فى سوريا ولبنان غيرت اسمها واخذت اسم المندوبية العامة للجمهورية الفرنسية فى سوريا ولبنان .

وكان الجنرال كاترو الذي استلم المندوبية العامة بعد سقوط الفيسيين كريما جدا عندما أعلن الاستقلال واحب ان يحيط ذلك الاستقلال الاسمي باطار من الزهور وبجمهرة من السياسيين الدعاة وبالبروبغندا القومية مما كان يترك بعض الظواهر الجميلة للحكومة الوطنية وكانت عنده اللباقة انه اخذ بكل ظرف يرفض ما يطلبه الساسة منه ان يفسر الاستقلال الذي اعطاه ، ابى الجواب على هذا الطلب وذلك خوفا من أن يفسره ، حسب ما يريده الفرنسيون لنا ، وليس حسب ما نريده نحن لانفسنا مما كان يعرف جيدا انه يغضب الاهالي ويزيد فى مخاصمتهم لفرنسا .

ظل كاترو يخادعنا ويخدعنا مكرمة منه ـ ومن الاكيد انه لو كان الامر بيده لكان عمل لنا اكثر مما كان يعمله لبلاده .

قلنا ، وظل يخادعنا ويخدعنا ولا يريد أن يقول ـ كما كان يفتكر فعلا ـ انه يتمنى استقلالنا استقلالا صحيحا ، ولكن فرنسا الديغولية

لا تريده هكذا ، وقد اعلنته ولكن لتربطه باتفاق معنا ، يترك لها جميع ميزاتها العسكرية والسياسية والاقتصادية ـ كان كاترو يعرف ذلك ولا يقوله ـ وكنا نحرز ذلك ولا نلح عليه فى الجواب ، خوفا من أن نضطره لان يعمل الشيء الذي كان يتحاشاه وهو اخجال نفسه امامنا.

وظلت الحال بيننا وبين كاترو هكذا ـ حتى جاء دي غول الى بيروت ـ وباض بيضته المفضوحة فى خطابه الصارخ بنادي الاونيون الفرنساوي على الزيتونه عندما اعلن ان الاستقلال لسوريا ولبنان لا يعني تخلي فرنسا عن مركزها السياسي والعسكري والاقتصادي والتقليدي فى البلدين .

وبعد هذا الكلام ما عاد الجنرال كاترو صديق هذه البلاد الصادق يعرف كيف يستر خجله ويخفي راسه . فهو ولا شك كان خجولا مما جرى وقد قال شيئا من هذا فى المذكرات التي كتبها بعد ذلك ، وكان فيها صريحا جداً .

فانما الاستقلال فى نظر دي غول كان معناه دوام الانتداب مع هذا الفارق ان الانتداب كان تسوية بين جامعة الامم وبيننا ، ودي غول اراد ان يكون تسوية بيننا وبين فرنسا لوحدها ـ على أن يسميه هو ونسميه نحن استقلالا .

ولكن الاستقلال الحقيقي الذي يعني السيادة الوطنية ـ وهو لاستقلال الذي اراده كاترو لنا ، لم نعرفه الا بعد ذلك بكثير ، وليس فى ثورة بشامون ـ كما يريد الكثيرون قوله ، اذ عندما كان لبنان يستقل ببشامون كان الجند الفرنسي فى البلاد يحتلها من جميع جهاتها .

انما الاستقلال الحقيقي كان فى اليوم الذي جلا فيه اخر عسكري افرنسي عن هذه البلاد .

وذلك عندما ذهب الثلاثة الكبار كميل شمعون ، رياض الصلح ، حميد افرنجيه ، يرافقهم سياسي لبناني قد لا يطيب لنا أن يرافق/سمه هذه الاسماء الصادقة الوطنية الصالحة وذلك عندما ذهب هذا الوفد للندن وباريس ورجع الينا يحمل وثيقة الجلاء .

وهي وثيقة الاستقلال الحقيقية التي سنتكلم عنها مليا وعن رجالها عندما يأتي الوقت .

وهو الاستقلال الذي ـ ما زلنا ـ مع كل ما نتمتع به من حسنات لا نؤمن به كثيرا ... كأنه ثروة هائلة سقطت فجاة على شحاذ فاخـذ يقضي الدهر ولا يصدق انها حقيقة وهو فى ضعفه وهزاله وازدرائـه بنفسه لا يمكنه ان يعتبر انها له .

- ٥٥ -

الفصل الاخير من هذا الكتاب الاول

رجال على الاصابع

والان ، ما هو الذي جعل الناس يغضبون على الدولة امس وجعل بيروت تقفل اسواقها شاملة وتضرب اياما وتثبت غضبتها على العهد .

هل هو العبث بالدستور ؟

او مفاوضات صلح مع اسرائيل .

او تزوير فى الانتخابات ؟

او هو ظالم فى المحاكم ؟

او عدم اعطاء المراة حقوقها ؟

او ضرب أبوليس للناس المسالمين بالنار ؟

لا هذا ولا ذاك ، حتى ولو ان كل هذه الرزايا كانت قائمة وموجودة فهي لا تشكل السبب الذي من اجله اضربت بيروت ، اضراب التهديد والوعيد، لقداضربت بيروت لان السياسيين المعارضين عرفوا كيف يظهرون للناس فى ضائقتهم وافلاسهم ان رجال الدولة السالفة هم الذين اخذوا اموالهم وجوعوا البلد ؟؟

لهذا ، اضراب بيروت لم يكن لخدمة هؤلاء الزعماء المعارضين ضد اولئك لزعماء الحاكمين .

كانت الحكاية مثلما او قيل لك انت مفلس لان الذي يحكمك اخذ مالك ورزقك .

وهكذا عندئذ تنظر الى حاكمك نظرتك الى رجل ظلمك وجوعك وتحكم فيك واغتنى من فلوسك .

وعلى هذه القاعدة ولهذا السبب قام الاضراب الذي سبق الانقلاب.

والان هذا الذي يجب ان نبحث فيه فى كتابنا الثاني .

من هم الذين اخذوا المال ؟ وجعلوا الناس مفلسين، وكيف اخـذوا هذا المال .

وسنقول الحكاية الحقيقية عن الاستغلال والسلب .
وحكايات المحظوظين والنواب والزعماء وكبار التجار المتلاعبين .
ونقول الحقيقة ايضا عن النزاهة والتجرد الذين حمل لوائهما فقط بضعة سياسيين نعدهم على الاصابع وقد نكون ايضا مخطئين فى تاكيدنا انهم باجمعهم كانوا شرفاء .

فانما لا بد للمشاة فى وسط الشارع ان تبللهم الامطار على ان بعضهم يحمل ربما مظلة تجعل تبلله خفيفا لا يصل الى أطراف رجليه ويديه .

***

ولكن لماذا يتهم الاهالي الان السياسيين واهل الراي وحـدهم بالاستغلال .

لماذا بالاحرى يدور اهل البلد بوجوههم نحو المستثمرين من هؤلاء التجار والصناعيين ، الذين استباحوا ـ كل واحد منهم ـ بطريقة خاصة صفقات التموين والنقد النادر ، وبالات النسيج وتعهدات المطار وغير المطار ، وصفقات الميموزا والزيت والارز .

وهي صفقات نعرف عنها الشيء الكثير الحقيقي ، وكثيرا ما شكونا اصحابها لانهم كانوا ياكلون علينا الكثير من الحصة التي كانت لنا ، وقد كنا لا نغتفر لنفسنا ونزدري بها لو تركنا كل هذه الصفقات تتم ونحن نتفرج عليها من بعيد ونحضر السوق ولا نشتري ولا نبيع .

نعم سنبحث بكل شيء وعندها يجد الملاحظون ان الستافسكيين عندنا كثيرون جدا وفى كل يوم يطلع علينا ستافسكي جديد فى حين ان ليس بفرنسا غير ستافسكي واحد كل عشر سنين .

واذا كان بعض السياسيين والتجار هنا لا يسلبون ولا يسرقون فذلك ليس لانهم لا يريدون ، بل لانهم لا يعرفون او ان يدهم قصيرة لا تطال شيئا يسرقونه .
نعم هكـذا .

هذا هو الحكم الذي نحكمه ونعلنه على الملأ .

وذلك لاننا لا نريد ان نفتر ولا ننخدع حتى بالاكثر بالذين يفترضهم الناس انهم فوق كل شبهة .

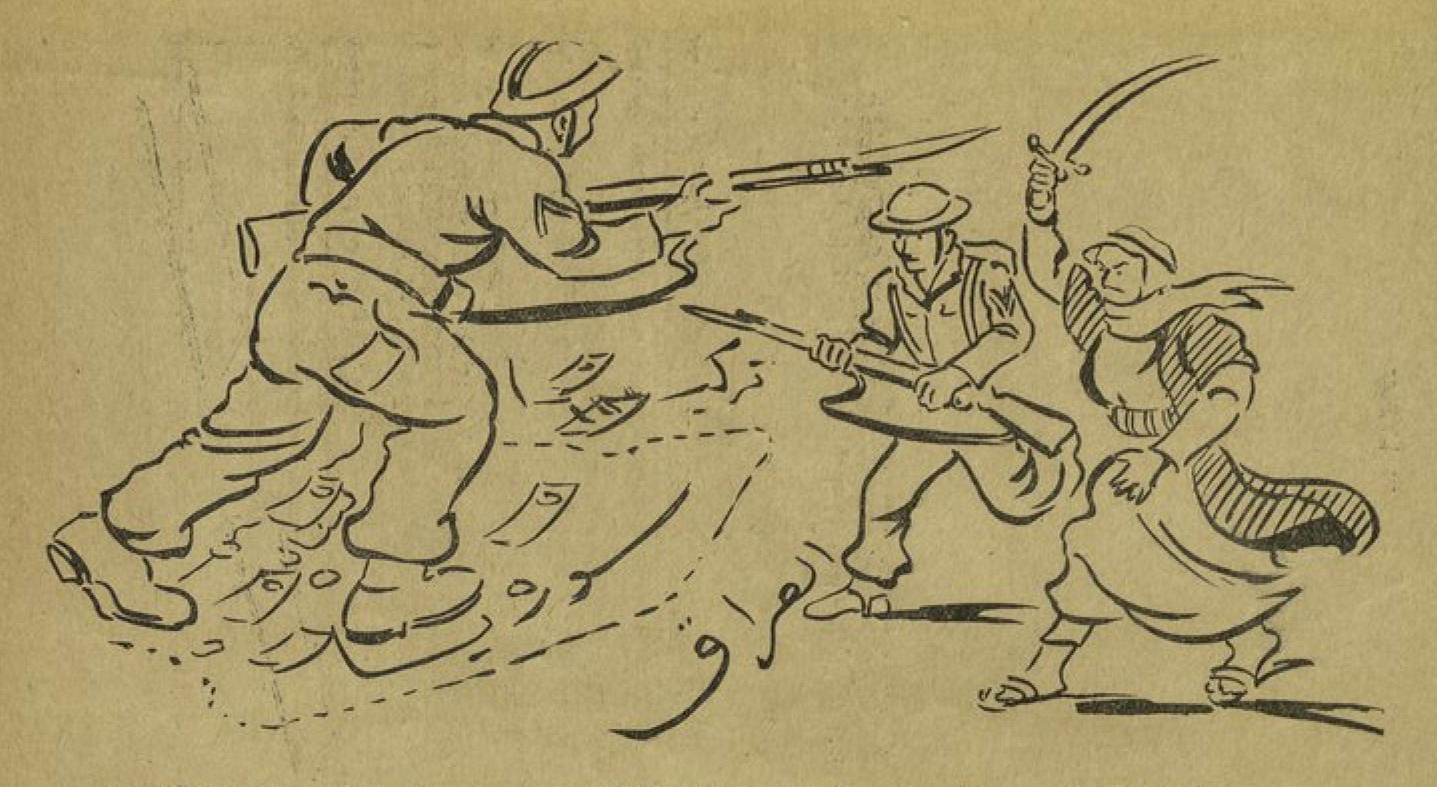
حاشية ـ كانت المفوضية السامية يوم حرب لبنان حرقت اوراقها السرية في اتون الكلس باعالي منطقة الدكوانة ، وقد تناثرت اوراق عديدة هنا وهناك لم تصلها النار ، ومن هذه الاوراق خلاصة ملف « دوسيه » كل سياسي لبناني كبير معروف ، وراي المفوضية السامية فيه .

ونحن الذين التقطنا اكثر هذه الاوراق وجمعناها وحفظناها ، وهي التي ستنشر في الفصل الاول من الكتاب الثاني فيعرف عدد كبير من كبار السياسيين اللبنانيين ماذا كان راي فرنسا فيه ، ويعرف الناس كيف كانت فرنسا تنظر الى اولئك السياسيين ـ مما هو طريف وهام ، ومما هو اكتشاف كبير لم يسبقنا احد عليه .

فاي من الناس كان خصما للانتداب او صديق له لا يريد ان يعرف ما كان راي الانتداب فيه ؟

واي لا يريد ان يعرف ماذا كان راي الانتداب في بشاره الخوري وباده وبرياض الصلح وبعبد الحميد كرامه وبكميل شمعون وبحبيب ابو شهلا وبعمر بيهم وبخير الدين الاحدب .. الى اخره الى اخره .. مما هو عدد كبير للسياسيين نعرف نحن وحدنا سرهم من المصدر الاعلى وقد كانت مقدراتهم بيده ومصيرهم رهن اشارته .

الكتاب الثاني : كاشف الاسرار وفضاح الخفايا وفاتح الحصون !



... لما كان الفرنسيون يتنازعون مع الشريف وحلفائه الانكليز علـــى سوريا ولبنان . (صفحة ١٩)



دخل رياض الصلح معنا على جورج بيكـو (الى اليسار) من بـاب ، وخـرج لوحده من بـاب ...
(الصفحة ٢٥)



... جلس الشيخ محمد الجسر فى صدر رئاسة المجلس (صفحة ٤٠)



... كان فى الواجهة ببيروت الثلاثة المارونيون الكبار : اميل اده وحبيب السعد وجورج ثابت ، وذات صباح هبط من جبله الرجل الرابع ، ودخل عليهم بخطوات وسيعة قوية ...

(الصفحة ٤٠)



... عندما حكم السكرتيرية كان «مار روكز» يعمل مايريد !
(صفحة ٤٧)



... لم ينقطع الخط بين سراي البرج وسراي المفوضية
ولا مرة في عهد رئاسة لدباس للجمهورية (صفة ٥٤)



تشاهده فى الصورة داخلا الى معركة ...
(الصفحة ٨٦)



وكان دي مارتل ينظر للسابحات العاريات فى بحيرة المفوضية وعيناه تنضحان شبقا واشتهاء
(صفحة ١٣٣)



وقام المؤمنون فى جامع اميــة يهتفون : « لا اله الا الله ، والبطريرك عريضة حبيب الله! » الصفحة (١٣٦)

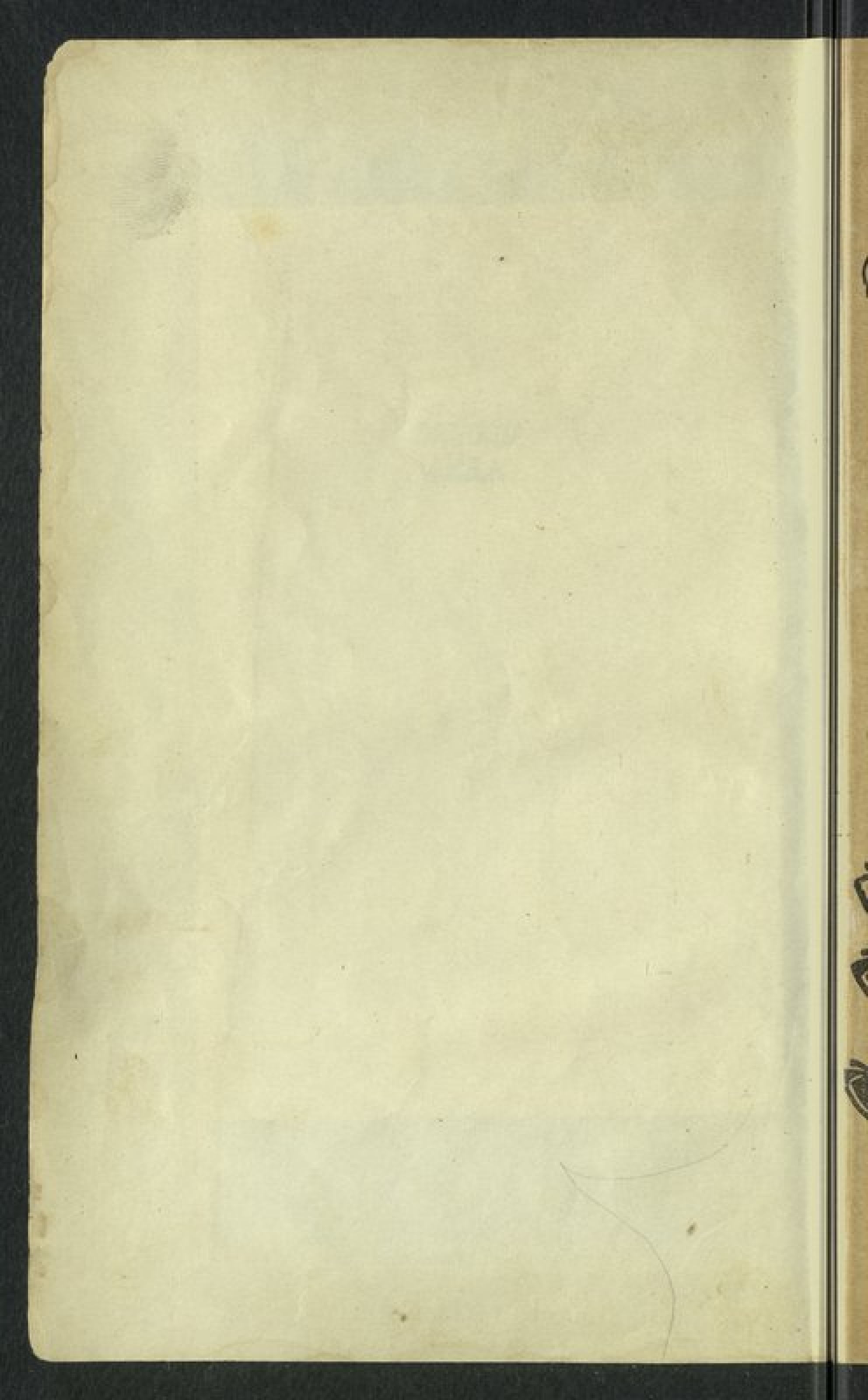


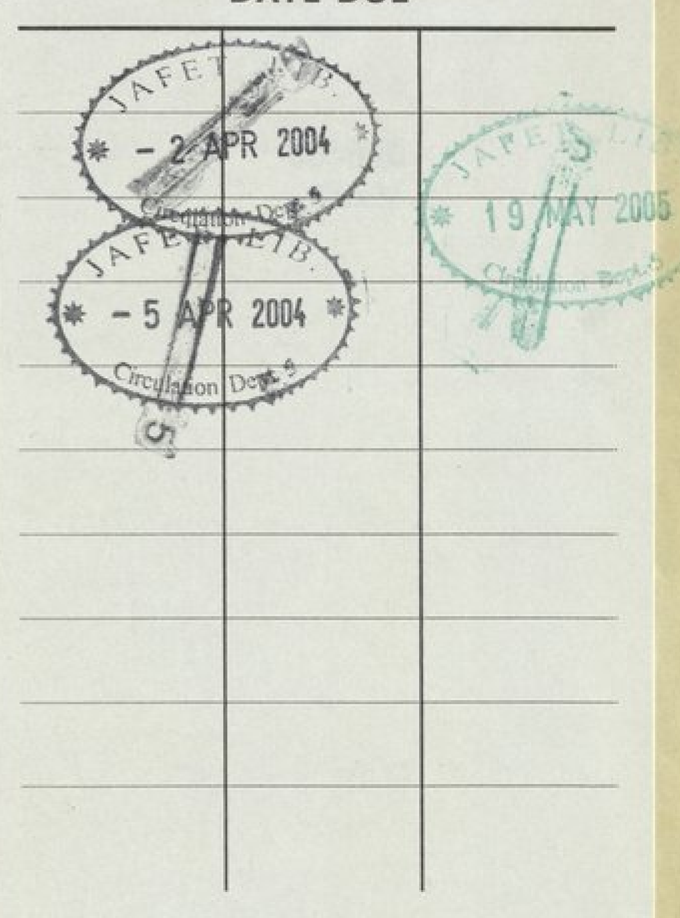
«دخل خير الدين الاحدب للسراي قويا مغامرا ، ووراءه الجيـــش الفرنســاوي يحمي ظهــره ». (الصفحة ١٦١)

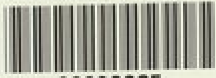
الفرسان الثلاثة : خير الدين الاحدب ، حبيب ابو شهلا ، جورج حيمري

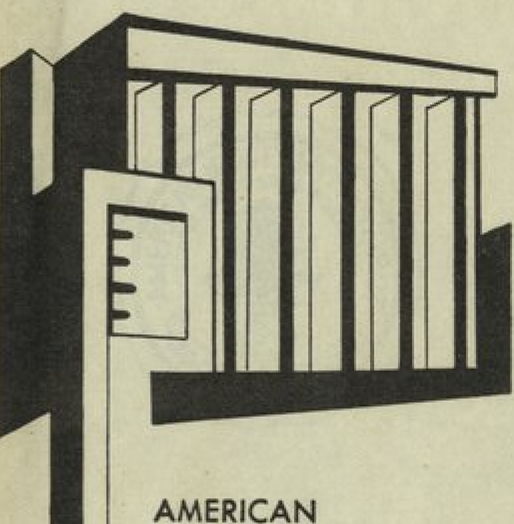


«... وراح الهاشميون يتوددون الى لبنان ، فسارع السعوديون الى المقابلة بالمثــــل . (صفحة ٢٥٨)




DATE DUE
JAFET LIB.
- 2 APR 2004
Circulation Dept.
JAFET LIB.
- 5 APR 2004
Circulation Dept.
19 MAY 2005
Circulation Dept.




AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

